جناية أحمد أمين
على الأدب العربي

الدكتور زكي مبارك

جناية أحمد أمين
على الأدب العربي

الدكتور زكي مبارك

- ١ -

لصديقنا الأستاذ أحمد أمين مؤلفات جيدة قامت على أساس المنطق والعقل، وهو من كبار الباحثين في العصر الحديث.

ولكنه على أدبه وفضله لا يجيد إلا حين يصطحب الروية ويطيل الطواف بالموضوع الواحد عاماً أو عامين، وذلك سر تفوقه فيما نشر من البحوث والتصانيف

ولسنا نظلم هذا الصديق المفضال حين نحكم بأنه لا يصلح لتقييد الخواطر العابرة التي تطوف بالذهن من حين إلى حين، لأن ذلك لا يتيسر إلا لمن رزق موهبة أدبية تقيِّد شوارد المعاني بلا تعب ولا عناء، وتضيف المألوف إلى صف الطريف بعذوبة التعبير وقوة الروح.

أحمد أمين باحث كبير بلا جدال، ولكنه ليس بكاتب ولا أديب، وإن كان من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية.

ولم يستطع الأستاذ أحمد أمين على كثرة ما كتب وصنَّف أن ينقل القارئ من ضلال إلى هدى، أو من هدى إلى ضلال، وإنما كانت مؤلفاته وبحوثه ضرباً من (التقرير) الذي يخاطب الأذهان ويعجز عن مخاطبة العقول والقلوب.

وحياة الأستاذ أحمد أمين تؤيد ما نقول: فهو رجل لا يعرف الخلوة إلى الفكر والقلم، ولا يتسع وقته لدرس ما في الوجود وما في الأخلاق من مشكلات ومعضلات، وإنما يقرأ ويسمع، ويعلق على ما يقرأ ويسمع، بدون أن يتغلغل إلى أسرار المجتمع أو سرائر القلوب.

وهيام الأستاذ أحمد أمين بالظواهر قد عاد عليه بأجزل النفع من الوجهة الشكلية؛ فهو رئيس لجنة النشر والترجمة والتأليف، وهو أستاذ بالجامعة المصرية، وهو عضو في كل لجنة تؤلفها وزارة المعارف، وهو مشرف على بيت المغرب، وهو مؤلف كتب وناشر مقالات، وهو صاحب ثروة يدبرها ويشقى في سبيلها أعنف الشقاء.

وهذا كله مقبول، ولكن الخطر كل الخطر في ألا يقنع هذا الرجل بما وفق إليه في حياته الرسمية والمعاشية الخطر كل الخطر في أن ينصب هذا الرجل نفسه حاكماً بأمره في تقرير مصير الآداب العربية، وهو لم يستطع إلى اليوم أن يقيم الدليل على أنه يتذوق المعاني والأساليب.

الخطر كل الخطر في أن يتوهم الأســتاذ أحمد أمين أنه قادر على زعزعة ما أقامته الأيام من الحقائق الأدبية، الحقائق التي ساد بها العرب في أزمان طوال، وكان لها سلطان مهيب في أقطار الشرق وأقطار الغرب.

ولكن ما الذي نقل ذلك الرجل الفاضـــل من حال إلى أحوال، وحَّوله من الروية إلى الارتجال؟.

ما الذي قضــى بأن يثور أحمد أمين على ما خُلق له فيطالع الجمهور بآرائه من يوم إلى يوم وكان يلقاه من عام إلى عام؟.

لقد أصبح الرجل صحفيّاً، وكان أستاذاً ولكنه لم يراع أدب الصحافة، لأن الصحافة تقف عند المشاهدات وهو يهيم بأودية الفروض.

ابتدأ هذا الرجل مقالاته في مجلة الثقافة بتلخيص بعض الكتب الأدبية فكان من الصحفيين الأدباء ثم رأيناه يتحول فجأة فيلخص الأدب العربي في جميع عصوره تلخيصاً يقوم على أساس الخطأ والاعتساف، ويعوزه تحرير الحجة وتصحيح الدليل.

فهل يظن أنه سينجو من عواقب ما يصنع؟

هل يتوهم أن التجني على الأدب العربي سيمر بلا اعتراض ولا تعقيب؟

إن لهذا الرجل صـــداقات مع كثير من الأدباء والناقدين، وهو لذلك يرجو أن يصـــول ويجول بلا رقيب ولا حسيب.

فما رأيه إذا أقنعناه بأن للأدب العربي أنصاراً يغارون عليه أشد الغيرة، ويقفون لخصومه بالمرصاد؟.

ما رأيه إذا ســـددنا في وجهه جميع المســـالك وقهرناه على الانســـحاب من ميدان الدراسات الأدبية؟.

ما رأيه إذا فرضنا عليه أن يعود رجلاً يؤذيه أن يجانب المنطق والعقل؟

- ٢ -

تعود الناس أن يســـألوا: (ما الذي بين فلان وفلان؟) حين يرون غبار المعارك الأدبية؛ وقلَّ في الناس من يتصور أن تقوم معركة أدبية في سبيل الحق بين صديقين متصافيين كالذي أصنع اليوم في الهجوم على الأستاذ أحمد أمين.

والواقع أن ذلك الفهم لأسباب المعارك الأدبية هو صورة بشعة من ضعف الأخلاق عند من يتوهمون أن الأدباء لا يهجم بعضهم على بعض إلا طلباً لشفاء المكتوم من أمراض الحقد والبغضاء. ..

فما الذي بيني وبين الأستاذ أحمد أمين حتى يصح أن أهجم عليه هذا الهجوم العنيف؟

أنا لا أذكر أبداً أن هذا الرجل وجَّه إلي إساءة في محضر أو مغيب، وإنما أذكر أنه كان مثال الصـديق الوفيّ الأمين في مواطن يستظهر فيها الصـديق بالصـديق، وتنفع فيها كلمة الإنصاف عند طغيان الأغراض.

والواقع أيضاً أن الأستاذ أحمد أمين لم يعان متاعب الحيرة إلا فيما يقع بينه وبيني، فهو يقرأ ما أهجم به عليه من وقت إلى وقت فيضجر ويمتعض، ثم يراني بغتة فيقرأ في وجهي آيات من المودة لا يشوبها خداع ولا رياء، فتأخذه الحيرة والاندهاش.

فما معنى ذلك؟

ألا يكون معناه أن لي مبادئ وعقائد أدفع عنها السوء ولو وقع من أعزّ الأصدقاء؟

ولكن ما هي المبادئ والعقائد التي أجاهد من أجلها في هذه الأيام. . .؟

أنا أومن بأن الأدب العربي أدب أصـيل، وأعتقد أن من الواجب أن ندعو جميع أبناء العروبة إلى الاعتزاز بذلك الأدب الأصـيل لأنه يسـتحق ذلك لقيمته الذاتية، ولأن الإيمان بأصالته يزيد في قوتنا المعنوية، ويرفع أنفسنا حين ننظر فنرى أن أسلافنا كانوا من المبتكرين في عالم الفكر والبيان.

وقد درج الأستاذ أحمد أمين في الأيام الأخيرة على الغض من قيمة الأدب العربي، وكان من السهل أن نتركه يقول ما يشاء لو كان من عامة الأدباء، ولكنه اليوم رجل مسئول: لأنه من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية، ولأغلاطه سناد من تلك الأستاذية، فهو يقدر على

زعزعة الثقة الأدبية في أنفس طلبة الجامعة حين يريد، وذلك خطر لا نسكت عليه رعاية لما بيننا وبينه من أواصر الوداد.

فإن بدا لهذا الصديق أن يغضب من هجومنا عليه فأمامه طريق الخلاص: وهو الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية إلى أن يعرف أن الأدب لا يؤرخ على طريقة الارتجال.

ولعل هذا الصديق يرجع إلى نفسه في بعض لحظات الصفاء فيذكر أنه لم يخلق ليكون أديباً، وأنه لم يفكر في دراسة الأدب دراسة جدية إلا بعد أن جاوز الأربعين.

لو رجع هذا الصديق إلى نفسه لعرف أنه لا يجيد إلا حين يشغل وقته بتلخيص المذاهب الفقهية والكلامية.

ولو شئت لكررت ما قلت في الكلمة الماضية من أن موقفه في جميع أبحاثه موقف (المقرَّر) ولم يستطع مرة واحدة أن يكون من المبتكرين في الدراسات الفقهية والكلامية.

وإذا كان هذا حاله في الفقه والتوحيد، فكيف يكون حاله في الأدب، والأدب يرتكز على الحاسة الفنية، وهي حاسة لم توهب لهذا الرجل قبل اليوم، ولن توهب له بعد اليوم، لأنها من الهبات التي لا تنال بالدرس والتحصيل؟.

أحمد أمين ليس بكاتب ولا أديب وإن سودّ الملايين من الصفحات

فليس من الإسراف ولا التجني أن ندعوه إلى الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية. وسيرى كيف نقفه حيث وقفه الله فلا يزعزع الثقة بماضي الأدب العربي لتصح كلمة المفترين في ذلك الماضي المجيد.

أُيحكم على العصر العباسي بالفقر والخمود من أجل قالة خاطئة يتنفس بها أحمد أمين؟

أُيهدم ماضينا الأدبي بمحاولة رجل محروم من الذوق الأدبي؟

إن ذلك لا يقع إلا يوم يصح أن المصريين تنكروا لماضي اللغة العربية مرضاةً لمواطن عزيز يسره أن يتطاول على الأدب وهو غير أديب.

وأغلب الظن أن المصريين يؤذيهم أن يقع ذلك وهم ينفقون الملايين من الدنانير كل عام في سبيل إعزاز الأدب العربي.

والجامعة المصرية أمرها عجب!

في الجامعة المصـــرية تُدرَس الآداب الإنجليزية والفرنســـية والفارســـية والعبرانية واللاتينية واليونانية، ولتلك الآداب أساتذة يهمهم قبل كل شيء أن يوحوا إلى الشبان أنها آداب جديرة بالخلود. ولو رأت الجامعة المصرية أن تدرس اللغة الزنجية لوجدت أستاذاً يقول بأن لغة الزنوج أحسن اللغات فكيف تفردت اللغة العربية بالضيم والهوان في أنفس أساتذة الجامعة المصرية؟.

وبأي حق يرضـى أحد الأســاتذة أن يقضــي العمر في تدريس الأدب العربي وهو يراه (ينحدر مع التاريخ شيئاً فشيئاً ليكون أدب معدة)؟.

ومن هذه النقطة نمسك بخناق الأستاذ احمد أمين

هذا الرجل ينظر إلى الأدب وإلى الوجود نظرة عاميّة، فهو يقســم الأدب إلى قســمين: أدب معدة وأدب روح.

والسخرية من المعدة لا تقع إلا من رجل يفكر كما يفكر الأطفال. فالمعدة التي يحتقرها هذا الرجل العاميّ هي ســـر الوجود. وعن قوة المعدة تنشـــأ قوة الروح. والأدباء الكبار كانوا أصـــحاب معدات كبار. وســـر العظمة عند فيكتور هوجو يرجع إلى معدته العظيمة، وما ضعف الغزالي في أحكامه الأخلاقية إلا لأنه ألف كتاب الأحياء وهو ممعود.

والظاهر أن معدة أحمد أمين معدة ضـــعيفة، لأنه يواجه الوجود بعزائم الضـــعفاء؛ وإلا فكيف اتفق له أن يؤلف في الأخلاق بدون أن يستطيع الثورة على موروث الأخلاق؟.

إن المباعدة بين المعدة والروح عقيدةٌ هندية الأصل، وتلك المباعدة هي التي قضت بأن يعيش الهنود فقراء. ولو احترم الهندي كما يحترم الإنجليزي معدته لما استطاع الإنجليز أن يكونوا سادة الهنود؟.

أنا أعرف أن أحمد أمين يتخلق بأخلاق الأسماك. وآية ذلك أنه لم يُغضـب الجمهور مرة واحدة. وهل اتفق للسمك أن يقاوم التيار مرة واحدة؟.

وهيام أحمد أمين بتحقير المعدة نشأ من رغبته في مجاراة الرأي العام في الأخلاق السلبية، الرأي السخيف الذي يحمل الدراويش والرهبان أعظم أخلاقاً من تشمبرلن وهتلر وموسيليني، والذي يجل زهديات أبي العتاهية أشرف من غراميات الشريف الرضي.

وهذه العلمية في التفكير هي التي فرضـت على أحمد أمين رضـى الله عنه أن يرى الغزل الفاجر أدب معدة، على حين يرى وصف الطبيعة أدب روح.

وهذا الكلام ضعيف إلى أبشع حدود الضعف.

فالغزل القوي هو من شواهد الحيوية الدافقة في الرجال.

أما وصف الطبيعة فهو إحساس دقيق يأنس إليه من حرموا الأنس بالجمال الحساس الذي يملك التعبير عن العواطف والشهوات ولو شئتُ لاستشهدتُ بقول مؤلف (مدامع العشاق) إذ يقول:

(وماذا أصنع بالأشجار، والأزهار، والثمار والأنهار، والكواكب، والنجوم، والسهول، والحزون، والطيور الصوادح، والضباء السوانح؟.

ماذا أصنع بكل أولئك إذا لم يكن معي إنسان أطارحه القول وأساجله الحديث، وأساقيه صهباء هذا الوجود؟.

وما قيمة الليل إن لم تظلني في الحب ظلماؤه؟ وما قيمة البدر إن لم يذكرني بالثغر لألاؤه؟ وما جمال الأغصان إن لم تهزني إلى ضم القدود؟ وما حسن الأزهار إن لم تشقني إلى لثم الخدود؟ وكيف أميل إلى الضباء لو لم تشه بعيونها وأجيادها ما للحسان من أعناق وعيون؟ وكيف أصبو إلى غُنّة الغزال لولا تلك النبرات العذاب التي يسمونها السحر الحلال)؟.

ذلك أيها الأستاذ رأي مؤلف (مدامع العشاق) وهو رجل له معدة وروح، ولا ينكر ذلك إلا من حرموا قوة المعدة، وقوة الروح.

وقد أراد أحمد أمين – على طريقته في التودد إلى الجماهير – أن يزج بالقرآن في مجال التفرقة بين أدب المعدة وأدب الروح، مع أنه يعرف أن القرآن لا يقيم وزناً لأمثال هذا الاصطلاح. ولو أنه تأمل قليلاً لعرف أن القرآن يفيض بالأفكار التي توجب الاهتمام بالمطالب الجسدية. وعقيدة الإسلام تقوم على أساس الاعتراف بأن الإنسان مكون من جسد وروح. والمؤمنون في نظر القرآن سيصيرون حين يرضى الله عنهم (على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخَّلدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصَّدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحورٌ عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاءً بما كانوا يعملون).

ويحدثنا القرآن بأن أصحاب اليمين سيكونون (في سدْر مخضود، وطلح منظود، وظلّ ممدود، وماءٍ مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة).

أيكون هذا أدب معدة لتصح سخرية أحمد أمين من المحسوسات؟ ألحق أن القرآن أقحِمَ بلا موجب في كلمة أحمد أمين. والمزية الأساسية في القرآن هي تخليص العقيدة الإنسانية من أوهام الأحبار والرهبان، ودعوة المسلمين إلى اغتنام المنافع الدنيوية والأخروية. وأظهر الأدلة على ذلك هو النص على ما في الحج من شهود المنافع، وهو نص صريح في أن مطالب المعدة تساوي في نظر الشرع مطالب الروح.

وهل يجد أحمد أمين حين يحتقر المعدة؟

هل يجدّ احمد أمين حين يحكم بأن مقالات (الكاتب) التي باعثها الأول الاستيلاء على الأجرة أدب معدة؟.

أشهد أنه احتاط حين قيد هذه الحالة بقيود، ولكن تلك القيود جعلت فرضه من المستحيلات.

فما هو الباعث الأول لأعمال أحمد أمين في كل ما يباشر من الشؤون؟

هل يرضى أن يعمل في الجامعة المصرية بالمجان؟

هل يرضى أن يشترك في تأليف الكتب المدرسية بالمجان؟

هل يرضى عن نشر إعلان بالمجان في مجلة الثقافة لطبعة من طبعات المصحف الشريف؟

هل يقبل الخروج من ثروته لإطعام الفقراء والمساكين؟

فإن لم يفعل – ولن يفعل – فلأية غاية ينشر هذه الآراء بين الناس؟

وهل يحق للمعلم أن ينشر من الآراء ما لا يستطيع التمذهب به في أي وقت؟

إن السر في نجاح أحمد أمين يرجع إلى أنه يحترم الواقع في مذاهبه الأدبية والمعاشية. وهو في سلوكه الشخصي نموذج للرجل الحصيف، لأنه لا يقبل على عمل إلا حين يعتقد أنه عمل ينفع.

والخطأ الذي وقع فيه هذه المرة خطأ مقصود، وهو نافع في حكم المعدة، وإن كان ضارا في حكم الروح.

وإنما كان هذا الخطأ نافعاً في حكم المعدة لأنه يصور صاحبه بصورة الراهب المتبتل، وتلك غاية قد تنتفع بها الأمعاء إن من الخسارة الجسيمة أن يصبح مثل هذا الرجل الفاضل

من الذين يزخرفون المقالات في شـؤون تضـر المجتمع وتعود عليه وحده بالنفع (وتعليل ذلك واضح بقليل من إعمال الفكر) كما يحلو له أن يقول.

قامت نظرية أحمد أمين على غير أساس

وما كانت نظرية، وإنما كانت حيلة (باعثها الأول ملء أعمدة من الصحف والمجلات) وقد وصل إلى ما يريد وأضيف إلى حسابه مبلغ صغير أو كبير من المال.

ولولا أني أحترم المال لكرهت النص على أن هذا الصديق يعمل للمال

وهل يحتقر المال إلا من كتب عليهم أن يعيشوا أذلاء؟

نحن جميعاً نعمل للمال وللمعدة، وما في ذلك من عيب، ولكن العيب هو في تنفير الجمهور من المال طلباً لحسن السمعة بين من ورثوا السخرية من المال بفضل ما وصل إلى عقولهم المريضة من أقوال الدراويش والرهبان.

وليس معنى ذلك أني أنكر مطالب الروح، فلولا مطالب الروح لما استبحت أن أخلق لنفسي عداوة رجل يضر وينفع مثل أحمد أمين.

لقد فكرت كثيراً قبل أن أقدم على هذه الجملة الأدبية، وصح عندي بعد الروية أن الغض من قيمة الأدب العربي هو عدوان على كرامة الأمة العربية، فأنا استهدف لعداوة هذا الرجل وعداوة أصدقائه في سبيل المبدأ والعقيدة، فليضف هذه المقالات العنيفة إلى أدب الروح، إن كان من الصادقين!.

أشرت من قبل إلى مركز هذا الرجل في الجامعة المصرية وقدرته على تلوين آراء الطلاب حين يشاء، فهل يكون من الشطط أن نقول له حين يخطئ: قِف مكانك!.

لو كان أحمد أمين أديباً لقلنا إن من حقه أن يبتدع من الصور الأدبية ما يريد، ولكنه ليس بأديب، وإنما هو مؤرّخ أدب، ولأحكامه الخاطئة في تاريخ الأدب تأثير سيئ لا يدرك خطره إلا من عرفوا أنه رجل محترم يقبل الشبان آراءه بلا مراجعة ولا تعقيب.

ونسارع فنقرر أن ضمير أحمد أمين سليمٌ من الوجهة الأخلاقية، فهو يكتب ما يكتب ويقول ما يقول عن اقتناع، وإنما يصل إليه من الخطأ من طريقين: الأول عدم تمكنه من تاريخ الأدب العربي؛ والثاني عدم تعمقه في درس سرائر النفسية والوجدانية. ومن هنا كثرت أغلاطه في فهم أصول الأدب وأصول الأخلاق.

والهجوم على هذا الرجل قد ينفعه أجزل النفع فينقله من حال إلى أحوال، ويحبب إليه التروي والتثبت، ويصـــرفه عن التحامل البغيض على الأدب العربي، ويقنعه بأن أدب الفطرة أفضل من أدب الافتعال.

وأحدد الغرض من هذه الجملة فأقول:

تورط أحمد أمين في أحكام جائرة وهو يلخص تاريخ الأدب بطريقة صحفية

وقد دلتنا تلك الأحكام على أن هذا الرجل صـرفته السـرعة عن مراعاة المنطق والعقل؛ فما الذي سنصنع في محاكمة هذا الصديق الذي نضيّعه آسفين في سبيل الحق؟ سنقدم إليه من البينات ما يقنعه بأنه يجني على الأدب العربي أشـــنع الجنايات. وســـنريه أن جنايته على نفسـه أبشـع وأفظع. وسـنروضـه على الاعتصـام بحبل الصـبر الجميل، فليس من سـيف الحق خلاص ولا مناص.

ويعز عليّ أن أوجه إليه هذه السـهام وهو يتهيأ لقضـاء الصـيف في الإسـكندرية. ولكن يعزيني أن أعرف أن نسمات الأصيل في الإسكندرية فيها الشفاء من كل داء.

في الإسكندرية متاع العيون والقلوب والاذواق، وفي الإسكندرية (صبايا الخُلدِ تسبَح في الرحيق) وفي الإسكندرية مراتع ظباء ومرابض أسود.

فاذكرني بالشـر يا صـديقي أحمد أمين وأنت تواجه الفتن المائجة بين الشـواطئ. واذكرني بالشر حين ترى البحر وحين تخطر بشارع الكرنيش. واذكرني بالشر حين تذكر (أدب المعدة) وأنـت تأكـل طيبـات الأسماك بالمكس، وحين تـذكر (أدب الروح) وأنـت تتفكر في ملكوت السابحين والسابحات، في ظمأ شديد إلى أن أذكر بالشر في ذلك المصيف الجميل!.

آه ثم آه! امثلي يؤذي روحاً يصطاف بالإسكندرية وطن الشعر والخيال؟

انتظر يا صـــديقي، فســتراني حيث تحب في المقال المقبل، وإنه لأقرب إليك من رجعة الموج الفاتن إلى الموج المفتون. والحديث ذو شجون.

- ٣ -

تطايرت الأخبار بانزعاج الأســـتاذ أحمد أمين، وكثُر المتحدثون عن الوفاء والأوفياء. فليت شعري كيف يكون العزم على تصحيح أغلاطه ضرباً من العقوق، ولا يكون إلحاحه في الغض من قيمة الأدب العربي ضرباً من العقوق؟.

إن هذا الصـــديق حدثنا ألف مرة أنه لا يغضـــب من النقد إذا كان فيه تقويم للأفكار والآراء.

ونحن سنضع شجاعة الأستاذ أحمد أمين في الميزان، وسنختبر صبره على كلمة الحق، وسنرى كيف يجزينا على ما نقّدم إليه من جميل.

إن هذا الرجل يحكم على الأدب العربي أحكاماً تشـــهد بأن طريقته في فهم الأدب والحياة طريقة عامية، فكيف يكون حاله إذا صححنا بعض ما وقع فيه من أغلاط؟.

أيرجع إلى الحق؟

أيوجه إلينا كلمة ثناء؟

هنا تُعرف قيمة الأخلاق في نفس الرجل الذي ألف أول ما ألف في الأخلاق

وأقســـم أني أهجم على هذا الرجل وأنا كارهٌ لما أصـــنع، فأحمد أمين رجل محترم، وقد وصل بكفاحه إلى منزلة عالية في الحياة الأدبية، وأنا قد ضيعت جميع أصدقائي بفضل جرائر النقد الأدبي، وكنت أحب أن أداوي ما جرح قلمي لأنجو من الدسائس التي تعترضني في جميع الميادين.

ولكن كيف أسامح رجلاً يحاول أن يلطخ ماضينا الأدبي بالسواد؟

إن هذا الرجل يؤرخ الأدب بالجامعة المصـــرية، وهو بذلك قدير على تلوين الاتجاهات الأدبية عند شـــبان هذا الجيل، فتصـــحيح أغلاطه لا ينفعه وحده، وإنما ينفع معه ألوفاً من الشبان الذين يدرسون في كلية الآداب من مصر ومن أقطار الشرق.

يرى هذا الرجل أن (المديح والهجاء) هما أظهر الفنون في الأدب العربي، وبذلك يكون الأدب العربي في أغلب أحواله أدب معدة لا أدب روح.

ولو كان هذا الرجل يدقق لعرف أن المديح والهجاء هما الســـجل الصـــحيح للأخلاق العربية، فمن المديح نعرف كيف كان العرب يتمثلون المناقب، ومن الهجاء نعرف كيف كانوا

يتصـــورون المثالب، ومن المحاســـن والعيوب يعرف الباحث صـــور المجتمع في الحياة العربية والإسلامية.

ولو ضاعت قصائد المديح والهجاء لضاع بضياعها أعظم ثروة يستعين بها علماء النفس لفهم تطورات الأفكار والأذواق فيما سلف من عهود التاريخ.

فمؤرخ الأدب لا يؤذيه أن تكثر قصـائد المدح والهجاء إلا حين يزهد في فهم المشـارب والميول، وتعقب المنازع والأهواء، كأن يكون رجلاً يؤرخ الأدب وهو غير أديب.

يضـاف إلى ذلك أن المادحين والهاجين لم يكونوا جميعاً طلاب أرزاق، وإنما كان أكثرهم أصـــحاب مبادئ وعقائد، وكانوا يؤدون في خدمة الدولة ما تؤديه الصـــحافة في هذه الأيام، وهي تؤرخ الصراع بين أحزاب اليسار وأحزاب اليمين.

وقصـــائد المديح والهجاء كان لها تأثير نافع في تقويم الأخلاق. ولو أن أحمد أمين كان من المطلعين لعرف أن تلك القصائد كان لها تأثير في أكثر ما غنم العرب من الحروب.

لو كان أحمد أمين يدقق لعرف أن شـــيوع المديح والهجاء في البيئات العربية يدل على خلق عظيم من أخلاق العرب وهو (النخوة)، فالعربي يسره أن يُذكر بالجميل ويؤذيه أن يُذكر بالقبيح، ومن هنا كانت المدائح والأهاجي لا توجّه في الأغلب إلا إلى عظماء الرجال.

وما رأي أحمد أمين في حسان بن ثابت؟

ما رأيه إذا حدثناه أن الرسول كان يرى المدح والهجاء باباً من أبواب الجهاد؟

ما رأيه إذا حدثناه أن الرسـول كان يرى حسـان بن ثابت جنديًّا نافعاً لأنه كان يخوّف خصوم النبوّة بأشعاره في الهجاء؟.

أتكون أشـــعار حســـان في الهجاء من أدب المعدة؟ قل بذلك يا أحمد أمين، إن استطعت، ولن تستطيع!.

وما رأي أحمد أمين في مدائح الكميت وأهاجيه؟

ما رأيه في قصائد الفرزدق وقصائد دعبل في الثناء على أهل البيت؟

ما رأيه في الشعراء الذين أوقدوا نار الحرب بين بني أمية وبني العباس؟

ما رأيه في قصائد مسلم بن الوليد في الثناء على بعض الأبطال؟

ما رأيه في قصيدة أبي تمام يوم فتح عمورية؟

ما رأيه في مدائح البحتري وهي تسجيل للشمائل العربية؟

أيكون عيب أولئك الشعراء أنهم كانوا يعيشون في ظلال الأمراء والخلفاء؟

وما العيب في ذلك؟

ألم يكن شعراء المشرق والمغرب يعيشون في ظلال الأمراء والملوك؟

وكيف يعاب على أمثال البحتري والمتنبي ما استباحه أمثال فولتير ولافونتين؟

إن أولئك الشعراء كانوا يؤدون لدولهم خدمات اجتماعية وسياسية، ومن حقهم أن يعيشوا بفضل تلك الخدمات، لأنهم لم يخلقوا بلا معدة كما خلق الأستاذ أحمد أمين الذي يخدم الأمة المصرية بالمجان، لأنه لا يتناول من الجامعة في كل شهر غير مبلغ ضئيل لا يتجاوز الستين ديناراً، ولا يتناول من أعماله الأدبية في كل شهر غير دنانير لا تعد بغير العشرات!.

ما الذي يعيب الشاعر والأديب حين ينتفع من الشعر والأدب؟ ما الذي يعيبه وهو من جنود المعامع الاجتماعية والسياسية؟ ما الذي يعيبه حين يطمع في أموال الملوك والخلفاء، وكان شعره السناد لدول الملوك والخلفاء؟.

وهل يعاب جوبلز لأنه يعيش بفضل الدعاية للسيطرة الألمانية؟

هل يعاب الصحفيون الذين يعيشون بفضل الدفاع عن الحكومات والأحزاب؟

إن الشاعر القديم هو نموذج للصحفي الحديث، وكلاهما يؤدي مهمة اجتماعية وسياسية.

لو كان الأستاذ أحمد أمين يدقق لعرف أن رجال الأخبار يؤدون مهمة خطيرة، فهم في حكم الواقع رجال شرفاء وإن احتقرهم المجتمع عن جهل وسخف، فكيف نهين الشعراء والصحفيين وهم يرشدون الدول عن طريق العلانية، ويوجهون أممهم إلى سبيل المجد والاستعلاء؟.

ولولا بُناة الشعر في الناس ما درى بُناةُ الندى من أين تُبنَى المكارمُ

أنرضى أن يكون شعراء العرب شحاذين ومتسولين لتصح أغلاط أحمد أمين؟

أيكون أسلافنا من الأدباء والشعراء مرتزقة لأنهم لم ينسوا حظوظهم من أموال الملوك والخلفاء، وبفضل مدائحهم وأهاجيهم عاش الملوك والخلفاء؟.

إن الأمم العربية والإسـلامية لم تضـعف حيويتها إلا حين عدمت الأريحية وزهدت في مدائح الأدباء والشعراء.

وهل تستطيع حكومة في هذه الأيام أن تعيش بلا سناد من تشجيع الكتاب والخطباء والصحفيين؟.

وهل قامت حكومة أو سقطت حكومة إلا بفضل أسنّة الأقلام؟

إن الأقلام تصنع في مصير العالم مالا تصنع جيوش البر والبحر والهواء

وكلمة (مأجور) كلمة ابتدعها أحمد أمين، وما كان (الأجر) عيباً إلا في نظر هذا الناسك المتبتل، فقد كان (الأجر) من قبله كلمة شريفة أقرها القرآن المجيد.

ومن الله ألتمس (الأجر) على تصحيح ما وقع فيه هذا الصديق من أغلاط

وما رأي صاحبنا في هتلر وموسوليني وهما يُرهبان العالم بالأقوال قبل الأفعال؟

ما رأيه إذا علم أن هتلر يهمه أن يكون لأقواله ومؤلفاته قيمة مادية؟

بل ما رأيه إذا علم أن العراك حول مشيخة الأزهر له أسباب دنيويه؟

ما رأيه إذا علم أن (البابا) يجتذب مريديه بثمرات النخيل والأعناب؟

ما رأيه إذا علم أن الغض من قيمة المعدة ليس إلا رهبانية نهى عنها الإسلام؟

ما رأيه إذا عرف أن من يحتقرون الأمعاء كانوا كتبوا مرة أو مرتين في تأثير (الهضم) على العقول؟.

نحن لا نريد مؤرخاً للأدب يفهم الدنيا بالمقلوب، وإنما نريد مؤرخاً يفهم أن الأدب صورة الحياة، ويعرف أن شعر ابن الرومي في وصف (الرقاق) لا يقل شرفاً عن شعر ابن المعتز في وصف (مداهن الطّيب) لأن الشاعر لا يطالب بغير إجادة الوصف لما تراه العيون، وما تحسه القلوب.

نريد مؤرخاً للأدب يدرك أن من حق الأديب أن يصف ما يرى ويسمع.

نريد مؤرخاً للأدب يدرك الفروق بين الأشياء، ويتأثر بجميع المناظر، ويطرب لجميع ما في الوجود، ويتابع النبرات الموسيقية في نقيق الضفادع، على نحو ما يصنع وهو يتسمع لأسجاع الحمائم. وذلك يوجب أن يكون رجلاً له ذوق وإحساس.

نريد مؤرخاً للأديب يغلل أسباب الحسن وأسباب القبح مع العطف على جميع مظاهر الوجود.

نريد مؤرخاً للأدب يرى السـخرية من العيوب ويرى مكر الثعلب لا يقل جمالاً عن بلاهة الغزال.

قد يسأل القارئ: وما محصول هذا التصحيح؟

ونجيب بأن له أهمية عظيمة لأنه يضـع تاريخ العرب في نصـابه من حيث الأخلاق، فأتباع الأمراء والوزراء والملوك والخلفاء من أهل الشـعر والأدب لم يكونوا في جميع أحوالهم صعاليك كما يريد الأستاذ أحمد أمين؛ وإنما كانوا قوماً يؤدون خدمات سياسية واجتماعية وأدبية، وكانوا يؤلفون جماعات منظمة تنشط الروح المعنوي في الدولة وتشيد بمكارم الأخلاق. وكان الطائشـون منهم يمثلون ما في أرواح بعض الجماهير من عناصـر الزيغ والارتياب. فهم الصورة الصحيحة لما كان عند العرب والمسلمين من عناصر الشك واليقين.

وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إنهم خلقوا العصـبيات القومية، وأمدوا التاريخ بروح الحياة. فهذه مصـر مرّ بها كثير من الخمول في مطلع حياتها الإسـلامية، ولم يبق من ولاتها وحكامها من هو أسير ذكراً من كافور والخصيب بفضل مدائح المتنبي وأبي نواس.

ولو شـئت لقلت إن المداحين والهجائين كانوا يقيمون بقصـائدهم مدارس لتعليم الأخلاق، وكانوا يقيمون بقصـائدهم معاهد لتعليم اللغة والأدب والتاريخ. وقد كانوا بالفعل معلمين، لأنهم كانوا أساتذة الأدب في تلك الأزمان، وبفضل صوابهم وخطئهم كان يعيش النحاة واللغويون.

والأستاذ أحمد أمين الذي يجعل وصف الطبيعة من أدب الروح ينسى أن الإنسان هو خير ما في الطبيعة. وهل يكون مدح الغصن المزهر أشرف من مدح الملك المفضل إلا في ذهن من ينظر إلى حقائق الأشياء نظرة عامية؟.

أقول هذا وأنا أزهد الناس في هذا اللون من الحياة، لأن الاتصـال بالملوك يتطلب ألواناً من التلطف والترفق لا يحسنها رجل مثلي، فلي شمائل تغلب عليها الشراسة والجفوة وتثقلها بداوة الطبع.

ولكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن الشـــعراء الذين اتصـــلوا بالملوك وتفيئوا ظلالهم لم يكونوا في كل حال من ضـــعفاء النفوس، وإنما كانوا في الأغلب ناســـاً عقلاء يعرفون روح الزمان.

والمرتزقون منهم كانوا انساقوا إلى تلك المزالق بفضل القالة الحسنة التي جعلت الشعر من أطيب ما يشتهي الملوك والخلفاء، فقد مرت أزمان كانت فيها الهبات الرسمية باباً من الشرف قبل أن تكون باباً من المعاش.

قد يسهل على الأستاذ أحمد أمين أن يخرج من هذا المأزق بأن يلوذ بما اصطلح الناس عليه في العصر الحديث من الانصراف عن مدح الملوك، ولكنه، إن فعل، سيصطدم بصخرة قاسية، لأن الحكم الأخلاقي مرجعه إلى تصور الدواعي والأسباب، فما نتحرج منه اليوم لم يكن يتحرج منه القدماء، وما قد نعده عيباً كان الأسلاف يعدونه من التشريف.

ماذا أريد أن أقول؟

أنا أريد أن أنزه تاريخ العرب عن وصـــمة المعدة، والمعدة ليســـت وصـــمة إلا في ذهن الأستاذ أحمد أمين، أمدني الله وإياه بالمعدة القوية لنستطيع مواصلة الجهاد!.

آمـــينَ آمـــينَ لا أرضـــى بـــواحـــدة حتى أضـــيف إليهـــا ألف آمينـــا

أيرى القارئ أني استطعت إفحام هذا الباحث المفضال؟

لن أُفحمه حتى يشـــرب صـــبابة الكأس: (وكل صـــبابةً في الكأس صـــابُ). كما قال شوقي.

أحمد أمين يقول:

(نرى في العصر العباسي طغيان أدب المعدة على أدب الروح. هذا البارودي (رحمه الله) اختار لثلاثين شاعراً من خيرة شعراء الدولة العباسية. . . وكانت مختاراته في أربعة أجزاء كبار. فكان ما أختاره من المديح ٢٤١٨٥ بيتاً، ومن الأدب ١٦٩٧ بيتاً، ومن الغزل ٤٦١٦ بيتاً، ومن الهجاء ١٢٢٩ بيتاً، ومن الوصف ٣٩٩٣، ومن الزهد ٤٧٣ بيتاً. ونظرة واحدة إلى هذا الإحصـــاء تدهشـــنا أشـــد الدهش: إذ يتبين لنا طغيان أدب المعدة – وهو المديح والهجاء – على أدب الروح، طغياناً كبيراً).

ذلك هو أحمد أمين بقضّــه وقضــيضــه كما كانوا يعّبرون. ذلك هو أحمد أمين الذي يدرس الأدب بالإحصاء، والذي يقيس الدواوين الشعرية بالمتر والباع والذراع.

لقد كنت أحفظ أكثر مختارات البارودي ولم يخطر ببالي أن أعّدها. فهل أســتطيع اليوم أن أقول للأستاذ أحمد أمين: (أفادك الله!).

هل بلغت المدائح في مختارات البارودي ٢٤١٨٥ بيتاً؟

ذلك (إحصاء) أحمد أمين، ولا موجب لمراجعته لأنه من النوابغ في الإحصاء!

ولكن هل فكر هذا الرجل في (إحصـاء) الأغراض المبثوثة في تلك المدائح؟ هل يضـنها جميعاً من قبيل: (أنت شمسٌ أنت بدرٌ؟).

ألم يكن أكثرها تسجيلاً لوقائع حربية، ومواسم تشريف؟ هل خطر بباله أن (يُحصي) ما في تلك المدائح من الأوصاف والحِكم والأمثال؟.

هل خطر بباله أن يلتفت إلى القصــائد التي اســتوجبت عناية النحاة واللغويين فأمدت اللغة العربية بفيض من الحيوية لا ينضب ولا يغيض؟.

أحمد أمين يرى أن محصـول المدائح في العصـر العباسـي أكبر محصـول، ويرى محصـول الزهد أصغر محصول!.

فهل استطاع هذا الرجل أن يستخلص العِبرة من الموازنة بين النسبتين؟

لو كان أحمد أمين يدقق لعرف أن طغيان المديح على الزهد كان من علائم الحيوية في العصـر العباسـي. فهو الشـاهد على أن العرب كانت حياتهم تزدحم بالأخطار الدنيوية. وهو الشـــاهد على أنهم كانوا أهل نخوة وأريحية. وهو الدليل على أنهم كانوا يحيون حياة تفيض بمعاني الأفراح والأحزان، وتتسم بعلائم القوة والكفاح.

وما كانت الأهاجى أقل قيمة من المدائح في الدلالة على هذه الشؤون.

فالأهاجي كانت في الأغلب تمثل صوت المعارضة السياسية، وكان لها تأثير شـديد في كبح الطغيان، وبفضل الأهاجي قلّمت أظفار الاستبداد، وخشي الطغاة بأس القلم واللسان.

وهل تفرّد العرب بالهجاء؟

ألم يكن الهجاء فناً ظاهراً في جميع الآداب الشرقية والغربية؟

وهل خلت الكتب المقدسة من الهجاء حتى نعده من السيئات؟

وما هو الهجاء حتى نحكم عليه ذلك الحكم الجائر؟

ألم يكن صورةً للنفوس التي تغضب وتثور على ما تنكر من ألوان الضمائر والأعمال؟

وكيف نعيش إذا نجونا من ثورة الحب والبغض؟

كيف نكون إذا لم نقل للمحسن أحسنت، ولم نقل للمسيء أسأت؟

إن الملائكة يرضـون ويغضـبون، ويفرحون ويحزنون. وكل ما في الوجود من طبائع وأرواح يدرك معاني الرضا والغضب والابتهاج والابتئاس. فكيف يعاب علينا أن نكون صبحاً يتنفس وليلاً يتمرد، من حين إلى حين.

- ٤ -

عجب ناسٌ حين رأونا نقول بأن الأستاذ أحمد أمين ينظر إلى الأدب وإلى الوجود نظرةً عامية، واستكثروا أن نحكم هذا الحكم على رجل من أساتذة الجامعة المصرية.

ونجيب بأننا لم نظلم هذا الصديق، وإنما نفسه ظلم، فهو الذي يبني أبحاثه على قواعد المسلّمات والمقررات عند عوامّ الباحثين، وذلك يشهد بأن الابتكار والابتداع بعيدان كل البعد عن ذهن هذا الباحث المفضال.

يعلن الأستاذ أنه يحتقر المعدة ليصح له التطاول على ماضي الأدب العربي؛ واحتقار المعدة لا يقوم على أساس من الواقع ولا من المنطق، وإنما هو مجاراةٌ للعوامّ الذين يصعب عليهم أن يدركوا أن النفس تتبع الجسم في الصحة والمرض، والقوة والضعف، والنشاط والخمول، ويعسر عليهم أن يفهموا أن الإنسان يرى المعنويات والمحسوسات بأشكال مختلفة في وجوه متباينة تبعاً لاختلاف الذوق والحسّ والمزاج.

والواقع أننا عبيد لحواسنا وأعصابنا، وأن جمهورنا مدين في تكوين ذوقه وحسه وعقله إلى ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يرى وما يذوق. وقد راعى ذلك فقهاء الشريعة الإسلامية حين وضعوا آداب القضاء، فقد استحبوا للقاضي أن يمتنع عن الحكم إذا شعر ببعض عوارض المرض أو الظمأ أو الجوع.

قلنا من قبل إننا لا نهجم على هذا الرجل بلا تأثّم ولا تحرّج، فالله وحده يعلم أننا نهجم عليه كارهين، لأنه صديق لم نر منه غير الجميل، ولأن له أصدقاء كنا نحب أن لا نؤذيهم بالهجوم عليه، فلنا فيهم إخوان أعزاء.

ولكن هل يجوز أن يكون أحمد أمين وأصدقاؤه أعز علينا من الحق؟

هل يجوز أن نترك هذا الرجل يتحذلق ذات اليمين وذات الشمال مراعاةً للأخوة الغالية التي جمعت بيننا وبينه منذ نحو عشرين عاماً؟.

إن أحمد أمين يجور على ماضي الأدب العربي بلا تحفظ ولا احتراس، وأغلب الظن أنه ما كان ينتظر أن يقول له أحد: (قف مكانك، يا أحمد أمين، حتى تدرس الأدب العربي دراسة تمكنك من الحكم له أو عليه).

وساعده على الاطمئنان إلى السلامة من عواقب ما يصنع أنه يصدر أحكامه الخواطئ في وقت خمد فيه النقد الأدبي. فهو يظن أنه لن يجد من يرشده إلى التصدر لأستاذية الأدب العربي يوجب حتماً أن يكون ذلك المتصدر أديباً يتذوق المعاني ويدرك الفروق بين أساليب البيان.

فإن كان القراء في ريب من ذلك. فإنّا ننقل إليهم أحكامه على مقامات بديع الزمان، ومقامات الحريري؛ ننقلها بالحرف ليستطيعوا متابعتنا في تبيين ما فيها من خطأ وضعف.

قال الأستاذ أحمد أمين:

(ثم انظر بعدُ إلى الفن المبتكر في العصر العباسي، وهو فن المقامات، فقد ابتدعها بديع الزمان الهمذاني، فلم يجعل محورها حبّاً ولا غراماً كما يفعل الروائيون اليوم. ولم يجعل محورها شيئاً يتصل بأدب الروح، ولكنها كلها (أدب معدة). فأبو الفتح الإسكندري بطل المقامات كلها، رجل مكر واحتيال، يصطنع جميع المهن لابتزاز الأموال. نراه مرة قرّاداً يسلي الناس ويضحكهم، ومرة واعظاً مزيفاً يعظ وينصح؛ ثم تنكشف حيلته فإذا هو مهرج؛ ومرةً مشعوذاً يحتال على الناس بشعوذته ليفتحوا كيسهم ويغدقوا عليه من مالهم، وهو في كل ذلك مستجد سائل محتال. وجاء الحريري فجعل مكان أبي الفتح الإسكندري أبا زيد السروجي، وهو كصاحبه دناءة نفس، وخساسة حرفة. يشحذ ثمن كفن لميت يدّعيه، ويتعامى فتقوده امرأته إلى المسجد ليبتز أموال المصلين، ويجمّل غلامه ليوقع الوالي في شركه فيسلبه ماله وهكذا، ويتخذ الفصاحة والبلاغة وسيلة للتكدي والسؤال. . . أليس هذا كله أدب معدة؟).

ذلك كلام الباحث المفضال أحمد أمين نقلناه بحروفه لئلا نتّهم بالتجنّي عليه حين نحكم بأنه رجل لا يدرك أسرار الحروف، أبهذه الجرأة يحكم أحمد أمين على فن المقامات؟.

لن نقول شيئًا يمس أحمد أمين، ويكفي أن نقف عند الملاحظات الآتية:

١ – نلاحظ أولاً أن أحمد أمين لم يفهم أغراض الحريري وبديع الزمان، فهو يتوهم أنهما يحاولان إغراء الجماهير بالإقبال على ما في تلك المقامات من شمائل وخصال، ومن هنا جاز له أن يضيف أدب المقامات إلى أدب المعدة، ولو كان أحمد أمين درس مقامات الحريري

ومقامات بديع الزمان لأدرك بلا شـــك أن لهذين الرجلين غاية ما كان يصـــح أن تخفى على رجل يؤرخ الأدب بالجامعة المصرية.

فما هي تلك الغاية؟

هي غاية واضـــحة لمن يقرأ ويفهم، وهو بحمد الله ممن يقرءون ويفهمون، ولكنه لم يقرأ المقامات.

الغرض من نظم المقامات عند بديع الزمان هو نقد الحياة الاجتماعية والأدبية في القرن الرابع. وفي سبيل هذا الغرض تعرض بديع الزمان لوصف ما رآه في زمانه من مثالب وعيوب، واهتم بتدوين ما عاناه الناس في تلك الأيام من حيل الدجالين والمشـعوذين. وقد وصـل إلى أبعد حدود الإجادة حين حدثنا عما كان يعرف أهل ذلك العصر من فنون الأدب ومذاهب المعاش، ولم يفته أن يقيد حيل اللصوص في تلك الأيام، بحيث صارت مقاماته سجلاً صادقاً لبعض أحوال المجتمع في القرن الرابع بأقطار فارس والعراق.

وكذلك كان الغرض عند الحريري، فقد أراد أن يصـــور ما عرف الناس لعهده من ألوان الحياة، وأن يبين كيف كانوا يجدون وكيف كانوا يمزحون.

وهناك غاية ثانية عند الحريري لم يفطن لها الأســتاذ أحمد أمين وهي تقييد ما شـــاع في زمانه من ضروب الرموز والكنايات.

ولا موجب لإيراد الشواهد، فسيعرف ذلك أحمد أمين حين يقرأ تلك المقامات

٢ – ونلاحظ ثانيا أن أحمد أمين غفل عن نظرية تعد من البديهيات، وهي أول ما يدرس طلبة الكليات، وهي النظرية التي تقول بأن للفن والأدب غاية أصـيلة هي الصـدق في وصـــف ما ترى العيون، وما تحس القلوب، وما تدرك العقول؛ وليس من الحتم أن يكون الأدب والفن جنديين في جيش الأخلاق، فبعض أشـعار ديك الجن وأبي نواس أرفع قيمة من بعض ما كتب ابن مسكويه والغزالي، أرفع من الوجهة الأدبية والفنية، وأن كانت أضعف من الوجهة الدينية والخلقية.

٣ – ونلاحظ ثالثاً أن أحمد أمين ينظر إلى الأخلاق نظرة سـطحية، فلو أنه كان تعمق في دراســة الأخلاق لعرف أن الأخلاق تغلب عليها الصـــفة الاعتبارية، فما نعيبه اليوم من طرائق التعبير لا يجب أن يكون كذلك في أذهان من سبقنا من الأدباء في الأعصر السوالف.

٤ – ونلاحظ رابعاً أن أحمد أمين توهم أن فن المقامات وقف عند الحدود التي رسمها الحريري وبديع الزمان، ولو كان أحمد أمين من المطلعين على تاريخ الأدب العربي لعرف أن فن المقامات اتسعت آفاقه فشمل الزهديات والفقهيات، وتحول مع الزمن إلى أن صار من الأساليب التعليمية، ولذلك تفصيل سيهتدي إليه حين يقرأ تاريخ المقامات، وهو سيقرأ ذلك التاريخ لأنه يؤرخ الأدب بكلية الآداب.

٥ – ونلاحظ خامساً أن أحمد أمين لم يعرف أن فن المقامات الذي ابتكره الهمذاني وأجاده الحريري قد انتقل إلى اللغة الفارسية واللغة العبرية واللغة السريانية، فهو من الفنون العربية التي وصل تأثيرها إلى ما جاورها من اللغات، وأدب المعدة لا يؤثر كل هذا التأثير.

٦ – ونلاحظ سادساً أن الأستاذ أحمد أمين الذي أساء الأدب مع الحريري فجعل راويته مثالاً في (دناءة النفس وخساسة الحرفة) لم يعرف أن مقامات الحريري خدمت الأدب واللغة خدمة عظيمة جداً، فقد شُرحت تلك المقامات مرات كثيرة وشغلت الأدباء واللغويين في المشرق والمغرب، وكتبت بالذهب مئات المرات، وتهاداها الأمراء والملوك، وكان لها تأثير شديد في النهضة الأدبية الحديثة لأنها من أقدم ما نشرت مطبعة بولاق. وحديث عيسى بن هشام وهو أول كتاب مبتكر في الأدب الحديث له صلة بأسلوب المقامات.

٧ – ونلاحظ سابعاً أن أحمد أمين لم يخطر بباله أن في مقامات بديع الزمان تحفة فنية نستطيع أن نباهي بها أدباء العالم في الشرق والغرب، وهي المقامة المضيرية، فقد بلغت من الروعة مبلغاً لم يصل إليه كاتب في قديم ولا حديث، ولو ترجمت إلى اللغات الأجنبية لعدها الأجانب من الأعاجيب.

٨ – ونلاحظ ثامنا أن الجانب التعليمي في مقامات الحريري خفيت دقائقه على فطنة أحمد أمين، وما أحب أن أزيد!.

٩ – وألاحظ تاسعاً أن أحمد أمين لم يدرك أن للكاتب حرية ذاتية في طريقة التأليف، فهو كان ينتظر أن يكون في المقامات حب وغرام كما يصنع الروائيون في هذه الأيام، وهو أيضاً يجهل أسلوب الروايات بعض الجهل، فالحب ليس ركناً أساسياً في تأليف الرواية كما يتوهم الناقد، وإنما هو وسيلة لدرس الشخصيات وللمؤلف الروائي أن يغفله حين يشاء ١٠ – ونلاحظ عاشراً أن أحمد أمين لم يبتكر الهجوم على المقامات، وإنما نقله عن الأستاذ سلامة

موسى، وسلامة موسى له عذر مقبول هو بعده عن التغلغل في أسرار الأدب العربي. فما عذر أحمد أمين وهو يتصدر لتدريس الأدب بالجامعة المصرية؟.

ألم أقل لكم أن أحمد أمين يعتمد على ما يقرأ ويسمع بلا نقد ولا تمحيص؟ إن أحمد أمين يتوجع فيقول:

(أصبحنا إذا قرأنا ما يقوله الإفرنج عن تعريف الأدب بأنه (نقد الحياة) عجبنا من هذا التعريف، لأنا لا نرى الأدب العباسي ينقد الحياة، وإنما يصف نوعاً من حياة القصور، فأما الشعب فلم يوصف إلا قليلاً).

ولو كان أحمد أمين يدقق لعرف أن مقامات الهمذاني والحريري هي من الصميم في (نقد الحياة).

وكيف يكون وصف القصور بعيداً عن (نقد الحياة) يا أحمد أمين، وأنت تعرف أن القصور في تلك الأزمان كانت محور الحياة؟.

وهل يستطيع الأدب أن يخرج على واجبه في (نقد الحياة) حين يتحدث عن الوزراء والملوك والخلفاء؟.

وهل كانت المدائح والأهاجي إلا دساتير لحياة الناس في تلك الأزمان. . .؟

و (الشعب) الذي يتحدث عنه أحمد أمين هو نفسه الذي كان يتلقى المدائح والأهاجي بالقبول، وهو الذي كان يروي ما يقوله الشعراء في الرؤساء والملوك، فهو قد اشترك فعلاً في مسايرة الاتجاهات الأدبية في العصور الخالية.

أحب أن أعرف رأي الأستاذ أحمد أمين في التصحيحات التي قدمناها إليه

ألا يزال يعتقد أن الهمذاني والحريري كانا يضعان دستوراً لحياة الصعلكة والتشرد والاحتيال؟.

أيكون انتفع بهذا الدرس فعرف أن فن الهمذاني والحريري يقوم على أساس السخرية من بعض أخلاق الناس في تلك الأزمان؟.

أحب أن أعرف كيف يحرم على أمثال الهمذاني والحريري أن ينقدوا المجتمع بالرسائل والقصائد والأقاصيص، وهو مذهب استحله كتاب الإنجليز والفرنسيين والألمان؟.

لو كان أحمد أمين من المطلعين على تاريخ الأدب العربي لعرف أن أدباء العرب فهموا أن فن المقامات ليس إلا وسيلة للتعبير عن طوائف من الأغراض، ومن أجل ذلك تصرفوا فيه فنقلوه من ميدان إلى ميادين، وحمّلوه ما شاءوا من المذاهب والآراء.

وما فهمه أدباء العرب فهمه أدباء الفرس حين اتخذوا المقامات وسيلة لشرح المذاهب الدينية والفلسفية، وعرض الصور الفنية والأدبية، وكذلك فعل بعض اليهود وبعض السريان فضمنوا المقامات طوائف من العضات والأخلاق.

ثم ماذا؟ ثم ماذا؟

ثم يقول الأستاذ أحمد أمين:

(وانتشر بجانب أدب المقامات نوع آخر من أدب المعدة بمعناه الحقيقي هو أدب التطفيل. . . وخلف لنا الأدب وصيتين طويلتين يوصي بهما نقيب الطفيليين ولي عهده: إحداهما من إنشاء أبي اسحق إبراهيم بن هلال الصابي الأديب المعروف، والثانية من إنشاء المولى تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني).

ذلك ما قال أحمد أمين، وهو بما قال رهين

فهل يفهم هذا الرجل أن الصابي كان يجّد حين أنشأ تلك الوصية؟

لو كان أحمد أمين قرأ كتاب النثر الفني لرأى المؤلف يقول:

(ومن أظرف ما كتب على طريق الهزل والفكاهة (عهد التطفل) وهو عهد أنشأه أبو اسحق الصابي على لسان طفيلي اسمه (عليكا) كان يقع على مائدة معين الدولة بن بويه، والطريف في هذا العهد أنه يجري على نمط العهود السلطانية فيبدأ بعرض خصائص العهود إليه، ثم يعيّن المهمات التي كُتب من أجلها العهد).

إن الأدب هو (نقد الحياة) كما يقول الإفرنج، فهل يكون من الفضول في (نقد الحياة) أن يعمد كاتب مثل الصابي إلى السخرية من طائفة طفيلية كانت تعيش على هامش المجتمع في القرن الرابع؟.

وهل يطلب من الكاتب أن يغفل وصف الطفيليين لئلا يقال إن أدبه أدب معدة؟

وما قيمة الأدب إن سكت عن وصف عيوب المجتمع؟

إن العصر العباسي هو من العصور التي اشتبكت فيها النوازع الإنسانية فكثر فيه الجدل والهزل، والعفاف والمجون.

فكيف يجوز أن يقف الأدب عند غاية واحدة هي وصف الجانب الرزين من المجتمع؟

إن ذلك لا يجوز إلا في ذهن رجل يجهل أن غاية الأدب هي (نقد الحياة)

أتحبون أن تعرفوا من أين وصل الخطأ إلى الأستاذ أحمد أمين؟ وصل إليه الخطأ من التلمذة للأستاذ الكبير الدكتور طه حسين، فقد حكم الدكتور طه بأن العصر العباسي عصر شك ومجون، لأن فيه عصابة مشهورة بالزيغ والفسق، وهي جماعة أبي نواس ومطيع بن إياس، مع أن العصر الذي عرف أمثال هذين الرجلين هو نفسه العصر الذي نبغ فيه كبار الفقهاء والنساك والزهاد، وهو الذي بلغ فيه الفكر العربي غاية الغايات في فهم أصول الفلسفة وأصول الأخلاق.

فهل خطر في بال أحمد أمين أن العصر العباسي لا يصح الحكم عليه بإيثار المعدة وإغفال الروح من أجل كلمة أو كلمات في وصف الاحتيال على الطعام والشراب؟.

تذكّر يا أستاذ أمين أنك أستاذ مسئول، وتذكّر أنك بالفعل رجل محترم، ولأغلاطك تأثير سيئ في تلاميذك، وفيمن يثقون بك فيأخذون عنك بلا مراجعة ولا تدقيق.

تذكر، يا أستاذ، أن للدنيا آفاقاً أوسع مما تظن، وأن من واجب الأديب أن يتعقب بالوصف تلك الآفاق.

تذكّر أننا قد نطالبك بوصف زمانك، وفيه (طفيليون) يتقربون إليك بتجريح الرجل الذي يواجهك بكلمة الحق، وأنت تعرف ما أعني ومن أعني.

تذكّر، أن من العيب أن تقول إنك نظرت في الأدب العربي فوجدته (ينحدر مع التاريخ شيئاً فشيئاً ليكون أدب معدة)، وأنت تعرف بلا ريب أن من ذكرتهم من الأدباء لم يكونوا يصورون إلا بعض الجوانب من الحياة الاجتماعية.

وهل غاب عنك أن العصر الذي جعلته يعيش من أجل المعدة هو نفسه العصر الذي نشأ فيه أبو طالب المكي وأبو حامد الغزالي وجار الله الزمخشري، وهو نفسه العصر الذي نبغ فيه ابن مسكويه والحلاج والجيلي إخوان الصفاء؟.

أنت رجل فاضل فيما أعتقد وفيما يعتقد عارفوك، فأنت أستاذ على جانب عظيم من أدب النفس، وقد أنصفتُك مرات كثيرة في مؤلفاتي، فمن جنايتك على نفسك أن ترتجل في مواطن لا ينفع فيها الارتجال.

أما بعد فقد دعانا كثير من الزملاء إلى نقض ما كتبه الأستاذ أحمد أمين عن جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي.

ونجيب بأننا سنؤدي هذا الواجب بعد أن نشرب معه فنجاناً من قهوة أبي الفضل على شوا طي الإسكندرية، الإسكندرية الجميلة التي لم يخلق الله مثلها في البلاد.

وهنالك، على شاطئ البحر، وفي رعاية الألوف من أسراب الملاح، سأصاول صديقي أحمد أمين.

- ٥ -

رأينا أن نقف وقفة قصيرة نحادث فيها القراء قبل أن نأخذ في محاسبة الأستاذ أحمد أمين على الأغلاط التي وقعت في مقالاته السالفة وهو يحاول تزهيد الناس فيما ورثت اللغة العربية من ألفاظ الشعراء والخطباء.

فماذا نريد أن نقول اليوم؟

نريد أن نؤرخ الظاهرة العقلية التي بدت شواهدها حين واجهْنا الجمهورَ بعيوب الطريقة التي يفكر بها الأستاذ أحمد أمين، فقد انقسم ذلك الجمهور إلى فريقين: فريق راضٍ، وفريق غضبان.

والفريق الأول يستأهل اللوم قبل أن يستحق الثناء، لأن هذا الفريق يمثل جمهور المشتغلين بتدريس اللغة العربية؛ وهؤلاء قد ركنوا في الأعوام الأخيرة إلى التغاضي عن نقد ما يُكتب أو يقال في السخرية من ماضي اللغة العربية. وقد يكون لهذا التغاضي أسباب: فهم في كدح موصول بفضل ما يحمل المدرس من ثقال الأعباء؛ وهم قد رأوا المجادلات السياسية شغلت الناس عن المجادلات الأدبية؛ وهم قد سمعوا أن كلية الآداب صار إليها الأمر كله في توجيه التلاميذ والمعلمين إلى قواعد الدراسات الأدبية، فلا حرج عليهم إن انسحبوا من الميدان.

تلك جملة الأسباب التي صرفت أساتذة اللغة العربية عن المشاركة في النقد الأدبي

فهل يعرفون أن سكوتهم هو الذي أطمع بعض الناس في أن يبغي ويستطيل؟

لو كانت كلية الآداب تعرف أن في مصر رقابة أدبية لما وقعت في المضحكات حين قررت أن تدرس لطلبة السنة الأولى أسلوب أحمد أمين وأن تمتحنهم في أسلوب أحمد أمين.

ومن المحنة جاء الامتحان!

أحمد أمين له أسلوب؟

آمنت بالله!

ومن هم المدرسون الذين يدرسون لطلبة كلية الآداب ذلك الأسلوب (الأحمدي)؟

هم شبان تخرجوا في كلية الآداب وموقفهم في هذه القضية أحرج المواقف، لأنهم يعرفون أن أحمد أمين من أساتذة الكلية، ولأنهم يعرفون أنه رجل سريع الغضب والاكتئاب. وهم

أيضـــاً يعرفون – وا أســـفاه! – أن كلمة الحق في أحمد أمين قد تحمل بعض المتملقين على وصفهم بالجهل!.

ولم يقف الأمر عند كلية الآداب بجامعة القاهرة – جامعة فؤاد الأول – بل تعداه إلى كلية الآداب بجامعة الإسـكندرية – جامعة فاروق الأول – فهنالك الأسـتاذ أحمد الشـايب وهو الأديب الفاضـل الذي ألف كتاباً لطيفاً سماه (الأسـلوب) وفيه يقرر أن أسـلوب أحمد أمين له مزايا وخصائص.

فهل لأحمد أمين أسلوب حتى تخلق لأسلوبه مزايا وخصائص؟

أشهد مرة ثانية أن الجامعة المصرية أمرها عجب!

فالدكتور طه حسـين الذي وقف بقصـر الزعفران في ربيع سـنة ١٩٢٧ يلقي كلمة الجامعة في مهرجان شـوقي، ثم رأى أن تكون خطبته في الأخطل لا في شـوقي بحجة أن الجامعة لا تؤرخ الأحياء، هو نفسـه الذي ارتضـى أن يدرس أسـلوب أحمد أمين بكلية الآداب!.

فكيف يكون الحال لو اعتدل الزمان وقيلت كلمة الحق في التدريس بكلية الآداب؟

أيستطيع إنسان أن يفرض على مدرس أن يعترف بأن أحمد أمين له أسلوب؟

وماذا نقول للشبان الذين يفدون من أقطار الشرق وقد عرفوا من قبل أن أحمد أمين قد يكون من الباحثين ولكنه لن يكون من الكتاب ولا الأدباء؟.

وكيف تكون حجتنا أمام الأقطار العربية إذا سمعت أننا ندرس أسـلوب أحمد أمين كما ندرس أساليب العقاد والمازني وهيكل وطه حسين والزيات؟.

أتريدون الحق؟

إن أحمد أمين لم يكن له أسلوب يدرس في كلية الآداب إلا لأنه أستاذ في كلية الآداب، وإلا فكيف غابت قيمة أسلوبه عن أساتذة الأزهر وأساتذة دار العلوم وهم لم يلتفتوا إليه حين التفتوا إلى أساليب الكتاب في العصر الحديث؟.

إن الرجل لا يكون له أسـلوب إلا يوم يصـح أنه يحس الثورة على ما يكره، والأنس بما يحب، فعندئذ تعرف نفسـه معنى الانطباعات الذاتية ويعبر عن روحه وعقله وقلبه بأسـلوب خاص.

لقد اشتغل أحمد أمين بالقضاء الشرعي بضع سنين، فهل قرأتم له مقالاً أو قصة تدل على أنه توجَّع مرةً واحدةً للمآسي الإنسانية؟.

لقد عاش أحمد أمين مدة بالواحات، فهل سمعتم قبل أن تسمعوا مني أنه عاش بالواحات؟.

لو كان أحمد أمين أديباً لحدثكم عن تلك المروج التي يجهلها المصريون

ولكن أحمد أمين لم يكن أديباً، وإنما كان موظفاً مخلصاً لواجب الوظيفة لا يرى ما عداها من الشؤون، ثم قال له طه حسين كن أديباً فكان!.

وهنا أوجه القول إلى من أغضبهم هجومي على الأستاذ أحمد أمين فمن هم أولئك الغاضبون؟.

منهم محام فاضل ألف عدة كتب في الحياة الأدبية والاجتماعية وقد كتب إليّ مرتين يدعوني إلى الترفق في الهجوم على هذا (الأديب).

وهذا المحامي الفاضل يعجب من أن نصحح رأي الأستاذ أحمد أمين في القرآن، وهو يظن أن اللذات الحسية التي سينعم بها المؤمنون في الجنة إنما هي لذات روحية.

وأقول إن القرآن وعد المؤمنين بأن سيكون لهم في الجنة لحم طير مما يشتهون، وحورٌ عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون، وسيقال لهم: (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية).

وظاهر النصوص هو الأصل، فهل يرى هذا المحامي الفاضل أن نؤول كلام الله ليصح كلام أحمد أمين؟!.

ومنهم كاتب مشهور أخذ يوسوس ذات اليمين وذات الشمال بأن زكي مبارك مولع بهدم الرجال، وأنه لو عدم مجالاً للخصومة لخاصم نفسه بلا ترفق!.

وأنا أترك الرد على هذه التهمة لمن يعرفونني معرفة شخصية من أمثال العقاد والمازني وهيكل والزيات، بل أترك الرد على هذه التهمة لحضرة الأستاذ أحمد أمين.

كيف تشيع عني هذه المقالة السيئة وأنا الكاتب الوحيد التي احترم معاصريه فتحدث عنهم في مقالاته ومؤلفاته بما يحبون، وسجل آراءهم في الأدب بنزاهة وإخلاص؟.

ما هو الشر الذي تنطوي نفسي عليه حتى يستبيح الزملاء اتهامي بحب المناوشات والمشاغبات؟.

لقد تأدبت منذ أعوام طوال بأدب أبي منصـور الثعالبي رحمه الله فتحدثت في رسـائلي ومؤلفاتي عمن عاصرت من الرجال كما تحدث الثعالبي عن معاصريه من الكتاب والشعراء.

فأين تكونون يا أدباء الجيل من هذا المسلك النبيل؟

إن أدباء العراق والشـام ولبنان ينكرون عليكم ما تتهمونني به من حب الشـغب والصيال، ففي جرائدهم ومجلاتهم وأنديتهم تحدثت عن أدباء مصر بالخير والجميل.

بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأصرح بأني عاديت كثيراً من الناس في سبيل الدفاع عن أعدائي من أهل الأدب والبيان. ولو شئت لأقمت الشواهد على صحة ما أقول.

فكيف يصح أن يتهمني أدباء مصر بالتحامل عليهم وأنا الذي أحسنت السفارة عن الأدب المصري في كل بلد حللت فيه؟.

الحق أن أكثر أدباء مصر يحبون أن يعيشوا مدلَّلين في زمن لا ينفع فيه الدلال!

الحق أنهم اسـتمروا العافية من مكاره النقد الأدبي، فهم يصـرخون كلما هجمنا عليهم لنعود إلى مهادنتهم من جديد.

ولو أنهم فكروا قليلاً لعرفوا أني أؤدي الزكاة عن النشاط المصري. فقد شاع في كل أرض أن الأدباء المصريين تنكروا للنقد الأدبي ولم يعودوا يعرفون غير مقارضة الحمد والثناء.

وأوجه القول مرة ثانية إلى من أغضبهم هجومي على الأستاذ أحمد أمين فأقول:

إن هذا الرجل أراد أن يؤرخ العصر العباسي من الوجهة الأدبية فجعله عصر معدة لا عصر روح، وشاء له أدبه أن يختص البصرة بحكم من أحكامه القاسية فزعم أنها عرفت (نقابة الطفيليين).

فهل خطر في بال هذا الباحث المفضال أن البصرة عرفت أكرم نوع من نكران الذات حين كانت مهداً لإخوان الصفاء؟.

هل خطر ببال أن البصـرة حين آوت هؤلاء الباحثين العظماء قهرت التاريخ على أن يشهد لها بقوة الروحانية؟.

ومن الذي يصدق أن رسائل إخوان الصفاء وهي أعظم ذخيرة أدبية وفلسفية وضعت أصولها في البلد الذي زعم أحمد أمين أنه أنشأ أدب التطفيل؟.

هل يعرف أحمد أمين من هو مؤلف (رسالة الطير والحيوان) وهي رسالة لم يكتب مثلها في مشرق أو في مغرب؟.

إن هذه رسالة وضعت في البصرة، أو ألفها رجل استوحى أهل البصرة، أفما كانت تصلح هذه الرسالة شفيعاً للبصرة فتنقذها من قالة البهتان على لسان أحمد أمين؟.

ثم ماذا؟

ثم استطاعت البصرة أن تنشئ مذهباً في النحو شغل الأمم الإسلامية نحو اثني عشر قرناً.

ولو أن أحمد أمين كان يدقق لعرف أن البصريين لم يصلوا إلى ذلك إلا بقوة الروح، فكيف شاء له هواه أن يجعلهم أصحاب معدات؟.

لو أن معدتي كانت كما أحب من القوة والعافية لأكلت لحم الأستاذ أحمد أمين وأرحت الدنيا من أحكامه الجائرة في الأدب والتاريخ.

ولكن الدهر حكم بأن أكون من أصحاب الأرواح فلم يبق لي في محاسبته غير شيطنة الروح، وفي الأرواح شياطين!.

وتحامل أحمد أمين على البصرة وعلى العصر العباسي هو الذي أثارني عليه، فإن كان في الناس من يتوهم أن بيني وبينه ضغينة وأنني أشفي صدري بتنغيصه، فهو من الآثمين وسيلقى الجزاء يوم يقوم الحساب.

ولن ينقصني عجبي من أهل هذا الزمان

فما كنت أظن أن أهل مصر يستكثرون على رجل أن يقول كلمة الحق لوجه الله؟

ما كنت أظن أن من واجبي أن أكف قلمي عن رجل يتطاول على ماضي الأدب العربي وهو بشهادة نفسه غير أديب!.

أليس من المزعج أن يكون من تقاليد الصحافة الأدبية في مصر أن تمجد رجال الغرب وتنتقص رجال الشرق؟.

أليس من المزعج أن تكون عيوب الناس في الأعصر الماضية مقصورة على أسلافنا وهم الذين احيوا الثقافة الأدبية والعقلية في عصور الظلمات، وبفضلهم حُفِظ أكثر تراث الهند والفرس والروم؟.

أليس من المؤلم يقال لمن يغار على ذلك الماضي المجيد (إنك ذو ضغينة وإنك تشفي صدرك بتكلف الغيرة على ماضي اللغة العربية)؟.

إن الرجل الذي يملك الفصل في هذه القضية هو الأستاذ أحمد أمين، فليذكر متى عاديته؟ ومتى حقدت عليه؟ ومتى وقع بيني وبينه ما يورث الشحناء؟.

إن أحمد أمين لم يوجه إلي أية إساءة، وربما جاز أن يقال إنه لم يؤذ أحداً من معاصريه، فقد كان ولا يزال مثال الطيبة واللطف.

ولكن أحمد أمين الذي كف شره عن الأفراد وجّه شره إلى التاريخ، فهو يدوس ماضي اللغة العربية بلا تحرز ولا رفق، ولو تركناه شهرين اثنين يؤرخ الأدب على هواه لجعل الأمة العربية أضحوكة بين العالمين.

فإن كان هناك شيء يكتب لوجه الله فهو ما أكتب عنك يا صديقي أحمد أمين

أما بعد فقد بقيت معركة حامية حول ما سماه أحمد أمين (جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي) فإن اتسع صدر (الرسالة) لتلك المعركة فسأخدم الأدب العربي خدمة باقية. وإن ضاق صدر (الرسالة) عن هذه المعركة فسأنقل الميدان إلى مجلة أو مجلتين أو مجلات في مصر والشام والعراق، وحسبنا الله وهو نعم الوكيل.

- ٦ -

أرى من الواجب في مطلع هذا المقال أن أوضّـــح مســـألتين خفيتا على بعض القراء فجرت ألسنتهم بالعتب والملام.

المســـألة الأولى، هي الحكم بأن أحمد أمين ينظر إلى الأدب، وإلى الوجود نظرة عامّية؛ فقد ظن فريق من الناس أننا نقول بأنه من العوامّ في حدود الاصـــطلاح المألوف، على معنى أنه بعيد عن الجو الذي يعيش فيه العلماء.

وذلك غير ما نريد. فأحمد أمين تلقى العلم في مدرسة القضاء الشرعي وظفر بإجازتها العالية، وجلس للقضـاء في المحاكم الشـرعية بضـع سـنين. ثم اشـتغل بالتدريس في الجامعة المصـــرية. فهو ليس عامّياً بالمعنى المعروف، وإنما نريد أن نقول إن أحمد أمين على كثرة ما قرأ في الكتب وما سمع من العلماء لا يزال يفكر كما يفكر العوام.

ولتوضـــيح ذلك نقول: إن في أهل العلم من يكون أقل اطلاعاً من زملائه، ولكنه قد يكون أقوى منهم في صحة الفهم وسلامة التمييز وقوة الإدراك، فيكون محصوله القليل أجدى وأنفع، ويكون له في أحكام العقل مجال.

وفي مقابل ذلك نرى بعض العلماء المزودين بكثير من الثقافات ينظرون إلى الوجود نظرات عامية لا تمتاز بشيء عن نظرات العجائز من قعائد البيوت.

وأحمد أمين قليل الاطلاع في ميدان الأدب العربي بلا جدال، وهو مع قلة اطلاعه يحكم على الأدب أحكاماً عامية، بعيدة كل البعد عن أحكام الخواص، وقد أسلفنا الشواهد التي تؤيد رأينا فيه، وسنسوق شواهد جديدة.

المسـألة الثانية، هي التعرض لأعماله المعاشـية: فقد اسـتنكر بعض القراء أن نقول إنه يكسب كيت وكيت، وعدوها مسألة شخصية.

ونقول إننا تعرضـنا لذلك لغرضـين: الأول هو النص على أن أحمد أمين مشـغول عن الفكر والقلم بشـواغل تصـرفه عن التجويد في البحث والتفكير والإبداع، والغرض الثاني هو تذكيره بأنه لا يجوز لمثله أن يعيب على أدباء العرب أن يشغلوا بمعاشهم وهو يقتل وقته بتدبير المعاش.

ولو شئت لقلت إن الرجل الذي يدعو إلى هجر الأدب الجاهلي جملة واحدة بحجة أنه يشل التفكير هو نفسه الرجل الذي اشترك في تأليف الكتاب (المجمل) والكتاب (المفصل) والكتاب (المنتخب) بأجر معلوم تعرفه خزينة وزارة المعارف.

فإن كان أحمد أمين صادقاً في حكمه على الأدب الجاهلي فكيف جاز عنده أن يشترك في تلك المؤلفات وفيها مكان ظاهر للأدب الجاهلي وهي خليقة بأن تشل عقول التلاميذ؟!.

وكنت قلت إن الأستاذ أحمد أمين لا يستطيع أن يخدم الجامعة المصرية بالمجان، وإنه يأخذ منها في كل شهر ستين ديناراً، فكتب إلينا أحد المطلعين يقول إنه يأخذ من الجامعة في كل شهر خمسة وثمانون لا ستين.

فهل يجوز للرجل أن يأخذ هذا المبلغ بطمأنينة خلقية في تدريس الأدب العربي وهو يعتقد أنه أدب لا يستحق العناية وأنه كان في ماضيه الطويل أدب تسوُّل واستجداء؟.

وبعد توضيح هاتين المسألتين أرجع إلى هذا الرجل رجعة قاضية.

لقد دل على مبلغ فهمه للأدب حين ساق هذين البيتين في مقاله الثالث في جناية الأدب الجاهلي:

فما روضة زهراء طيبة الثرى يمج الندى جثجاثَها وعرارَها

بأطيب من أردان عزة موهناً إذا أوقَدَتْ بالمندل الرطب نارَها

فقد ضبط هذين البيتين على نحو ما يرى القارئ: فجعل الندى في البيت الأول فاعلاً وجعل الجثجاث والعرار مفعولين، وجعل (أوقدت) في البيت الثاني مبنياً للمعلوم ونصب النار على المفعولية.

فهل سمعتم قبل ذلك أن الندى يمج الزهر والنبات؟

لو كان أحمد أمين يتأمل ما يقرأ لعرف أن الندى في البيت الأول من هذين البيتين لا يمكن أن يكون فاعلاً، ولعرف أن (أوقد) في البيت الثاني فعل مبني للمجهول ليجعل الشاعر معشوقته عقيلة تخدمها الوصائف.

فهل يستطيع أحمد أمين أن ينكر أنه أخطأ في ضبط هذين البيتين؟

وهل يمكن لمن يثقون بكفايته الأدبية أن ينكروا أن لمثل هذا الفهم الخاطئ دلالة على مبلغ إدراكه لدقائق المعاني؟.

نترك هذا وننتقل إلى أحكامه على الشعر العربي في العصر الإسلامي، وهو يراه لم يتغير من حيث الموضوع فظل كما كان محصوراً في المديح والهجاء والفخر والحماسة والغزل والرثاء.

والظاهر أن أحمد أمين لم يدرس الشعر الأموي دراسة تمكنه من فهم الفرق بينه وبين الشعر الجاهلي، فليس بصحيح أن الموضوعات لم تتغير، وليس بصحيح أن الشعراء الأمويين كانوا يتناولون الأغراض الشعرية على نحو ما كان يتناولها الجاهليون.

وإذا صح أن الشعر الجاهلي والإسلامي متحدان في الموضوعات فهناك فرق ظاهر جداً بين العصرين في تصور تلك الموضوعات.

فالغزل في العصر الأموي فن جديد لا يعرفه العصر الجاهلي، وهل يتصور أديب أن أشعار عمر بن أبي ربيعة كانت لها سوابق عند الجاهلية؟.

هل يتصور أديب أن تائية كثير في أغراضها ومراميها كانت لها نظائر في الشعر الجاهلي؟.

وهل يصح لأديب أن يقول بأن غزليات العرجي وجميل والحارث بن خالد كانت لها أشباه قبل العصر الإسلامي؟.

إن الأمويين تغزلوا كما تغزل الجاهليون، ولكنهم تفردوا بابتكار فن جديد هو القصص الغرامي، فهل فطن لذلك أحمد أمين؟.

وهل يمكن نكران ما وصل إليه الأمويون من الرقة والظرف في النسيب؟

أليس فيهم الذي يقول:

إن لي عند كل نفحة بستا ... نٍ من الورد أو من الياسمينا

نظرةً والتفاتةً أترجى ... أن تكوِني حللت فيما يلينا

أليس فيهم الذي يقول:

يا أم عمران ما زالت وما برحت ... بنا الصبابة حتى مسَّنا الشفقُ

القلب تاق إليكم كي يلاقيكم ... كما يتوق إلى منجاته الغَرق

تعطيك شيئاً قليلاً وهي خائفة كما يمس بنظر الحية الفَرق

أليس فيهم الذي يقول:

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلابله

بلا، وبألا أستطيع، وبالمنى وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله

وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضي أواخره لا نلتقي وأوائله

أليس فيهم الذي يقول:

ولو سلك الناس في جانب من الأرض واعتزلت جانباً

ليممتُ طِيتها إنني أرى حبها العجب العاجبا

أليس فيهم الذي يقول:

وإني لأستحييك حتى كأنما عليّ بظهر الغيب منك رقيب

ولو أنني أستغفر الله كلما ذكرتك لم تكتب عليّ ذنوب

إن تفصيل ما امتاز به شعراء العصر الأموي في النسيب يحتاج إلى كتاب خاص سيؤلفه أحمد أمين يوم يعرف أن الأدب لا يكال بمكيال ولا ينظر إليه بالعد والإحصاء.

إن من أعجب العجب أن يقال إن الشعراء الأمويين لم يبتكروا شيئاً في التشبيب، وهم الذين أمدوا لغة العرب بثروة وجدانية ستعيش ما عاشت لغة القرآن.

ألا يكفي أن يكون العصر الأموي قد ابتكر الاستشهاد في الحب؟

ألا يكفي أن يكون ذلك العصر هو الذي خلق شخصية مجنون ليلى، وهي شخصية شرَّق سحرها وغرب، فكانت لها أصداء عند الشعراء من أهل الشرق وأهل الغرب؟.

ألا يكفي أن يكون العصر الأموي هو الذي فهم أن الحج من المعارض الدولية للصباحة والملاحة والجمال؟.

ألا يكفي أن يكون شعراء العصر الأموي هم الذين أذاعوا بين الناس فتنة الهيام بأسرار الوجود؟.

ثم ماذا؟

ثم جهل الأستاذ أحمد أمين أن العصر الأموي هو العصر الذي تفرد بإجادة الأراجيز، ولكن هل فكر أحمد أمين في الأراجيز الأموية؟.

الحق أن العصر الأموي يحتاج إلى أدباء عظام يسجلون فضله على اللغة العربية، ففي ذلك العصر ظهر الشعر السياسي، وهو فن من الأدب يختلف عن التعصب للقبيلة كل الاختلاف، وله مزايا وخصائص تنتظر أديباً له نظرة خاصية لا عامية.

فمتى تعرف كلية الآداب ذلك الأديب؟

إن من العار أن يقول أستاذ من كلية الآداب بأن الأدب في العصر الأموي ليس إلا صورة من الأدب في العصر الجاهلي.

وهل يستطيع إنسان أن يقول بأن الكميت بن زيد الأسدي كان له نظير بين شعراء الجاهلية؟.

إن العصر الأموي ينتظر أديباً يفهم أنه كان صلة الوصل بين العصر الجاهلي والعصر العباسي، ويدرك أنه تحرر كل التحرر من العقلية الجاهلية.

فمتى تعرف كلية الآداب ذلك الأديب؟

إن عميد كلية الآداب اليوم هو الأستاذ محمد شفيق غربال، وهو مؤرخ جليل يفهم أن دراسة تاريخ القرون الوسطى أمر واجب، لأن ذلك التاريخ كان الصلة بين القديم والحديث، فهل نستطيع أن نشير عليه بأن ينشئ في كلية الآداب كرسيا للعصر الأموي الذي جهله أحمد أمين؟.

ليت، ثم ليت!!

إن المسافة بين العصر الجاهلي والعصر العباسي طويلة جدّاً، لأنها تقع في نحو خمسين ومائة سنة، وهي المدة التي انتظمت عصر النبوة وعصر الخلفاء وعصر الأمويين، وفي تلك المدة كانت الشخصية العربية هي الشخصية التي تهدد ممالك الأرض، والتي تسنّ شرائع الفتوّة

وقوانين المجد، والتي تلوّن العالم بألوان مختلفات، والتي مكنت العرب من أن يكون لهم صوت مسموع في أقطار المشرق والمغرب.

فهل يُعقل أن يكون أدب العرب في ذلك العهد صورة ثانية من أدبهم في أيام الجاهلية؟

ومن الذي يصدق أن الشعراء المسلمين كانوا يتهاجون على نحو ما كان يصنع الجاهليون؟.

وهل خطر ببال أحمد أمين أن العصبية السياسية في العصر الإسلامي كانت لها ألوان لم يعرفها شعراء القبائل في الجاهلية؟.

هل فكّر في تحديد الخصائص الشعرية للمدح والهجاء في العصر الأموي؟

وهل تنبه إلى ما ابتكره الشعراء الأمويون حين أوقدوا نار العصبية الجاهلية؟

يعزّ عليّ والله أن يقع في هذه الأخطاء أستاذ فاضل من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية، وهي اليوم معهد عظيم يحج إليه طلبة العلم من أقطار الشرق.

يعزّ عليّ أن يكون في رجال الجامعة المصرية من يفهم أن العصر الإسلامي صورة من العصر الجاهلي في التفكير، وطرائق التعبير مع أن ذلك مستحيل.

وهل يتصور عاقل أن خطب علي بن أبي طالب صورة من خطب أكثم بن صيفي مثلاً؟.

هل يقول مفكر بأن رسائل عبد الحميد صورة مكررة لما كان يكتب الجاهليون؟

وهل يمكن القول بأن معاوية كان يكتب بأسلوب عمر بن الخطاب؟

إن التطور شريعة طبيعية يا صديقي، فكيف تتوهم أن يكون العرب خرجوا وحدهم على تلك الشريعة؟.

إن العرب في أدبهم وتصورهم وعقليتهم قد انتقلوا من حال إلى أحوال، وإن غاب ذلك عن فطنتك الواعية.

وأين أنت من القصص الرائع الذي عرفته المساجد في العصر الأموي؟

أين أنت من الشعر الرقيق الذي ابتكره الأمويين في وصف مجالس الأنس والشراب؟

وهل تعرف يا حضرة الفاضل أن العصر الأموي ظلم أقبح الظلم حين اعتدى عليه خلفاء بني العباس بالمحو والتبديل؟.

هل مرّ في خاطرك أن العصر الأموي رُزِئ بمؤامرة سياسية حَرَمتْ تاريخه الأدبي من نعمة الوجود؟.

ثم ماذا؟

ثم يتحذلق الأستاذ أحمد أمين فيقرر أن الخضوع للأوزان الجاهلية والقوافي الجاهلية جنى علينا جنايات كبرى، لأنه (حرمنا من الملاحم الطويلة التي كانت عند الأمم الأخرى وحرمنا من القصص الطويلة الممتعة).

وهذا الحكم يشهد بأن أحمد أمين يجهل طبيعة الأمة العربية بعض الجهل، ويجهل طبائع الأمم الأخرى كل الجهل.

إن أحمد أمين لا يعرف أن العرب ليس في طبيعتهم أن يأنسوا بالمنظومات المطولة في القصص والتاريخ، وهو يتوهم أن العرب كان يجب عليهم أن يسلكوا في الشعر مسالك اليونان، وذلك خطأ فضيع.

إن عبقرية العرب ليس في القصص، وإنما عبقرية العرب في الغناء والتعبير عن الأنفاس الروحية. وفي بلاد العرب نشأت الديانة الموسوية والديانة العيسوية والديانة المحمدية، وفي بلاد العرب نشأت أحاديث القلب والوجدان، وهم بلا جدال أصدق من تحدث عن الأرواح والقلوب.

فإن امتازت لغات الشرق والغرب بالمنظومات الطويلة في القصص والتاريخ فقد امتازت لغة العرب بأكرم أثر عرفه الوجود وهو القرآن، وهو حجة اللغة العربية يوم يقوم التفاخر بين اللغات بالأحساب.

وإلى الأستاذ الجسر أوجه الكلمة التالية:

أنت تعجب أيها السيد من أن نمنح أحمد أمين (قدرة الجناية على الأدب العربي) وأجيب بأن أحمد أمين ليس من النكرات حتى نتركه يتحذلق كيف شاء. إن أحمد أمين أستاذ بكلية الآداب يا حضرة السيد، وكلية الآداب من أكبر معاهدنا العالية، وما يصدر عن أساتذتها الأفاضل قد يتلقاه أكثر الناشئين بالقبول.

وما الذي تخشاه من منح أحمد أمين ما لا يستحق؟

إن كان هجومنا عليه يعطيه فرصة جديدة من فرص الشهرة فلا بأس، فهو صديق عزيز، والتنويه بشأنه من أوجب الفروض.

المهم (يا حضرة السيد) أن يعرف أحمد أمين أن في مصر رقابة أدبية تزجر المتطاولين على ماضي الأدب العربي وتصرفهم عن اللجاح فيما لا يفيد.

ونحن لا نحارب أحمد أمين بالذات، وإنما نحارب الآراء التي نقلها نقلاً عن خصوم اللغة العربية، وسنرى في المباحث الآتية ما يشفي صدور قوم مؤمنين.

- ٧ -

يشهد الأستاذ أحمد أمين على نفسه فيقول:

(أين الشعر العراقي الذي تجد فيه الشعراء يتغنون بمناظر العراق الطبيعية، ويصفون فيه أحداثهم الاجتماعية؟ وأين الشعر الشامي أو المصري أو الأندلسي الذي يشيد بذكر مناظر الطبيعة وأحوال الاجتماع للشام ومصر والأندلس؟ إنك تقرأ الشعر العربي فلا تعرف إن كان هذا الشعر لمصري أو عراقي أو شامي إلا من ترجمة حياة الشاعر. أما القالب كله فشيء واحد، والموضوع كله واحد: مديح أو رثاء أو هجاء أو نحو ذلك ما قاله الجاهليون).

ذلك كلام أحمد أمين، نقلناه بالحرف حتى لا نُتهم بالتزيد عليه فهل رأيتم أغرب من هذا الكلام؟ يعتقد أحمد أمين أن شعراء العراق لم يصفوا مناظر بلادهم الطبيعية ولم يصفوا أحداثهم الاجتماعية.

ولو أنه كان اطلع على الشعر العراقي في عهوده الماضية، وهي التي تعنيه، لعرف أن شعراء العراق لم يفرطوا في الحديث عن أنهارهم وبساتينهم، ولم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من شؤون المجتمع إلا أفردوها بحديث خاص، وأخبار الفتن والثورات تشهد بذلك.

لو كان أحمد أمين اطلع على الشعر العراقي لعرف أن العراقيين فُتنوا بمناظر بلادهم أشد الفتون. وهل يعرف قراء العربية نهراً أسير ذكراً من الفرات؟.

ألا يكفي أن يكون الشاعر الذي قال:

يا ليت ماء الفرات يخبرنا أين استقلت بأهلها السفنُ

وقد فُتن العراقيون بطبيعة العراق فوصفوا الحمائم السواجع وتفننوا في وصف الليل، وأجادوا في وصف الأزهار والرياحين، وأسهبوا في وصف الملاحة والصباحة والجمال، وكادوا يتفردون بالتفوق في وصف مجالس الأنس والشراب.

وكلِف شعراء العراق بوصفهم بواديهم وحواضرهم، ولهم أوصاف كثيرة في الديارات وحيوات الرهبان، وهل أقيم في أديم العراق دير غفل عن وصفه الشعراء؟.

لو كان أحمد أمين من المطلعين لعرف أن العراقيين أحبوا الطبيعة أصدق الحب، فهم الذين أذاعوا في الناس معاني الشغف بالوجود، وهم أصدق من وصف الجآذر والظباء، وكانوا ولا يزالون أقدر الناس على تذوق ما في الحياة من بؤس ونعيم.

هل نسي أحمد أمين أن طبيعة العراق هي التي أنطقت من يقول:

عيون المها بين الرصـــافة والجســـر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

إن العراق الشـــاعر لا ينتظر حكم أحمد أمين، فقد رقم أمجاده الشـــعرية فوق جبين الزمان. وهنا أستشهد بقول الشاعر علي الجارم في خطاب دجلة:

نـبـت الـقـريـض عـلـى ضـــفـا فِـك بـين أفـنـان الـورودِ

وهي كلمة صدق في شاعرية العراق.

لقد وصـــف العراقيون كل شـــيء من مظاهر الطبيعة في العراق حتى الحيات والثعابين والعقارب والزنابير والبراغيث!.

وأحمد أمين هو المسؤول عن إيراد الشواهد لأنه من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية.

ويقول هذا الرجل إن العراقيين لم يصفوا أحداثهم الاجتماعية

وأقول إن شـــعراء العراق يمتازون بالجرأة في وصـــف أحداث المجتمع، وفي العراق مات مئات من الشـعراء مسـمومين أو مقتولين بسـبب الجهر بكلمة الحق في وصـف الأحداث الاجتماعية، وما قامت في العراق دولة أو سـقطت دولة بدون أن تظفر بقصـيدة أو قصـائد من أولئك الشعراء الذين كانت أشعارهم موازين في الحياة السياسية.

وهنا أذكر مسألة سيحتاج إليها أحمد أمين حين يؤرخ الحياة الأدبية في العراق لعهد بني العباس.

يجب أن يكون مفهوماً عند كل أديب أن الدواوين التي تحفظ أشـــعار أهل العراق لا تمثل الحياة الشعرية لأهل العراق تمثيلاً صحيحاً، فالذي بقي من أشعار أهل العراق هو الجزء الذي سمحت له السـلطات السـياسـية أن يعيش. وأكاد أجزم بعد أن خبرت حياة العراق أن الثروة الشعرية هناك ضاعت منها أشياء كثيرة جداً بسبب الخوف من المسيطرين على الحياة السياسية والاجتماعية.

وقد اهتديت إلى ذلك، وأنا أدرس العصر الذي عاش فيه الشريف الرضي: فقد تبينتُ أن العراق في ذلك العصـــر عرف لونين من الحياة: حياة الســـر وحياة العلانية. وتيقنت أن الشريف ضاع من حياته الشعرية نحو عشرين سنة بسبب التخوف من عواقب الجهر بكلمة الحق.

وقد صح عندي أن الشريف الرضي هو شاعر الثورة على الاستبداد ،ولكن شواهد هذا الجانب من حياته الشعرية قد ضاعت

وهل بقيت أشعار بشار في الثورة على رجال السياسة وأقطاب المجتمع؟

هل بقيت أشعار ابن الرومي في الحقد على معاصريه من الحكام والوزراء؟

لقد بقي منها ما جازت روايته، وذهب شعره اللاذع إلى غير معاد؟

وكيف غاب عن أحمد أمين أن فقهاء العراق أنفسهم قد اشتهروا في آرائهم بإيثار الرموز والكنايات؟.

إن كان أحمد أمين ينكر أن شعراء العراق وصفوا الأحداث الاجتماعية فليشرح لنا كيف اتفق أن يموت كثير من شعراء العراق بالقتل والاغتيال.

وهل يقتل الشاعر أو يغتال إلا بسبب الحرص على الجهر بكلمة الحق؟

وهل في آداب الأمم كلها أبرع سخرية من الشاعر الذي قال:

أنفوا المؤذن من دياركم إن كان ينفي كل من صدقا

وهو شاعر قد تأدب بأدب أهل العراق.

إن ديوان الشريف يصور أكثر ما وقع في العراق من الأحداث السياسية والاجتماعية في الشطر الأخير من القرن الرابع، ففيه نرى ما وقع لأقطاب الكتاب من الكوارث والخطوب، وفيه نرى كيف انتهت حياة الخليفة الطائع، وفيه نرى أخبار القتال الذي دار بين السنة والشيعة، وفيه نرى عدوان بني تميم على بعض أصدقاء الشاعر من الزعماء.

وما يقال عن ديوان الشريف الرضي يقال عن ديوان المتنبي فهو سجل لأكثر الحوادث التي وقعت في الشطر الأول من القرن الرابع. وهو تصوير لأكثر ما عرف من الأقطار العربية والإسلامية. وهو تاريخ لأكثر من اتصل بهم من الوزراء والرؤساء والملوك.

وهل يمكن أن يقال إن أشعار المتنبي وهو في حلب تشابه أشعاره وهو في مصر؟

إن القول بذلك لا يقع إلا من رجل مثل أحمد أمين يستدل بوحدة القوافي والأوزان على وحدة المعاني والأغراض.

وما رأي هذا الباحث المفضال في أشعار مسلم بن الوليد؟ هل خطر بباله أن عند هذا الشاعر قصائد تؤرخ بعض الوقائع الحربية؟.

وهل توجّع الناس لمصرع المتوكل إلا بفضل رائية البحتري؟

وهل عرف الناس عزيمة المعتصم يوم عمورية إلا بفضل بائية أبي تمام؟

وبمناسبة هذين الشاعرين اللذين خدما الخلفاء في العراق ننتقل إلى شعراء الشام: فهم عند أحمد أمين لم يصفوا بلادهم ولم يصوروا ما وقع فيها من أحداث اجتماعية.

فهل يعرف أن شعراء الشام كانوا من أحرص الناس على وصف الطبيعة وأقدرهم على تعقب أحداث المجتمع؟.

هل سمع أحمد أمين باسم شاعر يقال له الصنوبري أجاد كل الإجادة في وصف المناظر الطبيعية؟.

هل يجهل أحمد أمين أن أبا فراس الحمداني سجل الصراع بين العرب والروم أروع تسجيل؟.

هل ينكر أحمد أمين أن المعري وصف أحداث زمانه وصفاً نادر المثال؟

هل يعرف أحمد أمين أن شعراء الشام تغنَّوا بمحاسن بلادهم وأسرفوا حتى قيل إن الشام جنة الأرض؟.

هل يعرف أحمد أمين أن اسم الغوطة شرق وغرب بفضل ما تغنَّى به أولئك الشعراء؟

هل يذكر أن الهيام بالوصف كاد يصير طبيعة شامية يشهد لها ما صنع البحتري حين وصف إيوان كسرى بالعراق؟.

وهل يذكر أن قصيدة أبي تمام في وصف الربيع لا تقل روعة عن أعظم ما قال الأوربيون في الربيع؟.

وهل يذكر أن مصاولة الذئاب والأسود لم توصف بأجمل مما صنع البحتري والمتنبي؟

وما رأي أحمد أمين في الصحراء؟

أليست الصحراء من الطبيعة يا حضرة الأستاذ؟

هي من الطبيعة بلا ريب. فهل تستطيع القول بأن شعراء الشام والعراق لم يصفوا الصحراء؟.

وما رأي أحمد أمين في حيوان الصحراء؟

أليس من الطبيعة؟ هو من الطبيعة بلا ريب، وقد تعقبه شعراء الشام والعراق بالوصف والتحليل.

إن أحمد أمين لا يرى الطبيعة إلا في الشجرة والزهرة، ولو قال هذا رجل غيره لقلنا إنه ينظر إلى الوجود نظرة عامية.

فهل يتفضل الأستاذ أحمد أمين فيدلنا عمن أخذ هذا التعريف؟

إن الطبيعة لها مظاهر كثيرة جداً، فهي تشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وهي تشمل كل ما تراه العيون، أو تحسه القلوب، أو تدركه العقول.

فكيف جعلها مقصورة على الشجرة والزهرة؟

ومع ذلك هل قصر شعراء الشام والعراق في وصف الأشجار والأزهار؟

وكيف وهم الذين أذاعوا بين الناس أن النظر إلى الخضرة يزيد في نور العيون؟

هل يذكر أحمد أمين كم ألوفاً من المرات ذكرت الأشجار والأزهار والرياحين في أشعار أهل الشام والعراق؟.

هل يستطيع أن يدلنا على شاعر واحد لم يوجه قلبه وشعوره إلى المظاهر الطبيعية؟

وهل يصير الرجل شاعراً إلا بعد أن ينطبع إحساسه بمظاهر الوجود؟

أترك هذه الجوانب وأنتقل إلى حكمه على الشعر المصري، فالشعراء المصريون في نظره لم يكونوا إلا مقلدين لشعراء الشام والعراق. ..

ولأحمد أمين في هذا الحكم الجائر عذر مقبول، لأنه لم يدرس الشعر المصري دراسة تمكنه من الحكم له أو عليه، فلو كان من المطلعين لعرف أن الشعراء المصريين وصفوا بلادهم وتحدثوا عنها بأقوى العواطف، وتغنوا بمحاسن بلادهم أجمل غناء.

وهل رأيتم شاعراً أحس الطبيعة كما أحسها ابن النبيه إذ يقول:

إذا نُشِرتْ ذوائبهُ عليه — حسبتَ الماءَ رفَّ عليه ظلُّ

وهل في العربية شاعر صور أوهام بلده وما فيها من مختلف الأحاسيس كما صنع البها زهير؟ وهل عرفتم شاعراً شرب من كوثر الوجود كما شرب ابن الفارض؟.

اسمع، يا صـديقي أحمد أمين، فقد تواترت الأخبار بأنك سـتدرس الأدب المصـري في كلية الآداب، وليس من الكثير عليك أن تسـمع النصـيحة من رجل مثلي، فأنت تعرف منزلتك في قلبي، وتدرك جيداً أني أتمنى أن تكون من الموفَّقين!.

إن الشعر المصري طراز خاص، وله مزايا تفرد بها بين الأشعار المعروفة في اللغة العربية؛ ولو أُلقيت قصيدة مصرية بين ألوف من القصائد، لعرف السامعون أن أزهارها تفتحت فوق شواطئ النيل. ..

وهل يستطيع – أحمد أمين – أن يقول بأن ديوان ابن نباته المصري تمكن إضافته إلى البحتري أو ابن الرومي أو مسلم ابن الوليد؟.

إن أحمد أمين يصرح بأن الشعر العربي لا يدل على مواطن أصحابه إلا بعد النظر في تراجم الشعراء!.

فهل يصح هذا القول في أشعار ابن نباته والبها زهير؟

وهل يصح ذلك في أشعار تميم بن المعز؟

وهل يصح ذلك في أشعار ابن النحاس وأشعار البوصيري؟

وهل يصح ذلك في أشعار عمارة اليمني، وقد عاش في مصر حيناً من الزمان؟

إن مصر قهرت من زارها من الشعراء على وصف ما فيها من طبائع وأخلاق، ولعلها كانت السبب في شهرة من زارها من الشعراء، فكيف يصح القول بأنها لم تتفرد بين الأمم العربية بخصائص شعرية؟.

وهل يمكن القول بأن أغاريد صفي الدين الحلي وهو في مصر تشبه أغاريده وهو في العراق، أو أن أشعار ابن سناء الملك لا تدل دلالة صريحة على الوطن الذي عاش فيه إلا بعد الاطلاع على ترجمته؟.

إن البارودي – وهو شاعر اصطنع مذاهب القدماء في الأخيلة والتعابير – تدل على مصريته لأول نظرة! فما بالك بالشعراء المصريين الذين استوحوا فطرتهم ولم يتابعوا شعراء بني أمية أو شعراء بني العباس؟.

بقيت مسألة مفصلة بهذا المقال، ونحب أن نوفيها بعض ما تستحق من الشرح قبل أن نتكلم عن أحكامه على الأدب الأندلسي، وهي أحكام سيحاسَب عليها أشد الحساب!.

ما رأيُ حضرة الأستاذ في الأشعار العراقية والشامية والمصرية التي صورتْ ثورة أصحابها على الدنيا والناس؟.

أيظن أن شعراء العصر الأموي والعباسي في تلك الأقطار تحدثوا عن زمانهم ودنياهم، كما تحدث الجاهليون؟.

لقد نشأ في الشعر فنٌ يسمى (شكوى الزمان) فهل يراه من وصف المجتمع؟ أم يراه من الثورات النفسية؟.

إن كان من وصف المجتمع؛ فهو ثروة عظيمة تنقض رأي أحمد أمين، وإن كان من الثورات النفسية فهو أيضاً من وصف المجتمع لأنه شرح لأسباب الثورة على الدنيا والناس.

لو كان أحمد أمين كلف نفسه عناء الاطلاع على ديوان أو ديوانين قبل أن يصدر تلك الأحكام الخواطئ، لعرف أن من المستحيل أن تكون تلك الثروة الشعرية من لغو القول. فقد حفظ التاريخ الأدبي أكثر من مائة شاعر من الفحول في مصر والشام والعراق، وهؤلاء المائة – ولا نقول المئات – كانت لهم مذاهب في وصف الطبيعة، والتحدث عن المجتمع، والأنس بالحياة أو التبرم بالوجود.

وكانت لهم بجانب الشعر فقرات نثرية صوروا فيها آرائهم في حياة المجتمع. وهل كانت رسائل الخوارزمي وبديع الزمان وابن وشمكير إلا صوراً للأحداث الاجتماعية والسياسية؟.

وهل يحتاج الباحث إلى النص على أن الشعراء والكتاب كانت تراجمهم فرصة لدرس مشكلات السياسة والمجتمع؟.

من الذي يقول بأن شعراء مصر والشام والعراق لم يشتركوا في توجيه بلادهم إلى الأغراض السياسية والاجتماعية؟ وهل كان الشعراء في تلك العهود إلا ألسنة السياسة والمجتمع؟.

قد يقال: وأين تقع الأشياء التي تجافت عن السياسة والمجتمع؟

وأجيب بأنه ليس من المحتم أن تكون الأشياء كلها في السياسيات والاجتماعيات، إن صح أن وصف الدقائق الذوقية والوجدانية لا يمس المجتمع.

ومن الذي يوجب أن تكون صورة المجتمع مقصورة على الصلات بين الفقراء والأغنياء، والحاكمين والمحكومين؟.

إن الأمر في الشعر يرجع إلى عنصر واحد هو الصدق، وإذا صح أن الشاعر صادق الحس والعاطفة فمن حقه أن يتكلم كيف شاء وأن يصف من الأغراض ما يريد.

لقد اتفق لعمر بن أبي ربيعة أن يقف أشعاره على أهوائه الذاتية فهل يمكن القول بأن أشعار ابن ربيعة لا تمثل جوانب من المجتمع الذي عاش فيه؟.

وكيف وهي تصويرٌ لثورة العواطف في موسم الحج، وتسجيل لبعض أهواء الناس في ذلك الحين؟.

واتفق لأبي نواس أن يقصر أكثر شعره على الخمر والمجون، فهل كان ذلك إلا تمثيلاً لبعض أحوال المجتمع العراقي في ذلك العهد؟.

واتفق لأبي العتاهية أن تكون أكثر أشعاره في الزهديات، فهل كان ذلك إلا تخليداً لمظاهر النزعات الروحية في ذلك الزمان؟.

وما رأي الأستاذ أحمد أمين في أشعار الزهاد والنساك، وأشعار الماجنين والخلعاء؟ وما رأيه في أشعار الزنادقة والمرتابين؟.

أليس ذلك كله تصويراً لأحوال المجتمع؟

وما رأيه في الأشعار التي قيلت في وصف الإخوان والأبناء والأزواج؟

أيراها أجنبية عن المجتمع؟

الحق أني أجاهد في غير ميدان، وأعارك في غير معترك، لأني أشرح البديهيات، وأقيم الأدلة على أن الجزء أصغر من الكل وأن الواحد نصف الاثنين!.

ولكن هل كنت أملك أن أصنع غير الذي صنعت؟

إن جمهرة القراء لم تكن تعرف أن الأستاذ أحمد أمين يخطئ ثم يصرّ على الخطأ؛ ولم تكن تنتظر أن أهجم عليه وأنا الذي دافعت عنه في مجلة الرسالة يوم تجنى عليه بعض أدباء لبنان.

وقد تفضل بعض أدباء العراق فدعاني إلى أن أنبه الأستاذ أحمد أمين إلى اهتمامه في الأيام الأخيرة بالدعوة إلى تعزيز اللغة العامية.

فهل يظنون أني موكَّل بتقويم الأستاذ أحمد أمين؟

إن المهم هو تذكيره بعواقب ما يصنع في التجني على الأدب العربي وتخويفه من غضبة من وثقوا فيه يوم رأوه مشغولاً بالدراسات الإسلامية، وكان يستحق الثقة قبل أن يصنع بنفسه وبماضيه ما صنع.

وتفضل فريق من الباحثين فقدموا إليَّ شواهد من أغلاط أحمد أمين في مؤلفاته ودعوني إلى عرضها في هذه البحوث النقدية.

فليعرفوا – مشكورين – أني لا أستطيع ذلك، لأني لا أحب أن يسوء رأى الناس في مؤلفات أحمد أمين، برغم ما فيها من أغلاط، فقد عانى مثل الذي نعاني من أقذاء العيون تحت أضواء المصابيح.

ليس من المهم أن نهدم الأستاذ أحمد أمين – فتلك غاية صغيرة – ولكن المهم أن نكف شره عن الأدب العربي وأن نزجر من يتطلع إلى مثل غرضه من عوام الباحثين.

المهم أن يعرف الأستاذ أحمد أمين أن في مصر رقابة أدبية تصد الجامحين، وتهدي الحائرين، وهو يعرف في سريرة نفسه أني لا أهجم عليه إلا وأنا آسف محزون، لأنه كان مثالاً للصديق الأمين.

وبعد مقال أو مقالين أو مقالات سأتركه ليتنسم هواء البحر وهو آمن بشواطئ الإسكندرية بين رفيف القدود وهدير الأمواج.

- ٨ -

عرف الناس ما كان من انزعاج الأســـتاذ أحمد أمين من كلمة الحق، وفهموا أنه تجلد وتصَّبر إلى أن عجز عن التجلد والتصبر، وللطاقة الإنسانية حدود.

وما كنت أحســب أن الأيام ستقهر الأستاذ أحمد أمين على أن يهددني بأبيات فيها لوثة جاهلية، وهو الذي دعا الأمم العربية إلى وضـــع آثار الشـــعر الجاهلي في (متحف) لا يدخله الناس إلا بعد استئذان!.

ويعز عليَّ والله أن ينزعج الأســـتاذ أحمد أمين وأن يدَّعي أنه لقى رســـائل من مختلف الأقطار العربية فيها سباب موجه إلى من هجم عليه في مجلة (الرسالة). فهذا الادعاء يشهد بأنه يعجز عن الصدق في بعض الأحيان.

لو كان الأستاذ أحمد أمين يعرف عواقب ما يصنع لفهم أن الأمر كان يجب أن يكون بالعكس: فهو يجني على ماضي الأدب العربي بأحكامه الخواطئ، ويحتال لإفهام الجمهور أن أدباء العرب لم يكونوا أصـــحاب أرواح، وإنما كانوا أصـــحاب معدات. وأنا أدفع تلك التهم وأصحح ما وقع في كلامه من أغلاط.

فمن الذي يستحق اللوم والسباب في هذه القضية؟

لو فرضنا جدلاً أني أشاغب الأستاذ أحمد أمين لكان من الذوق أن يتلقى العرب هذه المشاغبة بالقبول، لأن فيها تمجيداً لماضي الأمة العربية.

ولو فرضنا جدلاً أن الأستاذ أحمد أمين على حق في السخرية من ماضي الأدب العربي لكان من الطبيعي ألا يســـتريح العرب إلى ذلك الحق، لأن الأبناء الأبرار يجسّـــمون محاســـن آبائهم ويتغاضون عما قد يكون فيهم من عيوب.

والأمر ليس كذلك في هذه القضية: فالأستاذ أحمد أمين لم يكن في جانب الحق حين قال في الاســـتهزاء بالأدب العربي ما قال، وأنا كنت وما زلت في جانب الحق حين حكمت بأن الأدب العربي أدب أصيل، وأنه خليقٌ بالخلود.

الأستاذ أحمد أمين يروّح عن نفسه بذلك الادعاء الطريف ليوهم القراء بأن أدباء العرب في مختلف الأقطار قد توجعوا له أشد التوجع، وتعرضوا لخصمه بالشتم والسباب، كأن أدباء العرب لم يبق لهم مأرب يحرصون عليه غير حماية أحمد أمين من كلمة الحق!.

ولنفرض جدلاً أن أدباء العرب جميعاً وقفوا في صـــف هذا (الأديب) فهل يتوهم أنه سينجو من قلمي حين ينحرف عن الصواب؟.

لقد سرني والله أن يتطاول على صاحب (الرسالة) وأن يتهمه بسوء النية في نشر هذه المقالات؛ فصـاحب (الرسـالة) قد آذاني أشـد الإيذاء حين اسـتباح أن يحذف من المقالات الماضية بعض الفقرات، ليظل مهذَّباً مؤدَّباً كصديقه المهذَّب المؤدَّب أحمد أمين!.

كم تلطفتُ وترفقتُ في موطن لا يجوز فيه لطفٌ ولا رفق، ثم كان جزائي أن يقال إن أدباء العرب غضبوا عليّ وسبُّوني لأني جهرت بكلمة الحق!.

ومع ذلك فما الذي يؤذيكم مني يا أحفاد يعرُب وقحطان؟

أليس في مقدوركم أن تحتملوا أديباً جنى على نفســـه وعلى معاشـــه ليرفع راية النقد الأدبي؟.

أليس في مقدوركم أن تحتملوا أديباً يقتل أعصـــابه في أوقات القيظ ليردّ عادية العادين على اللغة العربية؟.

ألا تستطيعون أن تغفروا زلة رجل جهل أخلاق الزمان فاعتصم بالحق والعدل؟

لقد حدثني عنكم أحمد أمين بما لا أحب ولا تحبون

فإن كان صدق فيما حكاه فغفر الله لكم! وإن كان تزيّد فعفا الله عنه!

وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل

أما بعد فقد كان الســـياق يوجب أن تكون كلمة اليوم في نقض ما ادعاه أحمد أمين على الأدب الأندلسي من الجمود أمام الطبيعة الفاتنة في تلك البلاد.

ولكني أحببت أن أقف وقفة قصيرة عند إحساس العرب بالطبيعة وبالوجود

يعرف كل من اطلع على كتب الأدب أن الشـــعراء كانوا يتواصـــون عند خمود القريحة بالنظر إلى المياه الجارية، والرياض الحالية.

ومعنى ذلـك أنهم كـانوا يفهمون أن النظر إلى جمـال الوجود يوقظ العواطف ويُرهف الأحاسيس.

وهذا يشـرح السـبب في غرام العرب بافتتاح القصـائد بالنسـيب لأنهم كانوا يدركون أن تأثر الشاعر بأقوى مظاهر الطبيعة وهو الجمال يوجه إحساسهم إلى مختلف الأغراض.

ومثل الشـــاعر في ذلك مثل المغني. فالمغني يجلس في هدوء ثم تصـــدح حوله الموســـيقا بأصوات مختلفات، ويظل كذلك إلى أن يستيقظ ما كان غفا من أحلام القلب والروح فينطلق في النشيد.

وكذلك كان شـــعراء العرب: كانوا يهيمون بالرياض الحالية، أو الديار العافية، أو المياه الجارية، قبل أن يشـــرعوا في نظم القصـــائد. فإذا أخذوا في النظم بدءوا بالجوانب الدقيقة من ذوات أنفسـهم وقلوبهم ليواجهوا الأغراض المنشـودة وهم في فورة من طغيان العواطف وعنفوان الأحاسيس.

ألا يشـهد ذلك بأن شعراء العرب كانوا يدركون قيمة الطبيعة في إذكاء الأرواح وإرهاف القلوب؟.

وهل فكر أحمد أمين في شيء من ذلك؟

هل خطر في باله أن شـــعراء العرب في الأعصـــر الخالية كانوا تعلقوا أشـــد التعلق بالسياحات والرحلات حتى صار من النادر أن يقر شاعر في بلده إلى أن يموت؟.

قد يقال إن ذلك كان سعياً في طلب الرزق

ونجيب بأن الشـعراء كانت لهم غايات أعظم من طلب الرزق، فقد كانوا يسـتأنسـون بالبلاد والبحار والأنهار والجبال حتى ليمكن القول بأن دواوينهم في بعض مناحيها تشـــبه الخرائط الجغرافية. وهل نسيتم قصيدة المتنبي في شعب بوان؟ هل نسيتم قصيدة البحتري في إيوان كسرى؟ هل نسيتم قصائد الأندلسيين في أهرام مصر؟ هل نسيتم قصائد الشريف الرضي في أطلال الحيرة؟ هل نسيتم قصيدة الأنطاكي في ليالي الجزيرة والنيل؟ هل نسيتم ألوف القصائد التي سجلت أهواء الشعراء في الحنين إلى معاهد الأنس والوصال؟.

لقد هجر ابن زريق وطنه في طلب الرزق، فهل عرفتم كيف اكتوى بالتشـــوق إليه يوم مات؟.

إن الذي يحكم بأن شعراء العرب لم يحسوا الطبيعة ولم يتغنوا بأفانين الوجود لا يكون إلا رجلاً حرمه الله نعمة الفهم العميق لأسرار الشعر والبيان.

لقد أراد الأستاذ أحمد أمين أن يحكم بأن الشعراء في العصر الأموي والعباسي قلدوا شعراء الجاهلية في وصف الرسوم والطلول.

فهل نستطيع أن ندله على أن هيام أولئك الشعراء بوصف الرسوم الهوامد، والطلول العافية، ليس إلا تعلقاً بالطبيعة في جانبها الباكي الحزين؟.

إن صديقنا أحمد أمين لم يفهم كيف وقف أبو نواس على الطلول، بعد أن سخر ممن يقفون على الطلول وهو يرى ذلك رجعة إلى التقاليد الجاهلية. فهل يظن أن الطلول كانت انقرضت لعهد أبي نواس ولم يبق إلا العمران الباقي على الزمان؟.

فما رأيه إذا حدثته بأن صور الطلول لا تزال باقية إلى اليوم!

أشهد صادقاً أني ما مررت بشارع الرملة في مصر الجديدة إلا خفق القلب لرسم كان لي فيه صديق أضاعه القلم الجموح.

أشهد صادقاً أني أتلفت من حين إلى حين وأنا أخترق شوارع مصر الجديدة عساني أرى الصديق الذي كنت أسايره لحظات أو ساعات ونحن نتعقب بالنقد اللاذع أحوال الدنيا والناس.

فكيف يكون حالي لو نظمت قصيدة في التوجع لتلك الدار التي صارت رسماً بعد أن صنعت في تجريح صاحبها ما صنعت؟.

وهل يمكن القول بأن ابن المعتز كان يقلد شعراء الجاهلية حين قال:

لا مثل منزلة الدويرة منزلٌ ... يا دار جادك وابل وسقاكِ

بؤساً لدهر غيرتكِ صروفه ... لم يمح من قلبي الهوى ومحاك

لم يحل للعينين بعدك منظرٌ ... ذُمّ المنازل كلهن سواك

أي المعاهد منك أندب طيبهُ ... ممساك بالآصال أم مغداك

أم برد ظلك ذي الغصون وذي الجنى ... أم أرضك الميثاء أم رياكِ

وكأنما سُعطت مجامر عنبر ... أو فُتّ فار المسك فوق ثراك

وكأنما حصباء أرضك جوهرٌ		وكأن ماء الورد دمع نداك

وكأن درعاً مفرغاً من فضة		ماء الغدير جرت عليه صباكِ

وقد ترجمت هذه الأبيات إلى الفرنسية في النسخة الفرنسية من كتاب النثر الفني فعدّها الفرنسيون من أصدق ما تحدثت به القلوب فهل يرى صديقنا أحمد أمين أن هذه القصيدة لا تمثل إحساس الشعراء بالوجود؟.

وهل يمكن الشك في قول ابن سنان الخفاجي:

ولما وقفنا بالديار وعندنا		مدامع نسديها لكم ونثيرها

شكونا إليها ما لقينا من الضنى		فعرفَّنا كيف السقام دثورها

وقد درست إلا أمارة ذاكر		تلوح له بعد التمادي سطورها

خليليّ قد عمَّ الأسى وتقاسمت		فنون البلى عشاق ليلى ودورها

فلا دار إلا دمنة ورسومها		ولا نفس إلا لوعةٌ وزفيرها

لعمر الليالي ما حمدت قديمها		فيوحشني ذهابها ومرورها

وقالوا عطاء الدهر يبلى جديده		ومن لي بدنيا لا يزول سرورها

فهذا شاعر لا يكتفي بأن يقول إنه يحسّ الطبيعة، وإنما يؤكد أن الطبيعة توجعت لمن يهواه، وذلك غاية الغايات في الإحساس بالوجود.

وكذلك صنع الشاعر الذي قال:

تعفو المنازل إن نأوا		عنها وتغبرّ البلادُ

والحيُّ أولى بالبلى		شوقاً إذا بلى الجمادُ

فمن الذي يستطيع أن يحكم بعد هذه الشواهد بأن شعراء العرب لم يحسوا معاني الوجود؟ ومن الذي ينكر صدق اللوعة على ابن الخياط إذ يقول:

وقفت أداري الوجد خوف مدامع ... تبيح من السر الممنَّع ما أحمي

أغالب بالشك اليقين صبابةً ... وأدفع من صدر الحقيقة بالوهم

فلما أبي إلا البكاء لِيَ الأسى ... بكيتُ فما أبقيتُ للرسم من رسم

كأني بأجزاع النقيبة مُسْلمُ ... إلى ثائر لا يعرف الصفح عن جُرم

لقد وجدت وجدي الديار بأهلها ... ولو لم تجد وجدي لما سقمت سقمي

عليهنّ وسمٌ للفراق وإنما ... عليّ له ما ليس للنار من وسم

وكم قسمَّ البين الضنى بين منزل ... وبيني ولكن الهوى جائر القسم

منازلُ أدراسٌ شجاني نحولها ... فهلاّ شجاها ناحل القلب والجسم؟

فما رأي الأستاذ أحمد أمين في هذا الشعر النفيس؟ وهل خطر في باله أن شعراء العرب لهم أمثال هذه المعاني؟.

أنا أخاطب رجلاً من أساتذة كلية الآداب، ولولا ذلك لشرحت ما في هذه القصيدة من شواهد الإحساس بقدرة الطبيعة على تذوق البؤس والنعيم.

وهل اتفق لشاعر في شرق أو في غرب أن يصل إلى قول بعض الأعراب في توديع نجد:

أقول لصاحبي والعيس تهوى ... بنا بين المنيفة فالضمار

تمتع من شميم عَرار نجدٍ ... فما بعد العشية من عرار

ألا يا حبذا نفحات نجد وريّا روضه بعد القطار

وأهلك إذ يحل الحي نجداً وأنت على زمانك غير زار

شهورٌ ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سِرار

ولكن الأستاذ أحمد أمين قد يتهمنا بالتعصب للأدب العربي ويقول إننا ننظر إليه بعين المحب، فهل يستطيع أن يدلنا على شاعر أوربي توجع لفراق النعيم في وطنه مثل هذا التوجع؟.

إن العرب لم يسودوا من باب المصادفات، وإنما سادوا لأن لهم عبقرية ذاتية قضت بأن يسيطروا على العالم زمناً غير قليل.

وقد دالت دولة العرب أكثر من عشرة قرون، ومع ذلك بقيت سلطتهم الأدبية والروحية. فهم سادة لمئات من الملايين وإن لم يبق لهم عرش ولا تاج.

وقد تحذلق المتحذلقون فقالوا إن الفقه الإسلامي صورة من الفقه الروماني، فهل هذا صحيح يا بني آدم من أدعياء العلم بأصول الشرائع؟.

إن العرب سادوا بحق، وقد تركوا ثروة أدبية وفلسفية وتشريعية لا يغض من قدرها إلا حاقد أو جهول.

فمتى نرجع إلى أنفسنا لنبحث عن الميراث النبيل الذي ورثناه عن أسلافنا النبلاء؟

لقد سمعتم وسمعنا كيف بغى الأسبانيون بعضهم على بعض، وكيف فصل في تلك المعارك الدامية بعد نحو ثلاث سنين.

فهل تذكرون أن أسلافنا صبروا على المعارك الأسبانية نحو ثمانية قرون؟

وهل كان ذلك إلا لأنهم شعروا بأن الأندلس قطعةٌ من أرواحهم وقلوبهم؟ فكيف تحكمون بأنهم لم يحسُّوا الطبيعة ولم يتشبثوا بالوجود؟.

إن العرب في أغلب أحوالهم عاشوا عيشة جافية قضت عليهم بأن يتلمسوا مساقط الغيث، فكيف يقال إنهم لم يحسُّوا الطبيعة إلا بطريق سطحية؟.

أكتب هذا وأنا أعرف أن الأستاذ أحمد أمين سيهزّ كتفيه ويقول: (هذه خطابيات يراد بها اكتساب عواطف الجمهور!).

إن قال ذلك فسأحيله على تاريخ يحيى بن طالب

فهل يعرف من هو يحيى بن طالب؟

وكيف يجهله وهو يتصدر لتدريس الأدب العربي بكلية الآداب؟

إن يحيى بن طالب أحس الطبيعة وأحس الوجود إحساساً نادر المثال، وهو وحده كاف للزكاة عن الأدب العربي، وقد اتهمه من لم يعرفوه بأنه خالٍ من وصف مظاهر الطبيعة وأشكال الوجود.

فهل ننتظر أن يظفر هذا الشاعر بفصل نفيس من (فصول) أحمد أمين؟

لو كان صديقنا العزيز أحمد أمين قد اطلع على الأدب العربي لتذكر نخلتي حلوان في شعر مطيع بن إياس، وكان لهما في حياة الخلفاء أحاديث يذكرها بالدمع من قرأ معجم البلدان. ولكن أين أحمد أمين من هذه الشؤون وهو مفتون بالحذلقة والأغراب؟.

إن أحمد أمين لا يجني على الأدب العربي، وإنما يجني على نفسه حين يزعم أن التشبيهات ليست إلا ألاعيب.

ولو كان من أهل الخبرة بدقائق الأشياء لعرف أن التشبيهات من أصدق الشواهد على تعلق العرب بالطبيعة وبالوجود.

ولن أشرح له هذا المعنى إلا يوم يعرف أن من واجب المرء أن يطلب العلم من المهد إلى اللحد. وقد تلوح فرصة قريبة فأشرح هذا المعنى لمن يهمهم أن يعرفوا كيف تغيب حقائق الأدب عن هذا (الأديب) وهل نكتم ما نعرف مكايدةً للصديق أحمد أمين؟.

لقد استطعنا بحول الله وقوته أن نبدد الشبهات التي أثارها حول الأدب العربي من يجهلونه كل الجهل أو بعض الجهل.

فلنأخذ بعد ذلك في رفع التهمة عن الأدب الأندلسي ليعرف من لم يكن يعرف أنه خليق بأن ينصب له كرسي خاص في كلية الآداب.

والأمل كبير في أن يغفر الأستاذ أحمد أمين جنايتنا عليه حين أفهمناه أن في مصر ناساً يقرءون ويحكمون.

فإن كان قد استمرأ العافية من سكوت النقاد بضع سنين فليعرف أن ذلك حلم تبدد، ونعيم ضاع، وعليه أن يستقبل المكاره بعزائم الرجال.

والله وحده يعلم أني لم أُرد بهذا النقد غير وجه الحق، ومنه وحده أنتظر حسن الجزاء

- ٩ -

كتب إلينا أحد القراء يرجونا أن نترك السخرية من الأستاذ أحمد أمين ونكتفي في الرد بشرح ما خفي عليه من الحقائق الأدبية، ويستكثر أن نقول في السخرية من هذا الصديق:

(إن الأستاذ أحمد أمين لن يفهم الفروق بين دقائق المعاني إلا يوم يعرف أن الأدب لا يكال بمكيال).

ولكن ما الذي نصنع والأستاذ أحمد أمين هو نفسه الذي يثير غضبنا عليه؟

ألم يحكم بأن الشعر العربي في جميع عصوره تشابه بحيث لا يمكن تمييز شاعر من شاعر إلا بعد قراءة ترجمته؟ (ولو تأمل لعرف أن أشعار الشعراء أدل على أصحابها من الترجمات). وهل يقع هذا الحكم من رجل إلا وهو يعتقد أن الأدب يكال بمكيال؟.

إنكم نسيتم أن أحمد أمين أستاذ بكلية الآداب، وهي في الصدر بين معاهدنا العالية، وأساتذة كلية الآداب لا يجوز عليهم الظن بأن الشعر العربي تشابه في مختلف عصوره وأقطاره تشابهاً يقضى بألا نستطيع التمييز بين ديوان إلا بعد مراجعة تراجم الشعراء.

وعند من نرجو تمييز العصور بعضها من بعض إذا خفي ذلك على أساتذة كلية الآداب؟.

وقد حدثتكم من قبل أن حكم الأستاذ أحمد أمين في هذه القضية محال في محال، فما يجوز أبداً أن يخفى على الناقد أن هناك فروقاً كثيرة جداً بين العصور الأدبية؛ ولو شئت لقلت إن الشاعرين قد يعيشان في عصر واحد، ومع ذلك يختلفان اشد الاختلاف في طرائق التعبير وفي عرض المعاني. وهل يتشابه شعر مسلم بن الوليد وشعر أبي نواس وهما متعاصران؟ هل يتشابه شعر أبي العتاهية وشعر العباس بن الأحنف وقد نشئا في عصر واحد؟ هل يتشابه شعر أبي تمام وشعر البحتري وهما من عصر واحد ومن قبيلة واحدة؟ وهل يتشابه شعر الرضى وشعر مهيار وهما متعاصران وكان بينهما من الصلات ما بين الأستاذ والتلميذ؟.

ومنذ عشرين سنة كان في مصر ثلاثة من الشعراء قد ائتلفوا في المشارب والأذواق اشد الائتلاف حتى صح لبعض النقاد أن يسميهم (الثالوث) وهم إبراهيم المازني وعباس العقاد وعبد الرحمن شكري، وكانوا قد كوّنوا جبهة أدبية لنشر لواء الأدب الحديث، فهل يصح لناقد أن يتوهم أن هؤلاء الشعراء الثلاثة تشابهوا في الأغراض وفي تأدية المعاني؟.

وكان حافظ وشـــوقي وصـــبري ومطران وعبد المطلب متعاصـــرين فهل تشـــابهوا في الخصائص الشعرية؟.

وما يقال في الشـعر يقال في النثر، فما يجوز لناقد أن يتوهم أن الصـاحب وابن العميد والتوحيدي يكتبون بأسلوب واحد مع أنهم متعاصرون.

وما يجوز أن يقال إن المويلحي الصغير يشابه المويلحي الكبير في ألفاظه ومعانيه مع أن الأول ابنٌ للثاني وعنه اخذ، وبأدبه تثقف، وأفاد من صحبته ورعايته ما أفاد.

وكان علي يوسف ومحمد عبده وفتحي زغلول ومصطفى كامل متعاصرين، فهل يمكن القول بأنهم متشابهون في الخصائص النثرية؟.

وكان محمد الخضري ومحمد المهدي قد تخرجا في معهد واحد وصارا في التدريس زميلين في مدرســة القضــاء الشــرعي وفي الجامعة المصــرية، أفيجوز أن يقال إنهما في التدريس وفي الإنشاء متماثلان؟.

وفي عصرنا كاتبان يحتفلان بالأسلوب اشد الاحتفال وهما: البشرى والزيات، فهل هما متشـابهان؟ وقد تأثر عباس حافظ بالسـباعي فهل هو صـورة من السـباعي؟ هيهات، فلكل منهما أسلوب خاص.

والأمر كذلك في سـائر الفنون: فقد كان محمد عبد الوهاب من تلاميذ سـيد درويش، وهما مع ذلك متباعدان اشد التباعد في الاتجاهات الموسيقية والغنائية.

فكيف جاز للأسـتاذ أحمد أمين أن يحكم بأن شـعراء العرب على اختلاف عصـورهم وأقطارهم قد تشـــابهوا بحيث لا يمكن تمييز بعضـــهم من بعض إلا بعد الاطلاع على كتب التراجم؟.

إن هذا لا يقع إلا من ناقد يتوهم أن الأدب يكال بمكيال ولو كان أســـتاذا في كلية الآداب.

لو كان أحمد أمين قد عكف على دراســـة الأدب منذ فجر حياته العلمية لعرف أن الناقد البصير يدرك جيداً أن الشاعر الواحد له في حياته الشعرية أساليب مختلفات.

ألم تســمعوا أن ديوان ابن الفارض يشــتمل على فنون من التعابير ومن الأغراض بحيث يصح أن يقال هذا شعر الكهولة وذاك شعر الشباب؟.

ألم تسمعوا أن بغداد نقلت شعر ابن الجهم من حال إلى أحوال؟

ألم تسمعوا أن أشعار المتنبي في مصر لها ألوان تخالف ألوان شعره في الشام والعراق؟

إن صديقنا أحمد أمين يتوهم أن وحدة القوافي والأوزان توجب وحدة المعاني والأغراض، فهو لذلك يعتقد أن ديوان ابن خفاجة صورة من ديوان ابن زيدون، ويؤمن بأن شعراء مصر لم يكونوا إلا صورة من شعراء العراق.

ومثله في ذلك مثل من يظن أن الناس خلقوا جميعاً على طراز واحد لأنهم جميعاً لهم وجوه فيها أنوف وجباه وأفواه وعيون، وآذان. وهذا والله حق: فكل إنسان له عينان وشفتان وأذنان، وهو يمشي على اثنتين لا على أربع، ولكن هل يمكن القول بأن بنى آدم مع هذا التشابه خلقوا على طراز واحد؟.

كيف يجوز هذا القول والتوأمان قد يختلفان اختلافاً بيناً في معارف الوجوه وفي خصائص الذاتية وفي فهم الأشياء؟.

ما كنت أظن أني سأجتاح إلى توضيح الواضحات في الرد على الأستاذ أحمد أمين، ولكنه قهرني على سلوك هذا المسلك الشائك لأدفع أوهامه عن أذهان القراء وفيهم من يظن أنه أبعد نظراً من حزام حين يقول في أدب المعدة وأدب الروح ما يقول.

المهم أن يعرف القراء أننا لا نتجنى على الأستاذ أحمد أمين، وإنما نريد أن يفهموا أن للحقائق الأدبية وجوهاً مختلفة يدركها حق الإدراك من ينظر إليها نظر الفهم والاستقراء. أما الذين يواجهون الأدب بلا تأمل ولا تثبت فقد يخفى عليهم الدقائق الفنية ولا يظهر لأعينهم غير ما يحبون أن يدنوه من الهنوات ليقال إنهم مصلحون لا يهمهم غير التنبيه على العيوب.

وما نقول بأن الأدب العربي كان في جميع أطواره منزها عن الضعف، وإنما ننكر أن ينظر الرجل إلى الأدب العربي نظرة الاستخفاف ليهون من شأنه بلا بينة ولا برهان.

وفي أي عصر يستبيح بعض الناس هذه الألاعيب؟

في العصر الذي يريد فيه العرب أن يستوثقوا من أن لهم ذاتية أدبية ليقاوموا طغيان الآداب الأجنبية، وليقيموا مجدهم الأدبي على أصول ثوابت من عظمة أسلافهم في التاريخ.

ولو أن الكلام الذي قاله الأستاذ أحمد أمين وقع من رجل غيره لقلنا انه يشايع أعداء العروبة والإسلام، ولكن الأستاذ أحمد أمين بالتأكيد سليم الضمير من هذه الناحية، فهو لم

يخطئ عن عمد، معاذ الله، وإنما أخطأ عن جهل، فكان تنبيهه من أوجب الواجبات. ولعله يراجع نفسه فيعرف أننا لم نقدّم إليه غير الجميل.

وهل نحتاج إلى إقامة الدليل على حسن النية فيما صنعنا مع هذا الصديق؟

لقد كان ناس يتوهمون أننا حاربنا الدكتور طه حسين لأغراض شخصية، وكان الدكتور طه يلوذ بظل هذا التوهم فلم ينبر للرد علينا غير ثلاث مرات، أو أربع مرات، بأسلوب واضح صريح؛ ثم شاء له الحذر والاحتراس أن يوهم قراءه وسامعيه بأننا نحاربه لغرض خاص وأنه يرى من العقل ألاَّ يقدم الوقود للأغراض الشخصية. ثم دارت الأيام واعترف الدكتور طه علانية أمام جمهور من أقطاب الرجال بأن زكي مبارك من أصحاب العقائد في حياته الأدبية ويجب أن ينظر المنصف إلى مصاولاته في النقد الأدبي بعين الرفق والعطف.

فكيف جاز للأستاذ أحمد أمين أن يهرب من الرد علينا بحجة أننا نشتمه ونؤذيه بلا سبب معقول، ثم يكتفي بأن يوجه إلينا أبياتاً فيها لوثة جاهلية لا تصدر عن رجل في مثل آدابه العالية، وهو يعرف في سريرة قلبه أننا أصدقاء منذ عهد بعيد، ويعرف أني احفظ له من الود ما لا يحفظه إلا الأقلون؟.

وكيف جاز له أن يظن أني تآمرت مع صاحب (الرسالة) عليه، مع أن مقالاتي في الرسالة قد تنتهي بخصومة بيني وبين الزيات، لان الزيات سامحه الله قد حذف من مقالاتي فقرات كثيرة رعاية لصديقه العزيز أحمد أمين؟.

أتريدون الحق أيها القراء؟

الحق أني أعيش في غربة موحشة بين إخوان هذا الزمان فالأستاذ أحمد أمين كان ينتظر أن أمتشق قلمي لتزكية أحكامه الخواطئ على الأدب العربي، والأستاذ الزيات كان ينتظر أن أرد على أحمد أمين بأسلوب رقيق شفاف يحاكي نسائم الأصائل والعشيات على ضفاف النيل!.

فكيف غاب عن هذين الصديقين أني رجل له غضبات؟

كيف غاب عن هذين الصديقين أن الأدب العربي وصل إلى دمي وروحي وأني أزدري من يستهينون به أشد الازدراء؟.

إن الأدب العربي هو الصورة الناطقة من ماضي الأمة العربية وهو في الواقع أدب أصيل لا يستهين به إلا حاقد أو جهول، وهو كذلك صورة من العِرض المصون في عهود التاريخ، فكيف يجوز أن نسامح من يفترون عليه أقبح الافتراء ولو كانوا من كرام الأصدقاء؟.

الله يشهد أني متوجع لما صنعت بالأستاذ أحمد أمين، وهو رجل له ماضٍ في خدمة الدراسات الإسلامية، وله مواقف في مؤازرتي سأذكرها وإن طال الزمان؛ ولكنه في الأعوام الأخيرة أصيب بمرض عضال هو السخرية من ماضي الأمة العربية، وأُغرم بضرب من الحذلقة لا يقره عليه غير الأصحاب المتلطفين الذين لا يهمهم غير الاقتراب من روحه اللطيف!.

والأدب القديم الذي يتنكر له أحمد أمين هو نفسه الأدب الذي لم يستنصر بغيره حين جاز له أن يشتمنا وهو ظلوم.

الأدب القديم يقول: (أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك) فإن توجع هذا الصديق مما أسلفنا في الهجوم عليه فمن واجبه أن يذكر أننا أدينا لمصر خدمة عظيمة حين واجهناه بالملام، فقد كان من المنتظر أن يشرب الكأس المرة من النقاد في الشام ولبنان والحجاز والعراق واليمن وتونس والجزائر ومراكش، وما إلى هؤلاء من الأقطار التي تساير الآداب العربية.

قد يقول قائل: وما معنى هذا الكلام؟ أيكون معناه أني أشفق على الأستاذ أحمد أمين بعد أن أصليته نار العذاب؟.

هو ذلك، فما كان أحمد أمين إلا نباتاً مصرياً وإن عرّض مصر لأشنع ضروب المهلكات.

أحمد أمين رجل فاضل وإن تردى في هاوية العماية والجهل حين حكم بأن أدباء العرب كانوا أصحاب معدات لا أصحاب أرواح.

وما كان لي أن أطيل في شرح هذه المعاني لولا أن عرفت أن رجالا لهم أقدار عالية دعوني إلى مسالمة هذا الصديق.

فليعرفوا – غير مأمورين – أني لا أهجم عليه إلا ابتغاء وجه الحق، ولن أتركه في أمان حتى يعرف أن الأدب العربي أقوى وأعظم من أن يتعرض له باحث بسخرية واستخفاف، وسوف يرى عواقب ما يصنع إن تغطرس واستطال.

أما بعد فقد كان موضوع هذا المقال هو النص على خطأ هذا الصديق في السخرية من الأدب الأندلسي.

فهل اتفق لهذا الصديق أن يدرس أدب العرب في الأندلس؟

إني لا أزال أذكر كيف أحرجني تلاميذي بدار المعلمين العالية في بغداد، فقد حدثتهم مرة عن قيمة أحمد أمين فانبرى أحدهم يقول: إن أحمد أمين من ذيول المستشرقين. فقلت: وكيف كان ذلك؟ فقدموا إليَّ مقدمة الجزء الثالث من كتاب ضحى الإسلام وفيها يصرح المؤلف بأن تصميم الكتاب كان يوجب أن يكون له جزء رابع خاص بالأندلس، ولكن أحد المستشرقين نبهه إلى أن الأندلس في ذلك العهد لم تكن فيه حياة عقلية تستوجب أن يفرد لها جزء من كتاب، فانصرف عن تأليف ذلك الجزء المنشود!.

وفي مساء ذلك اليوم كان عندنا العشماوي بك والدمرداش محمد، ودار الحديث حول المؤلفين المصريين فانبرى الأستاذ الدمرداش يثني على الأستاذ أحمد أمين فقلت: ولكن أحمد أمين صرح في مقدمة الجزء الثالث من ضحى الإسلام بكيت وكيت، فقال: هذا مستحيل، هذا مستحيل. ولولا حضور العشماوي بك لثارت معركة بيني وبين الأستاذ الدمرداش!.

والحق كل الحق أن الأستاذ أحمد أمين لا يعرف الأندلس إلا معرفة سطحية. وآية ذلك أن الأدب الأندلسي لم يدرس في كلية الآداب منذ عشر سنين.

فهل نستطيع مرة ثانية أن نتلطف فندعو الأستاذ شفيق غربال إلى إنشاء كرسي للأدب الأندلسي في كلية الآداب؟.

قد يعتذر العميد الجديد بأن الدكتور طه حسين صرح مرة بأنه لا يجوز لأستاذ أن يتصدر لتدريس الأدب الأندلسي وهو لم يطلع على غير كتاب نفح الطيب.

ولكني أؤكد للأستاذ شفيق غربال بأن مصر لا تخلو من رجال درسوا الأندلس في المصادر العربية والمصادر الأجنبية، ولهم قدرة على تجلية ذلك الأدب بأسلوب رائع جذاب، وهو خليق بأن ينتفع بمواهبهم حين يشاء.

وبأي حق تكون كلية الآداب أعظم معهد أدبي في الشرق إذا عز عليها أن تحيط بتاريخ العرب في الأندلس من نواحيه الأدبية والفلسفية والتشريعية؟.

وكيف يجوز أن يعجز علماء مصر عما قدر علية علماء الفرنسيين والإنجليز والأسبان؟

إن مصـر هي بلا جدال أعظم الأمم الإسـلامية والعربية في الشـرق. فكيف تعجز عن درس تاريخ العرب والمسلمين في الغرب؟ وكيف يصح لأبنائها أن يكونوا عالة على المستشرقين في الشـؤون العربية والإسـلامية حتى يجوز لأحد أسـاتذة كلية الآداب ألا يتقدم في أبحاثه أو يتأخر إلا بعد أن يظفر من المستشرقين بإذن خاص؟.

قد تقولون: وهل انحصرت التبعات العربية في كلية الآداب؟

وأجيب بأن كلية الآداب تأخذ من أموال الدولة أعظم مما تأخذ سائر المعاهد المشغولة بالدراسات الأدبية والفلسفية، فهي مسئولة عن درس فتوحات العرب والمسلمين في المشرق والمغرب، وإليها المرجع في توجيه الشبان إلى فهم ماضيهم المجيد في خدمة الحضارة والمدنية، وإقناعهم بأن أسلافهم سادوا العالم بضعة قرون، ولذلك تأثير كبير في خلق الجيل الجديد.

فهل يعترف بذلك صديقنا أحمد أمين؟

وهل تعترف به الجامعة المصرية؟

لقد قضيتَ نحو خمسة عشر عاماً وأنا أدعو إلى تدريس العلوم باللغة العربية في كليات الجامعة المصـرية، فكان المتخلفون من أسـاتذة العلوم يعتلون بأن اللغة العربية تعوزها المصطلحات في كثير من الشئون، وظلوا على تهاونهم إلى أن كتب معالي الدكتور هيكل باشا إلى سعادة مدير الجامعة يقول: إنه لا يفهم كيف تعجز اللغة العربية عن تأدية المعاني العلمية. وكانت تلك الإشـارة كافية لأن يعرف أسـاتذة الكليات أن تدريس العلوم باللغة العربية ليس بالمستحيل، وكانوا يرونه قبل ذلك أبعد من المستحيل!.

لقد قضت الجامعة المصرية أعواماً طوالاً وهي تدرس العلوم باللغات الأجنبية، ولم تعرف وجه الحق في إعزاز اللغة القومية إلا بعد أن ينبهها وزير المعارف، أثابه الله وجزاه خير الجزاء!.

فهل يعلم الذين قاوموا هذه الفكرة من قبل أن الجامعة العبرية بالقدس تدرس جميع العلوم باللغة العبرية مع أن لغة بني إسـرائيل ليس لها ماض في خدمة العلوم، ومع أن النوابغ من اليهود كانوا يعبرون عن أغراضـهم بلغات أجنبية، ولم يفكروا يوماً في خلق عصـبية للغة العبرية قبل فكرة الصهيونية؟.

اللغة العبرية تصلح لتدريس جميع العلوم وهي في فقر مُدقع؛ أما اللغة العربية فتعجز عن تدريس العلوم مع أنها كانت لغة دولية في مدة دامت نحو خمسة قرون، ومع أنها استطاعت أن تحفظ الذخائر مما خلّف الفرس واليونان!.

صلحت اللغة العبرية لتدريس جميع العلوم لأن اليهود أرادوا أن يخلقوا لأنفسهم ذاتية قومية، وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد أما اللغة التي يتكلمها أقوام يشارفون مائة مليون والتي أمدت بحيويتها كثيرا من اللغات الشرقية، والتي تنزل في أنفس الملايين منزلة التقديس، والتي تحتل أقطاراً حملت أعباء المدنية في مختلف عهود التاريخ، والتي خُدِمتْ خدمة لم تظهر بمثلها لغة من لغات الغرب، والتي عجز الدهر عن تبديد ما تملك من ذخائر ونفائس، والتي سخّر الله لخدمتها مئات من الأجانب في الجامعات الأوربية والأمريكية.

هذه اللغة الفنية – لغة العرب – هي اللغة التي يقال إنها تعجز عن تأدية الأغراض العلمية، بفضل حذلقة السادة الأفاضل الذين يرون في تجريحها بابا من الشهرة والنباهة وبعد الصيت!.

وأعيذ القارئ من الاستهانة بقيمة هذا الاستطراد: فهو متصل بدفع سخرية أحمد أمين من الأدب العربي، وإنما عبنا عليه تلك السخرية لأنها من الشواهد على أنه غير موصول الأواصر بذلك الأدب الرفيع. فلو أن أحمد أمين كان تذوق أدب العرب لأصبح مجنون ليلاه، ولكنه مر به مرور العابرين من أبناء السبيل، وقديماً قال الحكماء: (من جهل شيئا عاداه).

وهنا شبهة يجب تبديدها لينتهي أحمد أمين. فهذا الرجل يرد علينا قائلا: إن الأدب يخدم بالنقد أكثر مما يخدم بالتقريظ. وهذا حق، ولكن هل يدرك المراد من النقد؟.

النقد هو في الأصل تمييز الزائف من الصحيح فيدخل فيه اللوم ويدخل فيه الثناء، ولكن أحمد أمين يتوهم أن النقد مقصور على التجريح، ويرى الكلمة الطيبة بابا من التقريظ، وهو عنده معيب. ونحن نقول بلا تردد إن الأدب العربي أدب أصيل والزائف منه لا يقام له وزن بجانب الصحيح، فكيف انحرف بصره عن المحاسن ولم يشهد غير العيوب؟.

وهل في الأدب حُسنٌ وقبح؟

الأدب جِدُّه جِدٌّ وهزله جُد، ولا يعاب عليه إلا ما غلب عليه التكلف والافتعال، كالذي يقع من بعض الناس حين ينشئون مقالات لم تخفق لها قلوبهم، وإنما ينشئونها ليقال

إنهم خالفوا الجمهور في كيت وكيت، أو ليجعلوها وسـيلة لاجتلاب مقالات الكتاب بالمجان لتخفيف أعباءهم في تحرير الجرائد والمجلات.

ماذا أريد أن أقول؟

إن الترفق بالأستاذ أحمد أمين يصرفني عن كلمة الحق.

ولو رزقني الله الشـــجاعة لقلت إن هذا الرجل يتجنى على الأدب العربي لأنه لم يعرفه معرفة صحيحة، ولو قد عرفه حق معرفته لأدرك أنه خليق بأن تبذل في سبيله نفائس الأعمار من أحرار الرجال.

ولو أن أحمد أمين كان تذوق الأدب العربي لأيقن أنه خليق بأن يتعصـب له الباحثون، ففي هذا الأدب نفائس تغفر له جميع الذنوب.

ما رأي أحمد أمين في كتاب (لسـان العرب)؟ وما رأيه في كتاب (الأغاني)؟ وما رأيه في كتاب (نفح الطيب)؟ وما رأيه في كتاب (عيون الأخبار)؟ وما رأيه في كتاب (إحياء علوم الدين)؟.

إن كتابا واحدا من هذه الكتب كاف لأن ينتهب حياة طيبة مثل حياة أحمد أمين، وهو خليق بأن يرفع رأس العرب بين سائر الممالك والشعوب.

وما رأي أحمد أمين في (ألفية أبن مالك) وهي من المنظومات النحوية والصرفية؟

هل خطر بباله أن هذه المنظومة شغلت مئات من العلماء؟

وهل مرّ في خاطره أنها تُرجمت إلى التركية منذ أمد بعيد؟

وهل يعرف كيف تترجم مثل هذه المنظومة إلى اللغة التركية؟

وهل يعرف من الذي قرظ ترجمتها من علماء الأزهر الشريف؟

إن هذا الصديق كان يتوهم أن مصر خلت من المتبحِّرين في الدراسات الأدبية واللغوية، وكان ينتظر أن يشطح وينطح بلا رقيب ولا حسيب.

وما كان يهمني أن أصـــحح ما وقع فيه من أغلاط لو لم يكن أســتاذاً بكلية الآداب، فتلك الكلية هي أول معهد فرضـــته الأمة على الحكومة ورفعت قواعده بما تملك من أموال وقلوب.

وما أنكر أن أحمد أمين رن صـــوته في كلية الآداب وقد زاملته فيها نحو أربع ســـنين، ولكن يعزّ عليّ أن أراه يحبط أعماله بمقالات فطيرة لم تكن ثمرةً لســـهر الليل وإقذاء العيون تحت أضــواء المصــابيح، وإنما كانت ثمرة لنزوة وقتية أراد بها أن يخلق حركة في بعض المجلات، والمجد كالرزق بعضه حرام وبعضه حلال.

أنا أريد أن أعرف كيف جاز للأستاذ أحمد أمين أن يحكم بأن أدباء الأندلس لم يحسُّوا الطبيعة، ولذلك حساب سيراه في المقالات الآتية؛ ولكن أرجوه قبل أن أشرع في هذا البحث أن يدلني على مراده من التهديد الذي خصني به في مجلة الثقافة الغراء!.

وإنما أهمني ذلك لأني أحب أن أعرف مصيري بعد أن استبحتُ ما استبحتُ من الحرية في النقد الأدبي.

إن الشاعر الذي أستنجد به أحمد أمين يقول:

فقـل لزهير إن شـــتمـت ســـراتنـا فلســـنـا بشـــتـامين للمتشـــتِّم

ولا بأس، فأحمد أمين لا يجازى على الشتم بالشتم، إن صح أننا شتمناه.

ثم يقول ذلك الشاعر الذي استنصر به أحمد أمين:

ولـكـنـنـا نأبى الـظِّلام ونـعـتصـــي بـكـل رقيق الشـــفرتين مصـــمـم

أعوذ بالله! فهل أخشى أن يلقاني أحمد أمين بسيف مصمم رقيق الشفرتين؟

وكيف وهو الذي هرب مني حين ذهبت أبحث عنه بمشارب الإسكندرية؟ وكيف يلقاني أحمد أمين بســيف رقيق الشــفرتين وهو الذي لم يســتطع ملاقاتي إلا بلســان معقول وقلم مفعول؟.

ثم يقول الشاعر الذي أستنصر به أحمد أمين:

وتجــهــل أيــديــنــا ويحــلــم رأيــنــا ونشـــتـم بالأفعـال لا بالـتـكـلـم

فهل أخشــى أن يرميني هذا الصــديق بالحجارة والطوب حين يلقاني في الإســكندرية أو في مصر الجديدة؟.

ليتني أقدر على الجهر بكلمة الحق! ليت ثم ليت!

فلو كنت شـجاعاً لقلت إن أحمد أمين لم يدرك المراد من تلك الأبيات الجاهلية. وكيف أشجُع وأنا مهدَّد بالحجارة والطوب من أحمد بن أمين الجاهلي؟!.

إن الأستاذ عبد الجواد رمضان يقول: إني لن أموت قريباً لأني من الأشرار، وهي تهمة لا أدفعها عن نفسي لأني أحب أن أعيش! أفي الحق أني شِرّير؟.

أنت يا ربي تعلم كيف خلقتني، وكيف سوّيتني رجلاً لا يغضب إلا في سبيل الحق، وقد شاء فريقٌ من عبادك أن يظلموني، فتجاوز عنهم واعف عني، فإنك أنت غفّار الذنوب.

ولك أن تنظر، يا صديقي أحمد أمين، فسترى في الأسبوع المقبل كيف ألقاك، وكيف أحوّلك إلى أديب يعرف كيف تكلم أدباء العرب في مصر والأندلس والشام والعراق.

وهداية رجل مثلك قد تكون كفارة عما اقترفت في حياتي من آثام وذنوب.

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين).

- ١٠ -

سنواجه الأدب الأندلسي في مقال اليوم، وهو الأدب الذي اتهمه الأستاذ أحمد أمين بالعجز عن تذوق الطبيعة، والإحساس بالوجود.

ولكن لا بد من كلمة قصيرة نبين بها بعض الخصائص التي امتاز بها الأدب العربي ليعرف أحمد أمين ومن لف لفه من المتحذلقين كيف تفرد ذلك الأدب بالصيغة العالمية بين سائر الآداب.

أسير الآداب في العصر الحاضر هو الأدب الفرنسي والأدب الإنجليزي والأدب الألماني، ولكن هذه الآداب على عظمتها لا تزال محصورة في العبقرية المحلية. ومعنى ذلك أن أقطاب الأدب الإنجليزي إنجليز، وأقطاب الأدب الفرنسي فرنسيس، وأقطاب الأدب الألماني ألمان.

والأدب الإنجليزي حين ازدهر في أمريكا لم يكن أقطابه هناك من السكان القدماء لبلاد الأمريكان، وإنما كان أقطابه من السلالات الإنجليزية التي احتلت تلك البلاد.

والفرنسيون لا يعترفون لأهل سويسرا وبلجيكا بالتفوق في الأدب الفرنسي، ويقولون أن أدبهم لا هو لحم ولا هو سمك، على حد تعبيرهم الطريف , مع استثناء أفراد قلائل رفعتهم العبقرية إلى التفوق في لغة هوجو وميسيه ولامرتين.

أما الأدب العربي فكان حظه من اغرب الحظوظ، لأنه تغلغل في كثير من البيئات الشرقية والغربية، وانتفع بعبقريات كثيرة في مختلف الأمم والشعوب، فكان فيه أقطاب بين ناس لم تكن لهم قبل الإسلام صلة بمهد اللغة العربية من ناحية الجنس أو الدين.

وعلى ذلك يمكن القول بان الأدب العربي هو الأدب المخضرم الذي انتفع بالأجواء المختلفة من طبائع البلاد وسرائر الرجال. وقد ظهرت عبقريته في لونين من ألوان التعبير: هما العلوم الشرعية والفنون الأدبية، وما يمكن لباحث منصف أن ينكر أن الفقه الإسلامي صورة من صور التعبير الدقيق، وهو من صميم الأدب عند من يعرفون أن شرح الشرائع فرع من الفروع الأدبية، وهو يمثل الشعور بما في المجتمع من معضلات ومشكلات خلقتها ظروف المعاش.

وذلك الفقه لم تختص به أرض دون أرض، فكان من أهل الهند وأهل فارس وأهل مصر وأهل المغرب والأندلس رجال تفوقوا في الدراسات الفقهية أشد التفوق، وأمدوا الأدب بصور كثيرة تمثل الاتجاهات الذوقية والمعاشية.

وما يقال في الفقه يقال في التوحيد والتفسير والحديث، فهناك ألوف من المصنفات الجيدة التي وعت ضروباً من الحقائق الأدبية والفلسفية لا يستهين بها رجل حصيف.

ولو توجهت همم الباحثين إلى شرح ما في تلك المصنفات من مقاصد وأغراض لأتوا بالعجب العجاب. وقد نبهني إلى ذلك المسيو مرسيه يوم كنت مشغولا بشرح الرسالة العذراء، فاستطعت أن أجد شواهد أدبية من كتب الفقه عند المالكية. وكذلك استطعت بإرشاد المسيو ماسينيون استخراج بعض المعاني الصوفية من المؤلفات الفقهية.

حيا الله أساتذتي في باريس، فبفضلهم عرفت من مذاهب البحث ما لم أعرف.

وإنما مهدت لمقال اليوم بهذه الكلمات ليعرف الأستاذ أحمد أمين كيف أخطأ حين توهم أن الأدب مقصور على قصائد الشعراء، فما كان الشعر إلا صورة من صور التعبير، وهو لتقييده بالقوافي والأوزان لا يستطيع التعبير عن جميع الأغراض.

وأنا مع ذلك سأقف عند الأدب الصرف الذي يمثله الشعر والنثر الفني وأنا أتحدث عن الأندلس.

فهل من الحق أن الأندلسيين لم يحسوا الطبيعة ولم يتذوقوها كما قال أحمد أمين؟

إن المعروف عند جميع أدباء اللغة العربية أن الأندلسيين تفوقوا في وصف الطبيعة، فكيف تفرد أحمد أمين بنكران ذلك؟.

أيكون أحمد أمين أعلم الناس بالأدب ولا نعرف؟ ذلك والله غاية العجب!

أيكون من طبع كلية الآداب أن تروض مدرسيها على اصطناع الحذلقة والأغراب؟

أغلب الظن أن أحمد أمين سمع أنه لم يأت بجديد منذ اتصل بكلية الآداب، والجديد عنده هو الخروج على ما اتفق عليه جمهور أهل الأدب في ميدان الحقائق الأدبية، فمضى يتكلف ويتعسف ليأتي بجديد يجعله في الطبيعة بين أساتذة كلية الآداب، فكان ذلك الجديد هو التجني على ماضي الأدب العربي حين زعم انه في اكثر أحواله أدب معدة لا أدب روح،

وأنه لا ينقد الحياة كما تصـــنع الآداب الإفرنجية، وأنه لم يصـــف الطبيعة ولم يتحدث عن المجتمع.

وقد فندنا هذه المزاعم فيما يخص مصر والشام والعراق.

وندفع اليوم ما وجهه أحمد أمين إلى الأدب الأندلســي وهو يرى أهله قصــروا ابشــع التقصير في تذوق الطبيعة وفي الإحساس بما تعرضوا له من الأحداث الاجتماعية.

ويجب أن يكون مفهوما قبل الشروع في التفاصيل أن الأدب الأندلسي تعرض للضياع منذ أجيال، فلو قلنا أن ذلك الأدب ضاع منه اكثر من تسعة أعشاره لما بعدنا عن الصواب، فقد عـانى ذلـك الأدب فتنة حمقـاء هي ثورة الأســبان على مخلفـات العرب في الأنـدلس وإصرارهم على تبديد ما ترك العرب والمسلمون من روائع الآداب والفنون.

وكان ما صـنع الأسـبان بآثار العرب في المغرب صـورة مما صـنع التتار بآثار العرب في المشرق، فكان حظ قرطبة صورة ثانية من حظ بغداد.

تبدد من آثار العرب في الأندلس ما تبدد، وضـاع منه ما ضـاع، ومع ذلك بقيت آثاره تشهد بان العرب في الأندلس أحسوا الطبيعة والوجود إحساساً قليل النظائر والأمثال.

وهل يدرك أحمد أمين قيمة الإحساس بالطبيعة في قول المعتمد بن عباد:

وليـل بســـد النهر آنســـا قطعتـه بـذات ســـوار مثـل منعطف النهر

نَضَـــتْ بُردهـا عن غصـــن بان منعم فيا حُســن ما انشــقَّ الكمام عن الزهر

أيقال أن هذا لعب بالتشبيهات، كما يتوهم احمد أمين؟

وما رأيه في قول عمرو بن فرج وهو يتحدث عن شرف العفاف:

وطـائعـة الوصـــال عففـت عنهـا ومـا الشـــيـطـان فـيـهـا بالمـطـاع

بـدت في الليـل ســـافرة فبـاتـت دياجـي الـلـيـل ســـافـرة الـقـنـاع

ومـا مـن لحـظـة إلا وفـيـهـا إلى فـتن الـقـلـوب لهـا دواعـي

فـملكـت النهى حجـاب شـــوقي لأجري في العفـاف على طبـاعي

وبت بها مبيت السَّقب يظما فيمنعه العكام من الرضاع

كذاك الروض ما فيه لمثلى سوى نظر وشم من متاع

ولست من السوائم مهملات فاتخذ الرياض من المراعي

أينكر إن هذا الشاعر أحس الطبية أدق إحساس؟

وهل يستطيع إن يؤدي هذه الصورة بأفضل من هذا الأداء؟

وما رأيه في قول محمد بن سفر:

وواعدتُها والشمس تجنح للنوى بزَوْرتها شمساً وبدر الدجى يسرى

فجاءت كما يمشي سنا الصبح في وطوراً كما مرّ النسيم على النهر

فعطّرت أن حولي فأشعرتْ بمقدمَها والعَرف يُشعر بالزهر

فتابعت بالتقبيل آثار سعيها كما يتقصَّى قارئٌ أحرف السطر

فبتُّ بها والليل قد نام والهوى تنبَّه بين الغصن والحِقف والبدر

أعانقها طوراً والثم تارةً إلى أن دعتنا للنوى راية الفجر

ففضّت عقوداً للتعانق بيننا فيا ليلة القدر اتركي ساعة النفر

إلا يرى كيف كانت الطبيعة بشجارها وأزهارها وأنهارها وأقمارها تداعب خيال الشاعر وهو ينظم هذا القصيد؟.

أيدرك قيمة الإحساس بالطبيعة في هذا البيت:

فجاءت كما يمشي سنا الصبح في وطوراً كما مرّ النسيم على النهر

قد يقول أن هذا لعب بالتشبيهات!

أن قال ذلك فسيأتي يوم قريب نبين فيه قيمة التشبيهات وما فيها من الدلالة على الأنس بمعاني الوجود.

وما رأيه في قول أحد الأندلسيين:

أديراها على الروض المندّى وحُكم الصبح في الظلماء ماضي

وكأس الراح تنظر عن حَبابٍ ينوب لنا عن الحَدق المراضِ

وما غَربَتْ نجوم الأفق لكن نُقِلْن من السماء إلى الرياض

أيحسب هذه الأبيات من الكلام المزخرف الذي لا يدل على شيء!

اتقى الله في نفسك يا صديقي احمد أمين، فأنت لا تجني على الأدب، وإنما تجني على نفسك حين تنسب إليها الغفلة عن أقدار هذه المعاني:

وما بأفضل في قول الرصافي الأندلسي في وصف حائك جميل:

قالوا وقد أكثروا في حبه عَذَلي: لو لم تهم بمُذال القدر مبتذلِ!

فقلت: لو كان أمري في الصبابة لي لاخترتُ ذاك ولكن ليس ذلك لي

علقتُهُ حَبَيَّ الثغر عاطرهُ حلو اللمى ساحر الأجفان والمقل

غُزّيِلٌ لم تزل في الغزل جائلةً بنانُهُ جوَلان الفِكر في الغزَل

جذلان تلعب بالمحواك أنملهُ على السَّدى لعب الأيام بالأجل

ضَّما بكفيه أو فحصاً بأخُمصهِ تخبُّط الظبي في أشراك محتَبِل

ألا تدل هذه القطعة على أن الشاعر قوي الإحساس بالوجود؟ وهل فكر أحمد أمين أن الأندلسيين لهم أمثال هذه المعاني؟.

وهل عرف أن منهم من قال في وصف راقص مليح:

ومُـنـزّع الحـركـات يـلـعـب بالـنُّـهـى ... لبس المحاســن عند خلع لباســهِ

متـأوّداً كـالغصـــن وسْـــط رياضـــه ... متلاعبـاً كـالظبي عنـد كنـاســه

بالـعـقـل يـلـعـب مـدبراً أو مـقـبلاً ... كـالـدهر يلعب كيف شـــاء بناســه

ويضـــم لـلـقـدمـين مـنـه رأســه ... كـالسـيف ضـمّ ذبابـه لرياســهِ

ألا تعد هذه القطعة من غرائب الشعر البديع الذي يمثل الإحساس بالوجود؟

وهل عرف أن في الأندلسيين من قال:

عـاطيتـه والليـل يســحـب ذيلـهُ ... صـــهباء كالمســك الفتيق لناشــقٍ

وضـــممتـه ضـمّ الكميّ لسـيفـه ... وذؤابـتـاه حمـائـلٌ في عـاتـقـي

حتى إذا مـالـت بـه سِـنـة الكرى ... زحزحتُـه شـيئـاً وكـان معـانقي

باعـدتُـهُ عـن أضـــلـع تشـتـاقـهُ ... كـيـلا يـنـام عـلـى وســادٍ خـافـق

فهذا شاعر حي العواطف، مشبوب لأحاسيس، يدرك جمال الوجود في أوقات الصفاء، ويواجه الطبيعة بنظر ثاقب، وقلب خفاق.

وما رأي صاحبنا في قصيدة ابن هاني:

فـمـن في مـأتمٍ عـلـى الـعشـاقِ ... ولـبســن الســواد في الأحـداق

وهي قصيدة يحفظها أكثر الأدباء، وفيها من وصف الطبيعة ألوان.

وما قوله في أرجوزته القافية التي وصف فيها الساقي فقال:

يحّـثـهـا بِـدَلـه المـرمـوقِ ... أرقَّ مـن أديمـه الـرقـيـق

وبات سـلطـانـاً عـلـى الـرحـيقِ ... يسـلِّـط المـاءَ عـلـى الحـريـق

ويـغـرس الـلـؤلـؤ في الـعـقـيـق كـأنَّ دُرَّ ثـغـره الأنـيـق

أُلّـف مـن حَـبـابهـا الـفـريـق أو زَلّ عـن فـيـه إلى الإبـريـق

وهل سمع الأستاذ أحمد أمين بأخبار ابن شهيد صاحب (الزوابع والتوابع) ولأدبه صلة شديدة بتذوق الوجود؟.

هل قرأ أشعار ابن زيدون ورسائل ابن زيدون ليرى كيف فتن هذا الشاعر الكاتب بفهم الدنيا والناس؟.

وهل نظر في نكبات ابن عمار الذي تذكر نفثاته بنفثات أبي فراس؟

وهل خطر في باله أن ينظر كيف برع الأندلسيون في الموشحات، وكانت أقباساً من الأضواء، وأنفاساً من الأزهار؟.

هل عرف أن الأندلسيين بكوا بلادهم بكاء شهد بأنها قطع من قلوبهم الخوافق؟

هل مر بخاطره أن الأدب الأندلسي ترك في الأدب اللاتيني أخيلة وتعابير بقيت على الزمان؟.

هل وصل إلى علمه أن عهد العرب في الأندلس هو أشرف ما عرضت أسبانيا من العهود؟.

هل اتفق له أن يعرف أن تاريخ العرب في الأندلس كان مادة غنية سعدت بها حيوات كثير من الباحثين الذين تشرفت بهم الجامعات الألمانية والفرنسية والإنجليزية؟.

هل طرق سمعه الخبر الذي يقول إن علماء الأندلس هم الذين عرفوا أهل أوربا بمعارف اليونان؟.

فبأي حق يجوز التطاول على أهل الأندلس من رجل مثل أحمد أمين وهو يشهد على نفسه بأنه لا يكتب عن الأندلس إلا بعد أن يأذن له المستشرقون؟.

آه، ثم آه!!

ما جزعت على وفاة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي كما جزعت عليها اليوم!

فلو كان الرافعي حياً ورأى أحمد أمين يقول في ماضي الأدب العربي ما يقول لأصلاه نار العذاب وصيره أضحوكة بين أهل الشرق والغرب.

ولو كان احمد زكي باشا حياً ورأى هذا العبث في السخرية من أهل الأندلس لقدم أحمد أمين إلى مهاوي سقر (وأحمد زكي باشا أول من أذاع محاسن الأندلس في العصر الحديث، قبل الشيخ محمد المهدي والأمير شكيب أرسلان).

ومن يدري، فلعل أحمد أمين يلقى من الجزاء ما هو له أهل يوم يتنبه أساتذة الأدب إلى واجبهم في رد عادية العادين على ماضي اللغة العربية!.

من يدري، فقد يقوم أحد المستشرقين بالانتصاف للتراث الذي غفل عن قيمته الشرقيون!.

من يدري، فقد تستيقظ كلية الآداب فتنشئ كرسياً للأدب الأندلسي يرف شبان العصر الحاضر أن أسلافهم استطاعوا أن يروعوا الأدب اللاتيني في حصنه الأمين!.

إن الشواهد التي سلفت قد انتزع أكثرها من الشعر، فكيف كان النثر عند أهل الأندلس وكيف دل على تذوق أصحابه؟.

لا أريد أن أعيد ما قلت في كتاب النثر الفني حين تحدثت عن كتاب الأندلس، لأني أبغض الحديث المعاد، وإنما أنبه القراء إلى خصيصة ظاهرة من خصائص النثر الأندلسي: هي الهيام بالتشبيهات رغبة منهم في تجسيم المعاني، والتشبيهات تنتزع في الأغلب من صور الطبيعة والوجود، فهي من الشواهد على إحساس الكاتب بالطبيعة والوجود.

ولم تقف هذه الخصيصة عند الرسائل القصيرة أو كتب العهود، وإنما شملت كتب التراجم وكتب التاريخ، وغلبت على الأبحاث الصوفية.

ومعاذ الأدب أن نفهم الطبيعة كما يفهمها أحمد أمين فنظنها مقصورة على الشجرة والزهرة، هيهات، إنما الطبيعة كتاب الوجود بما فيه من حجر ومدر، وشجر ونبات، وماء وجماد.

والطبيعة الشاملة تظهر بعظموتها وجبروتها ممثلة ناطقة في اكثر ما كتب الأندلسيون، ولو شئت لقلت إنهم بالغوا في ذلك حتى قاربوا الإسفاف، فهل كانوا يعلمون من وراء الغيب أن سيجيء في آخر الزمان من يتهمهم بالغفلة عن تذوق الطبيعة والوجود؟.

أمن أجل تلك التهمة المحجوبة في ضمير الغيب كان الفتح بن خاقان يفتعل ويعتسف في الأوصاف والتشبيهات ليقيم الدليل على أن الطبيعة كانت تطالع الأندلسيين من كل جانب؟.

أكان ابن زيدون وابن برد وابن شهيد وابن حزم يتوقعون أن سيتجنى عليهم ناس فيتهمونهم بالتبلد وضعف الإحساس فكان من احتفالهم بوصف الطبيعة ما كان؟.

وهنا أستأنس بكلمة قرأتها للأستاذ العقاد منذ سنين وهو يفاضل بين البحتري وشوقي، فقد نص على أن شوقي وصف الطبيعة بعد أن صار وصفها من المذاهب الأدبية، أما البحتري فوصفها بوحي من الفطرة. وكذلك أقول في الحكم لأهل الأندلس: فهم لم يتعمدوا وصف الطبيعة ليقال انهم تذوقوها وأحسوها! وإنما وصفوها بوحي من الفطرة فكانت أوصافهم أبلغ في الدلالة على سلامة الذوق، وقوة الطبع، وأصالة البيان.

ويتحذلق أحمد أمين فيقول: أين الشاعر الذي رأى نفسه جزءاً من الطبيعة على حد قول الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرته أبصرتني وإذا أبصرتني أبصرتنا

ونقول إن الحلاج بحمد الله شاعر عربي، وشعره زكاة عن العرب الذين اتهمهم أحمد أمين، وأبيات الحلاج هي اندماج في الطبيعة، ولذلك تفصيل يراه من شاء في كتاب التصوف الإسلامي عند شرح نظرية وحدة الوجود، حتى لا يظن ظان أن أحمد أمين أول من التفت إلى هذه الشؤون.

ولكن ما بال صاحبنا يغفل عن أبيات الشاعر الأندلسي الذي منح الطبيعة خصائص النفس الإنسانية حين قال:

وقانا لفحةَ الرمضاء وادٍ سقاه مضاعَفُ الغيث العميم

نزلنا دوحه فحنا علينا حَنُوَّ المرضعات على الفطيم

وأرشفَنا على ظمأ زُلالاً ألذّ من المدامة للنديم

يصـــــدُّ الشـــــمسَ أني واجـهـتْـنـا   فـيـحـجـبـهـا ويأذن لـلـنـســـــيـم

وهل يعرف أحمد أمين أن نظرية وحدة الوجود وهي أعظم تقديس للطبيعة لم يشـــرحها أحد بمثل ما شرحها الصوفية في الأندلس؟.

وهل عرف أن أبن عربي له في ذلك آيات بينات؟

وهل فطن إلى أن أبن زيدون جمع إلى روحه أطراف الوجود حين قال:

يُـدنى خيـالـكِ حين شـــطَّ بـه النوى   وهـــمٌ أكـــاد بـــه أُقـــبِّـــل فـــاكِ

أما بعد فقد زعم أحمد أمين أن ابن خفاجة الملقب بشاعر الطبيعة لم يجد غير الصياغة، ولم يستطع أن ينفخ فيها الروح، إلا في النادر القليل.

فهل نترك هذا الزعيم بلا تفنيد رعايةً لهذا (الأديب)؟

وهل هان الأدب العربي على أهله حتى يتركوا زمامه لمن يتخيل فيخال؟

إن من حق ابن خفاجة علينا أن نجلو صفحة من حياته الشعرية والنثرية تبين كيف كان ذلك الرجل فناناً بارعاً تجري أنامله على أوتار الوجود، فهو من مفاخر اللغة العربية، وهو حجتها يوم يتطاول عليها من لا يدركون أسرار البيان.

وقبل الشروع في الكلام عن ابن خفاجة أرجو أصحاب الجرائد والمجلات في غير مصر أن يصححوا رأيهم في أسباب هذه المقالات، فليس من الصحيح أني انتهزت فرصة الأخطاء التي وقع فيها أحمد أمين لأشفي صدري منه أو لأشفي صدر صديقي صاحب الرسالة، فليس بيننا وبين الأستاذ أحمد أمين خصومة شخصية، وإنما هي مصر تروض أبناءها على مخاصمة أصدقائهم في سبيل الحق.

- ١١ -

لا يريد الأستاذ أحمد أمين أن يفهم أن النقد من علائم الصداقة للحقائق وليس من علائم العداوة للأشخاص، ولا يريد أن يفهم أن ما بيننا وبينه من صداقة لا يجب أن يتعرض للزوال بسبب هذه المقالات التي فرضها الضمير والواجب، وكان خليقاً بأن يفهم وحي الضمير والواجب.

ولو قد فهم هذه البديهيات لما استباح لنفسه أن يقول:

(كل الصلات بيننا مفقودة، فلا صلة بين الأستاذ وطلبته إلا الدرس، ولا بين الأديب وقرائه ألا صلة القراءة إن كانت، ولا صلة بين الأدباء أنفسهم إلا صلة السباب، فإن لم يكن سباب فرياء. . .).

وهذه الكلمات تدل على أن صديقنا أحمد أمين قد ضاق ذرعاً بدنياه منذ اليوم الذي رأى فيه لأول مرة توضع منزلته الأدبية في الميزان.

فالأساتذة عنده قد انقطع ما بينهم وبين تلاميذهم، والكتاب قد انفصم ما بينهم وبين قرائهم، أما الأدباء فيما بينهم فيتعاملون على أساسين اثنين: السباب والرياء.

وكذلك يرانا من السبابين، ويرى أصحابه من المرائين!

والأستاذ أحمد أمين متشائم إلى أبعد الحدود. ولو شئت لنبهته إلى خطأ هذا التشاؤم فأكدت له أن الأدباء عندنا أحسن حالاً مما يتوهم، فقد كتب إلى كثير من أصدقائه وتلاميذه يرجونني أن أترفق في النقد، وشهد ناس بأنه كان حسن النية فيما كتب عن الأدب العربي، ولم يكن إلا مجتهداً خانه التوفيق، وللمجتهد أجرُ حين يخطئ وأجران حين يصيب.

وقد هممت بالتجاوز عن جناية هذا الصديق على الأدب العربي بقية هذا الصيف في هدوء وأمان، وليجد الفرصة لمناجاة (بحر العرب) وهو يقتعد صخرة المكس، ولكني تذكرت أن هذه المقالات لا تخلو من فوائد أدبية، وتذكرت أنه على كل حال من طلاّب الحقائق، وطالب الحقيقة قد يشرب من أجلها العلقم والصاب.

وأرجع إلى حديث اليوم فأقول:

إن الأستاذ أحمد أمين يرى أن ابن خفاجة لم يتذوق الطبيعة وإن اشتهر بوصف الطبيعة

وليس من المستغرَب أن يقف أحمد أمين من ابن خفاجة حيثُ وقف، لا يتذوق الشعر إلا في النادر القليل فكل أديب في الدنيا حدثته نفسه بأن ينظم من الشعر بيتاً أو بيتين، حتى الدكتور طه حسين، فقد كان له في مطلع حياته غرامُ بصوغ القريض، وسنعرض للمجهول من حياته الشعرية بعد حين أما أحمد أمين فلم يفكر يوماً في نظم الشعر.

والواقع أن عظماء الكتّاب في جميع البلاد كانت لهم نزعات شعرية، لأن للشعر مزية قوية في تكوين الأسلوب، وهو الذي يروض الكاتب على خلق الصور والإحساس بالرنين والكاتب الحق هو الذي يعاني من المكاره ما يعانيه الشاعر، وقد أخطأ أبو هلال حين توهم أن النثر كلام غير منظوم، مع أن أبا هلال كان من أهل البصر بأسرار البيان.

مالي ولهذا؟

أنا أريد أن أنصف ابن خفاجة الذي ظلمه الأستاذ أحمد أمين

كان ابن خفاجة يسمّى (أُلجنّان) وهي تسميةٌ تشهد لأسلافنا بسلامة الذوق. وكان يسمّى (صنوبريّ الأندلس).

كان ابن خفاجة جَناناً، لأنه قضي دهرا في وصف الرياض والبساتين، وكانت جنته هي الأندلس وقد فضلها على جنة الخُلد، ومن أجل ذلك اتهمه بعض معاصريه بالمروق حين قال:

يا أهل أندلسٍ لله دَرُّكم ... ماءٌ وظلٌّ وأشجارٌ وانهارُ

ما جنّة الخُلد إلا في دياركُم ... ولو تخيرت هذى كنت أختارُ

لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقراً ... فليس تُدخَل بعد الجنة النارُ

والحق أن ابن خفاجة فُتِن بمناظر بلاده أشد الفتون، فكان يترصد الفرص لوصف ما ترى العيون أو تحسُّ القلوب بتلك البلاد.

وكان شعره ونثره قيثارة تجود بأعذب الألحان في وصف الأشجار والأزهار والأنهار والسواقي والسحائب والبروق.

وقد ظل ابن خفاجة مفتوناً بوصف الطبيعة نحو خمسين سنة فهل يسوغ لإنسان أن يقول بأنه لم يتذوق الطبيعة في كل ذلك الأمد الطويل وهو يتغنى بها صباحَ مساء؟.

وكيف وكان ابن خفاجة مُرهف الإحساس إلى حدّ الخيال؟

إن ابن خفاجة هو الشاعر الذي تفرّد بالحنان إلى الطبيعة في جميع المناحي الشعرية، حتى في قصائد الرثاء، فكيف يجوز القول بأنه وصف الطبيعة بلا وعي ولا إحساس؟.

يضاف إلى ذلك أن ابن خفاجة عُرف بين معاصريه بالزهد في مدح الملوك والترفع عن جوائزهم السنيّة، في زمن كان فيه المديح مذهباً لا يغضّ من أقدار الشعراء، ولا يعرّضهم لسفاهة القيل والقال، فاتسع وقته لمناجاة عرائس الشعر في هدوء وصفاء.

إن ابن خفاجة صاحب مذهب في الشعر العربي، ومنزلته في وصف الرياض لا تقلّ عن منزلة أبي نواس في الخمريات والشريف الرضي في الحجازيات.

ومن الذي ينكر قيمة الشاعر الذي يقول:

لله نهرٌ سال في بطحاءِ ... أشهى وُروداً من لَمَى الحسناءِ

متعطفٌ مثل السوار كأنه ... والزهر يكنفه مجرُّ سماءِ

قد رقّ حتى ظُنَّ قرصاً مُفرغا ... من فضةٍ في بُرودةٍ خضراءِ

وغدتْ تحف به الغصون كأنها ... هدبٌ تحفّ بمقلةٍ زرقاءِ

ولطالما عاطيتُ فيه مدامة ... صفراَء تخضب أيديَ الندماءِ

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهب الأصيل على لُجين الماءِ

وكيف يتهم في وصف الطبيعة من يقول:

حثَّ المدامة والنسيم عليلُ ... والظل خفَّاقُ الرواق ظليلُ

والنَّور طرفٌ قد تنبه دامعٌ ... والماء مبتسمٌ يروق صقيلُ

وتطلعتْ من برق كل غمامةٍ في كل أفقٍ رايةٌ ورعيلُ

حتى تهادى كل خوطة أيكةٍ ريّا وغصَّتْ تلعةٌ ومسيلُ

فالروض مهتز المعاطف نعمةً نشوان يعطفه الصبا فيميلُ

ريّان فضّضه الندى ثم انجلى عنه فذهّب صفيحته أصيلُ

وارتد ينظر في نقاب غمامة طرفٌ يمرِّضه النعاس كليلُ

ساجٍ كما يرنو إلى عوَّاده شاكٍ ويلتمح العزيزَ ذليلُ

وهذا شعرٌ يفسده الشرح والتفسير والتحليلُ .وهل تحتاج محاسن هذه الأبيات إلى من يقيم عليها الدليل؟

ومن الذي ينكر فراهة الفتون في الأبيات الآتية:

وأغيد في صدر الندىّ لحسنهِ حليٌّ وفي صدر القصيد نسيبُ

من الهِيف أما ردفه فمنَّعمٌ خصيبٌ وأما خصره فجديبُ

يرفَّ بروض الحسن من نور وجهه وقامته نُوّارةٌ وقضيبُ

جلالها وقد غنّى الحمام عشيّةً عجوزاً عليها للحَباب مشيبُ

وجاء بها حمراء، أما مزاجُها فماءٌ، وأما ملؤها فلهيبُ

علـى لجـة تـرتـجُّ، أمـا حَـبَـابُهـا فـنـوْرٌ، وأمـا مـوُجـهـا فـكـثـيـبُ

تجـافـتْ بهـا عـنـا الحـوادث بـرهـةً وقـد ســـاعـدتنـا قـهـوةٌ وحبيـبُ

وغـازلـنـا جـفـنٌ هـنـاك كـنـرجـسٍ ومـبـتـســمٌ لـلأقـحـوان شـــنـيـبُ

فللـه ذيـلٌ للتصـــابي ســحبتـهُ وعيشٌ بأطرافِ الشـبـاب رطيـبُ

أرأيت كيف فَنِيَ الشاعر في الطبيعة فجعلها أصل الحسن والفتون؟

أرأيت كيف غَرِق هذا الشاعر في بحار الصباحة والملاحة، وكيف رأى الزهر والماء أصلاً لكل مليح وجميل؟.

وما رأى الأستاذ في الأبيات الآتية:

وصـــقيـل إفرنـد الشـبـاب بطرفـهِ ســقمٌ وللعضـب الحســام ذُبابُ

يمشـــي الهـويـنـا نخـوةً ولـربمـا أَطَـرْتـه طـوراً نشـــوةٌ وشـــبـابُ

شـــتى المحاســن، للوضــاءةِ ريطـة أبـداً عـلـيـه، ولـلـحـيـاء نـقـابُ

وبمـعـطـفـيـه لـلشـــبـيبـة منـهـلٌ قد شـــف عنه من القميص ســرابُ

عَـبَر الخـلـيـج ســبـاحـةً فـكـأنمـا أهوى فشـــقّ به الســماء شـــهابُ

لقـد احتللـت بشـــاطئيـه يهزني طـرباً شـــبـاب راقـني وشـــرابُ

وانســاب بي نهـر يـعـب وزورق فـتـحـمـلـتـني عـقـرب وحُـبـابُ

وركبـت دجلته يضـــاحكني بهـا فـرحـاً حبيـب شـــاقني وحَـبـابُ

نجلو من الدنيا عروساً بيننا حسناء ترشف والمدام رُضابُ

ثم ارتحلتُ وللسماء ذؤابةٌ شهباء تخضب والظلام خضابُ

تلوي معاطفي الصبابة والصبا والليل دون الكاشحين حجابُ

حيث استقل الجسر فوق زوارق نسقت كما تتواكب الأحبابُ

فهل فكر صديقنا أحمد أمين في وصف السباحة وقد سبقه إليها ابن خفاجة بنحو تسعة قرون؟.

إن الذي عجز عن وصف الطبيعة هو الذي يصطاف بالإسكندرية كل سنة ولم يفتح الله عليه بغير القول بأنه جلس على صخرة المكس ليأكل السمك المياس، وليفكر في مصير الشمس بعد الغروب، وليقول إنه تحاور مع هيان بن بيان!!.

يقول أحمد أمين إن أبن خفاجة لم يتذوق الطبيعة، فهل استمع إليه حين يقول:

ربما استضحك الحَباب حبيبٌ نفضت ثوبها عليه المدامُ

كلما مرَّ قاصراً من خُطاه يتهادى كما يمرّ الغمامُ

سلم الغصن والكثيب علينا فعلى الغصن والكثيب سلامُ

وهل أستمع إليه حين يقول:

أبى البرق إلا أن يحن فؤاد ويكحل أجفان المحب سهاد

فبت ولي من قانئ الدمع قهوة تدار، ومن إحدى يدي وساد

تنوح لي الورقاء وهي خلية وينهل دمع المزن وهو جماد

وليـلٍ كمـا مـدَّ الـغراب جنـاحـه وســـال على وجه الســـجل مـداد

بـه من وميض البرق والليـل فحمـة شــــرارٌ تـرامـى والـغـمـام زناد

ســـريتُ بـه أُحييه لا حْية السُّـــرى تموت ولا ميْـتُ الصـــبـاح يعـاد

يقلـب مني العزم إنســـان مُقلـةٍ لهـا الأفـق جـفـنٌ والـظـلام ســـواد

بخرقٍ لـقـلـب الـبرق خـفـقـة روعـة بـه ولجـفـن الـنجم فيـه ســـهـاد

ســـحيـقٌ ولا غـير الـرياح ركـائـبٌ هـنــاك ولا غــير الــغــمــام مــزاد

كــأني وأحشــــاء الــبــلاد تجـنــني ســــريـرةُ حــبّ والــظــلام فــؤاد

ولمـا تفرَّى من دجى الليـل طحلـبٌ وأعـرض مـن مـاء الصـــبـاح ثمـاد

حننـت وقـد ناح الحمـام صـــبـابـةً وشُـــقَّ من الـليـل البـهيم حـداد

على حين شـــطَّـتْ بالحبـائـب نيَّـةٌ وحـالـتْ فـيـاف بـيـنـنـا وبـلاد

ومن مزايا ابن خفاجة أنه يتمثل الطبيعة في حركة وحياة، فيراها ترضـــى وتغضـــب، وتضحك وتعبس، كأن يقول:

عـــاط أخــــلاّءك المــــدامــــا واســــتســــق لـلأيكـة الـغـمـامـا

وراقــص الــغصــــــن وهــو رطــبٌ يــقْــطــرُ أو طــارح الحــمــامــا

وقـــد تهـــادى بهـــا نســـــيــمٌ حيَّـتْ ســـليمى بها ســـلامـا

فتلك أفنانها نشاوى تشرب أكوابها قياما

وكأن يقول:

ألقي العصا في حيث يعثُر بالحصى نهرٌ وتعبث بالغصون شمالُ

وكأن ما بين الغصون تنازُعٌ فيه وما بين المياه جدالُ

وكأن يقول:

أخذ الربيع عليه كل ثنيةٍ فبكل مرقبةٍ لواءٌ شقيق

فهو في هذه الأشعار يمنح الطبيعة من الحياة والحركة ما يماثل شمائل الأحياء

وأريد أن أقول إن الطبيعة في نفس ابن خفاجة لها عزيمة وإرادة وقدرة وعبقرية، فهي تصنع ما تصنع عن نظرٍ ثاقب وقلبٍ مشبوب، هي نفس حساسة، تشعر وتُدرك، وتُفيض البؤس والنعيم على الأحياء بإرادة وعزم وإحساس.

وقد وقع في كلام الشعراء ما يشابه هذه المعاني، ولكن ابن خفاجة أكثر منها إكثاراً مّيزه بالتفوق والتفرد، فهو أوحد الناس في بابه بلا جدال.

وكان ابن خفاجة يُقسم بما في الطبيعة من أنهار ورياض وأزهار وأنداء ومباسم وعيون، فيقول:

أَما والتفات الروض من أزرق النهر وإشراق جيد الغصن في حِلْية الدهر

وقد نَسَمتْ ريح النعامى فتنبَّهتْ عيون الندامى تحت ريحانة الفجر

وهي قصيدة طويلة امتزجت فيها نفس الشاعر بأسرار الطبيعة أشدَّ امتزاج. والطبيعة تواجه ابن خفاجة حيثما تلفَّت، فهو يراها في كل مكان، وانظر كيف يقول:

يا رُبَّ ليلٍ بِتُّهُ وكأنه من وَحفِ شَعرك

تنهلُّ مزنة دمعتي فيه ويندَى نور ذكرك

أتبعتُ فيه وقد بك يت عقيق خدك دُرَّ ثغرك

وشـــــرِقــتُ فــيــك بــعــبرةٍ		قــد ورَّدتهــا نار هـــجـــرك

فـــكـــأنمـــا يـــنـــفـــضّ عـــن		حَـبَـبٍ لهـا رمـان صـــــدرك

ولَـــرُبَّ لـــيـــل قـــد صــــــد		عْــت ظــلامــه بجــبــين بــدرك

ولهـــــوتُ فــــيــــه بــــدُرَّةٍ		مــكــنــونــةٍ في حُــقِّ خِــدرك

تَــنْــدى شـــــقــائــق وجــنــت		يــك بــه وتَــنْــفَــحُ ريــح نَشـــرك

وقــد اســــتــدار بصـــــفــحــتْي		ســــوســـــانِ جــيــدك طَــلَّ درَّك

حـــيـــث الحـــبـــابــة دمــعـــةٌ		تجـري بـوجـنـة كـأس خمـرك

وتهـــزُّ مـــنـــك فـــتـــنـــثـــني		بقضـــيـــب قــدِّك ريح ســـكرك

وهو في هذه القصيدة يخلع محاسن الطبيعة على الملاح، وقد يخلع محاسن الملاح على الطبيعة فيقول:

وكمـامـة حـدر الصـبـاح قنـاعهـا		عن صـــفحة تنـدى من الأزهـار

في أبطحٍ رضـــعـت ثغور أقـاحـهِ		أخــلاف كــل غــمــامــةٍ مــدرارِ

نثرتْ بحجر الأرض فيـه يـد الصَّــبـا		دُرر الـــنـــدى ودراهـــم الـــنُّـــوار

وقـد ارتـدى غصــن النقـا وتقلـدت		حَلْيَ الســحـاب ســوالف الأنهـار

فحللت حيث الماء صـــفحة ضـــاحك جَـذِل وحيـث الشـــط بـدء عـذار

والـريـح تَـنـفُـض بـكـرة لِـمـمَ الـرُّبا والطَـلُّ ينضـــحُ أوجـه الأشـــجـار

وأراكـةٍ ســـجع الهـديـل بـفـرعـهـا والصـــبحُ يســـفر عن جبين نهـار

هـزَّت لـه أعـطـافـهـا ولـربمـا خـلـعـتْ عـلـيـه مُـلاءة الأنـوار

وهذا والله أنفس ما قيل في اتصـال الأحاسـيس بغرائب الوجود وأشـعار ابن خفاجة تشهد بأنه كان يحتفل بالمعاني كل الاحتفال وكان يرى شعره نفحة من نفحات الجمال، كأنْ يقول:

تـعـلـقـتـه نشـــوان مـن خمـر ريـقـهِ لـه رشـــفهـا دوني ولي دونـه الســـكر

نـــرقـــرق مـــاء ووجـــهـــه ويُـذْكى على قلبي ووجنتـه الجمر

وطـبـنـا مـعـاً شـــعـراً وثـغـراً كـأنمـا لـه منطقي ثغر، ولي ثغره شِـــعر

وقد توجُّع ابن خفاجة لضياع الشباب أشد التوجع ورأى في ملاحة الطبيعة عزاء عما ضاع من سماحة الملاح، فقال:

وكـل امرئ طـاشـــت بـه غرة الصِّـــبـا إذا مـا تحـلـى بالمشـــيـب تحـلَّـمـا

فـهـا أنا ألـقـي كـل لـيـل بـلـيـلَـةٍ من الهم يســـتجري من الـدمع أنجمـا

وأركـب أرداف الـرُّبا مـتـأســـفـاً فـأنشـــق أنفـاس الصـــبـا متنسِّـــمـا

وأرشـــف نثر الطـل من كـل وردةٍ مكـان بيـاض الثغر من حوَّة اللَّمى

وهو بهذه الأبيات يجعل الجمال الإنســـاني أجمل ما في الطبيعة من ألوان، وهي نظرة سليمة لا ينكرها غير الذين يرون الشجرة والزهرة أصلاً لكل جَمال.

وكان ابن خفاجة في أيام توجعه على صباه يتمنى لو يعرف مصير النفس بعد الموت، كأن يقول في رثاء بعض الأصدقاء:

كنا اصطحبنا والتشاكلُ نسبةٌ حتى كأنا عاتقٌ ونجادُ

ثم افترقنا لا لعودة صحبة حتى كأنا شعلة وزناد

يا أيها النائي ولست بمسمع سَكَن القبور وبيننا أسداد

ما تفعل النفس النفيسة عندما تتهاجر الأرواح والأجساد

كُشِف الغطاء إليك عن سر الردى فأجبْ بما تندى به الأكباد

وهي لفتةٌ فلسفية لاذ بها شاعرنا شوقي في أكثر قصائد الرثاء

أما بعد فقد كنا نحب أن نذكر شواهد من نثر ابن خفاجة تمثَل هُيامه بالطبيعة والوجود، ولكنا رأينا الدكتور ضيف سبقنا إلى ذلك في كتابه (بلاغة العرب في الأندلس) ونحن نبغض الحديث المعاد.

وما الذي يوجب أن نلحّ في شرح مذهب ابن خفاجة وهو معروف لجميع الناس؟ لقد أردنا أن ننتهز الفرصة فنمتع أنفسنا بالنظر في ديوان ابن خفاجة من جديد، ونذكر به الشبان الذين شغلتهم عنه ملاهي العصر الحديث.

ويدعوني الواجب في ختام هذا المقال إلى الثناء على أديبين فاضلين يهتمان بديوان ابن خفاجة ويعدان له دراسة أدبية تحفظ مكانه في التاريخ. أما الأديب الأول فهو عزيز عبد السلام فهمي. وأما الأديب الثاني فهو جاسم محمد الرجب؛ وأولهما صديق عرفته بكلية الآداب في القاهرة، وثانيهما صديق عرفته بدار المعلمين في بغداد.

فمتى تظهر جهود هذين الأديبين في إحياء ذلك الديوان؟

لقد ظهر ديوان ابن خفاجة بالقاهرة منذ اثنتين وسبعين سنة، فكيف جاز ألا يطبع مرة ثانية بعد ذلك الأمد الطويل العريض؟.

إن اللغة العربية لغة حية وقراؤها يشـــارفون المائة مليون، فكيف زهدت تلك الملايين في ذلك الشعر النفيس؟!.

إن ديوان ابن خفاجة وصـــل إلى أقصـــى بقاع الشـــرق الإســـلامي قبل ظهور المطابع، فكيف يحجب اليوم بعد الانتفاع بالمطبعة السريعة والبريد المضمون؟.

ومن أعجب العجب أن يتولى تزهيد العرب في آثار أســـلافهم رجل تعرفه كلية الآداب التي توجب على أبنائها أن يتعرفوا إلى آثار القدماء من الرومان واليونان!.

ولكن صـبراً فسـتهتدي كلية الآداب بعد حين، وسـترجع إلى سـيرتها الماضـية يوم كانت مثابة القلوب والعقول.

- ١٢ -

لا يعرف أحد كيف استباح الأستاذ احمد أمين ما استباح فصنع بنفسه ما صنع!

وهل كان في مقدور ناقد مهما اعتسف إن يسيء إلى الأستاذ احمد أمين بمثل ما أساء إلى نفسه بلا ترفق ولا استبقاء؟.

كنت أدعو الأستاذ احمد أمين إلى رعاية ماضيه فأصبحت ادعوه إلى رعاية مستقبله، فإني أخشى أن تضيع الثقة بكفايته العلمية فيصبح معدوم النصير والمعين، وهو لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بمعونة الأصحاب والأصدقاء، والمرء بنفسه قليل.

أقول هذا وقد كشف الأستاذ احمد أمين عن دفائنه المطوية فصرح بأنه يحتقر العقلية العربية في عهد الجاهلية ليتخذ من هذا الاحتقار وسيلة لتأييد دعواه في جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي.

والجاهليون قوم كانت لهم حسنات وهنوات، وكلمة الحق فيهم لا تؤذي أحداً من الناس، وقد قال فيهم القرآن ما قال فلم يتأذ أحد من إخلافهم، لأنه لم يقل فيهم غير الحق.

أما التحامل على عرب الجاهلية، وتجسيم مساويهم وتضخيم عيوبهم، والتشهير بوثنيتهم، والقول بأنها كانت وثنية أرضية وضيعة – كما يعبر أحمد أمين – فذلك إثم منكر يراد به تحقير الأرومة العربية وتسوئ سمعتها في التاريخ، وذلك لا يقع إلا من رجل يمشي في الوعر من عقوق الأباء والأجداد.

نحن لا ننكر أن العرب القدماء كان فيهم وثنيون، فقد كان الحال كذلك عند قدماء المصريين والفرس والروم والهنود، وإنما ننكر أن تكون وثنية العرب وصلت إلى الانحطاط الذي تصوره احمد أمين حين ارتضى السخف الذي تنطق به العبارة الآتية منسوبة إلى أحد الأعراب:

(كنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حفنة من تراب، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه، ثم طفنا به).

كذلك روى أحمد أمين، وهو في غاية من الطمأنينة عن بعض الكتب القديمة ليؤكد لقرائه أن العرب أهل لأن يقول فيهم من الإفك ما يقول.

وتصـديق هذه الأخبار شـاهد جديد على العقلية العامية التي يعيش بها بعض الناس، فليس من الصـحيح أن العرب كانوا يعبدون الشـاة البيضـاء فإذا أكلها الذئب أخذوا شـاة أخرى فعبدوها، كما حدث الفقيه الذي نقل عنه أحمد أمين.

أيها القراء أسمعوا، وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا

أيها القراء أسمعوا تاريخ الوثنية الجاهلية، اسمعوها مني لا من أحمد أمين

كان في العرب وثنيون، بشـهادة القرآن، ولكن أحمد أمين نسـى حقيقة تاريخه ما كان ينبغي أن تغيب عن رجل يتصدر لتأريخ الحياة العربية. نسى هذا الرجل أن عصر النبوة شهد معركة عنيفة بين الوثنية والتوحيد، وفي تلك المعركة جاز لرجال الدين أن يلطخوا تاريخ الوثنية بالسواد ليندحر الوثنيون ولتنشرح صدور المؤمنين. فكل ما تقرءونه في الكتب التاريخية والدينية من وصـف عرب الجاهلية بالغفلة والحمق، والطيش والخبال، وسـوء الفهم، وبشـاعة التصـور، وخمود العقل، وبلادة الإحسـاس، كل أولئك الصـفات الدميمة وضـعت لغرض خاص هو تحقير الوثنية الجاهلية لتقوم على أنقاضها العقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد.

وكان من حق رجال الدين أن يصنعوا في تشويه الوثنية الجاهلية ما يشاءون، لأنهم كانوا يرونها زيغاً في زيغ وضلالاً في ضلال.

أما أحمد أمين فلا يملك هذا الحق، لأن الإسـلام قد اسـتغنى نهائيا عن حرب الوثنية الجاهلية بالنصر المؤزر الذي ظفرت به عقيدة التوحيد.

والموقف اليوم قد تغير بلا جدال، فهو ليس موقف الموازنة بين الجاهلية والإسـلام حتى يسـتبيح ما يسـتبيح من تحقير الجاهليين، وإنما هو موقف المفاضـلة بين الوثنية العربية والوثنية اليونانية، وهو موقف لا نخترعه أختراعاً، فقد صـرح به الرجل الذي هداه فكره إلى القول بأن وثنية العرب كانت أرضية وضيعة وأن وثنية اليونان كانت سماوية رفيعة!.

إن أحمد أمين يقول بأن الوثنية العربية وثنيه أرضـية وضـيعة، على حد تعبيره المهذب الجميل!.

فهل يستطيع أن يقول من أين عرف أن وثنية العرب كانت أرضية وضيعة؟

أنه يجهل – وأنا أيضاً أجهل وسائر الناس يجهلون – كيف كانت الوثنية العربية، لأن تلك الوثنية طمست آثارها منذ أزمان طوال ولم تذكر في أي كتاب إلا بالتحقير والتصغير والتقبيح.

وأنا أتحدى الأستاذ أحمد أمين أن يذكر كتاباً واحداً عني مؤلفه بشرح الوثنية الجاهلية شرحاً بين ما لها وما عليها بلا تزيد ولا بهتان.

إن العرب ألفوا كتباً كثيرة عن الأصنام، ولكن الغرض من تلك الكتب كان غرضاً دينيا، وهو غرض شريف أرادوا به أن يجعلوا رجعة العرب إلى وثنيتهم من المستحيلات. ولو كانوا يعرفون أن تلك الكتب ستكون حجة يعتمد عليها من يشاء له هواه تحقير الأرومة العربية وتمجيد الأرومة اليونانية لحفظوا لأسلافهم بعض ما كان لهم من حسنات في الجاهلية.

والحق أن الخلفاء الراشدين كانوا في غاية من الحزم الصارم العنيف الشريف في حرب الوثنية الجاهلية، لأنهم كانوا يريدون أن يكونوا أمثله عالية في رعاية الميراث الذي خلفه الرسول الكريم، وهو ميراث التوحيد، فلم يسمحوا لأحد برواية الأشعار التي تمثل الوثنية الجاهلية، وخاف المسلمون على دينهم فهجروا ما خلفت الوثنية من أسماء وأحاديث، وبالغوا في التصون من تلك الآثار لئلا يقال إن فيهم نزعة وثنية.

كان للعرب صنم أسمه يغوث، فهل يعرف أحمد أمين مبلغ الأساطير التي صيغت حول يغوث؟ وهل يعرف ما صيغ حول اللات والعزى من أقاصيص؟ وهل يستطيع أن يقول بأن الوثنية العربية بقيت سليمة من التحريف والتبديل؟.

لو بقيت الأساطير الجاهلية لاستطعنا أن نعرف شيئاً عن الوثنية العربية، ولكن تلك الأساطير ضاعت إلى الأبد، لأن روايتها كانت محرمة على المسلمين، والحكم على الغائب لا يخلو من تعسف واستبداد.

لو أن الأستاذ أحمد أمين حين تحدث عن وثنية العرب بالتقبيح كان يريد إظهار فضل الإسلام على العرب لتلقينا كلامه بالقبول. فالإسلام نقل العرب من الظلمات إلى النور، ولكن أحمد أمين يحقر الوثنية العربية لغرض آخر هو قوله الصريح بسماوية الوثنية اليونانية وأرضية الوثنية العربية كنت أحب أن أنقض كلام أحمد أمين بشواهد من التاريخ؛ ولكن أين أجد تلك الشواهد وقد تقرب العرب إلى الله بوأد الوثنية الجاهلية؟.

وهل أملك اختراع الحجج والبراهين، وقد تلقيت عن أســـاتذتي في الجامعة المصـــرية وجامعة باريس دروساً كثيرة في تكوين عناصر الحجج والبراهين؟.

الحق أني لا أملك إســـكات أحمد أمين لأنه يعتمد في تحقير الوثنية العربية على ما رواه القصاص وأنا لا أقيم لتلك الروايات أي ميزان.

فالعجز من جانبي تقضي به العقلية العلمية – ولا فخر – والقدرة من جانبه تقضي بها العقلية العامة من غير شك.

إن العرب خلعوا وثنيتهم عامدين متعمدين طاعة لله الذي نهاهم عن التعلق بالوثنية، ولم يحفظوا من صور تلك الوثنية غير الصور التي قبحها القرآن ليروضهم على التوحيد، فمن حدثكم أن العرب في جاهليتهم كانوا يعيشون بعقلية أرضية وضيعة فاعلموا أنه يحكم على الغائب بلا بينة ولا برهان.

وهنا مسألة دقيقة لا يمكن أن تخطر في بال الأستاذ أحمد أمين، لأنه على فضله بعيد كل البعد عن التعمق والاستقصاء.

قلت لكم إن الرب بين الوثنية والتوحيد قضت باندحار الوثنية وتلطيخ سمعتها بالسواد، وأقول الآن إن هناك حرباً ثانية عانتها الوثنية العربية أيام فتنة الشعوبية، فقد أراد الشعوبيون أن يجعلوا العرب في جاهليتهم مثلاً في السخف والحمق والخبال، ولذلك تفاصيل يعرفها من يقرأ كتب الأدب والتاريخ بعقلية المؤرخ. ..

وكذلك نعرف أن الوثنية العربية عوديت مرتين: مرة بســـبب العصـــبية الدينية، ومره بسبب العصبية الجنسية. وقد خفيت أسباب العداوة الثانية على كثير من الناس.

وخلاصـــة القول أن الوثنية العربية حوربت بلا هوادة ولا رفق، ولم يبق من أصـــولها السليمة ما يعين الباحث على تصحيح العقلية العربية في العصر الذي نسخه الدين الحنيف، فمن حق أحمد أمين أن يتزيد على العرب كيف شاء، ومن حقنا أن نقول: إن إصراره على تحقير العرب في جاهليتهم (وهو لا يعرف شيئاً صحيحاً عن وثنيتهم) هو إصرار الرجل المحروم من نور المعرفة بأصـــول المباحث العلمية في العصـــر الحديث بقيت فتنة أحمد أمين بالوثنية اليونانية التي ابتدعت أفروديت وأدونيس وإيروس، فهل يعرف كيف عاشت الوثنية اليونانية؟.

لو أن اليونان كانوا أســـلموا كما أســـلم العرب لوجد في اليونان من يبدل آثار الوثنية اليونانية بحيث تصبح وتسمى وهي مثل في الرقاعة والسخف.

ولكن اليونان عاشـــوا في جاهليتهم بعد ظهور الإســـلام بأجيال طوال، وظلوا يتوارثون أوهام أســـلافهم من عصـــر إلى عصـــر إلى أن جاء المتطرفون من شـــعراء الفرنســـيس والإنجليز فعكفوا على تلك الوثنية يعبدونها من جديد لأنها قامت على أســـــاس براق هو التقديس لجموع الأهواء وطغيان الأحاسيس.

وهنا تحل المشـــكلة التي حار في فهمها أحمد أمين، فهذا الرجل يعجب من ســـكوت العرب عن ترجمة ما كان عند اليونان من أشعار وأقاصيص.

وأنا أتصدق عليه بحل هذا الإشكال فأقول: إن المسلمين الذين نهاهم دينهم عن أحياء الوثنية العربية قد انتهوا بفضل الدين عن أحياء الوثنية اليونانية.

وهل يعرف صاحبنا متى استفحلت حماسة الأوربيين لوثنية اليونان؟

انهم انتصروا لتلك الوثنية يوم استحكمت العداوة بين اليونان والأتراك؟ وهل كان يمكن لشاعر مثل بيرون أن يشايع اليونان لوجه الحق؟.

إن الغافلين يجهلون السر في تغني شعراء فرنسا وإنجلترا وإيطاليا بقلعة الأكروبول، فهذا التغني كانت له غاية أصـيلة هي تمجيد الأمة التي جعلت عبادة الشـهوات من الشـرائع. ولو كانوا يريدون وجه الحق لوقفوا على (الكعبة) العربية التي يتوجه إليها الملايين من أهل المشـرق والمغرب في أوقات الصلوات، والتي كانت مثابة للألوف من أقطاب التشريع.

ولكن الكعبة ليســـت من هواهم: لأنها لم تمجد الشـــهوات ولأنها خلت من عبادة أفروديت وأدونيس وإيروس!.

إن الشهوة من أهم العناصر في الحياة الإنسانية، وهي تستهوي الناس في كل عصر وفي كل أرض، ولكن العرب امتازوا بين الأمم بالتخوف من عواقب الشـــهوات، فكانوا لذلك موضع الغضب فلتسخريه من الشعراء الظرفاء الذين بكوا دماً على مصير اليونان أيام حرب الاســـتقلال وهل يمكن القول بأن اليونان خدموا الشـــهامة والفتوه والرجولة كما خدمها العرب؟.

هيهات! هيهات!

إنما هي وشائج من الشهوة والعصبية السياسية قضت بأن يقول الأوربيون إن وثنية اليونان كانت وثنية سماوية لتقوم لهم دولة تضايق بعض العرب والمسلمين في الشرق.

وأحب أن أبين أوجه الحق في هذه القضية فأقول:

إن هيام الشعراء الأوربيين بالوثنية اليونانية له صلة وثيقة بما كان يكرثهم من مصاعب وأهوال. ذلك بأن الوثنية اليونانية تقوم على عبادة المرح والبهجة والإيناس، فأهواء الآلهة عندهم أهواء حادة من الوجهة الحسيه بحيث يمثلون ما في الطبيعة الحية ندمن غضب وبطش وجبروت؛ وأذواق الآلهة عندهم أذواق مترفة ناعمة تمثل ما في الطبيعة الحية من مرح وجذل وفتون.

والشاعر الذي يعيش في رحاب الوثنية اليونانية يعيش عيش السعادة والنعيم، فهو محروس بقوات خفية في جميع الشؤون: فله عند الغضب إله ينصره هو إله الحرب، وله في أوقات السرور إله يرعاه هو إله الخمر، وله عند الصبوة إله يفتح له قلوب الملاح هو إله الحب.

وهذا هو السر في أن شعراء أوربا وجدوا في الوثنية اليونانية ما لم يجدوه في الشريعة الإسلامية، مع أن الشريعة الإسلامية محملة بالطرائف من أصول الآداب والفنون.

وتوضيح ذلك سهل: فلذي ينظر في الوثنية اليونانية يواجه اصطخاب الأهواء والأذواق والأحاسيس، أما الذي ينظر في الشريعة الإسلامية فيواجه بحراً هائجاً من الواجبات والتكاليف، ويشعر بأنه مسئول عن كل شي حتى خطرات القلوب.

وهذه الخصيصة من خصائص الشريعة الإسلامية كان لها دخل في عدم ظفر الإسلام بغزو المشاعر في الممالك الأوربية، فالإسلام دين صارم عنيف لا ينظر للأهواء والشهوات إلا بعين الغضب والمقت، وهو ينذر المسرفين على أنفسهم بالويل والهلاك.

وقد أتستطاع الإسلام أن يؤثر في المسيحية فخلق منها مذهب البروتستانت، ولكن ذلك المذهب حول المسيحية إلى ميادين عقلية لا يتذوقها الجمهور الأوربي إلا بمشقة وعنت، وما عاش ذلك المذهب إلا لأن الذين اعتنقوه كانوا أصحاء وسيعودون إلى الكثلكة يوم يغلب عليهم الضعف واليونان تنصروا بعد الوثنية، ولكن نصرانية اليونان نصرانية شعرية هي

مذهب الأورثودكس، وهو مذهب جذاب براق ترف أجنحته بأرواح الشـــعر والخيال. وهو نفسه مذهب النصارى في مصر، لأن الوثنية المصرية لا تقل ألواناً وتهاويل عن الوثنية اليونانية.

والإسلام الصحيح لم يعرفه العرب إلا في عهد الصحة والعافية، فلما ضعفوا خلعوا على إسلامهم أردية جديدة من أردية الوثنية. ولو قام باحث بتدوين الأساطير التي صيغت حول الأولياء والصالحين لأمد الأدب بثروة تفوق الثروة التي عرفها اليونان أيام الوثنية.

قد يقول قائل: وما محصول هذا الاستطراد؟

وأجيب بأنه يفسر تلك الظاهرة الغريبة التي لم يقع مثلها في التاريخ: فظهور الإسلام في بلاد العرب لعهد ظهوره كانوا في عافية روحية وعقلية، ولذلك اســتطاع الإســلام أن ينســخ وثنية العرب إلى غير رجعة، ليحولهم إلى رجال يفكرون في عجائب الأرض قبل أن يفكروا في غرائب السماء، والأرض هي المزدرع الأصيل لطلاب السيطرة والجبروت من أصحاب العزائم الشداد.

وأحمد أمين لا يفكر في هذه الحقائق لأنه رجل محترم، والرجال المحترمون يكتفون بما رضيه الناس من المنقولات والمرويات.

ولكن أين نحن من جوهر هذا البحث؟

أنا أخشـــى أن يكون فيما عرضـــته من الحجج والبيانات شـــيء من الغموض، لأنني احترســـت في عرض بعض المشـــكلات احتراس من يمشـــي على الشـــوك لأســـلم من تقول المرجفين.

فما هو جوهر البحث بطريقة واضحة صريحة تؤكد صدق ما ذهبنا إليه؟

خلاصة القول أن أحمد أمين حكم بأن وثنية العرب كانت (أرضية وضيعة) وأن وثنية اليونان كانت (سماوية رفيعة).

وقد أثبتنا بالبرهان القاطع أن وثنية العرب محاها الإسلام، ولم تبق لها رسوم ولا أطلال، فالحكم لها أو عليها حكم على مجهول ونحن نتســـاجل بطريقه علمية لا تغني فيها الأحكام على المجهولات أي غناء.

وقد تحدث الإسلام عن وثنية العرب في مواطن كثيرة من القرآن، ولكنه لم يشر إلى ما كان في تلك الوثنية من نفحات الشعر والخيال، لأن الإسلام لا يرى الخير والحق والجمال في عقيدة غير عقيدة التوحيد.

وما كان ينتظر أن يصنع الإسلام غير الذي صنع، فحكمه قام على أساس الصدق في تطهير العقلية العربية من أوضاع الأساطير والأباطيل.

أما أحمد أمين فموقفه مختلف كل الاختلاف، فهو يعير العرب بوثنيتهم، وهي عنده أرضية وضيعة، مع أنه لم يعرف من تلك الوثنية غير وجهها الدميم، وذلك الوجه الدميم موضع شك وارتياب، لأنه لون بأصباغ جديده خلقتها العصبية الدينية والعصبية الجنسية.

وأحمد أمين ينظر إلى الوثنية اليونانية بعين الإعجاب ويراها سماوية رفيعة

ومن المؤكد أنه لا ينضر إليها تلك النظرة إلا وقد جرد نفسه من النزعة الدينية، لأن الإسلام لا يرضى عن الوثنية في أي شكل من الأشكال.

فلم يبق إلا أن يكون نظر إليها من الوجهة الأدبية، وعندئذ نقول إنه على حق في الإعجاب بتلك الوثنية، لأنها وثنية حية ولأنها لونت الأخيلة والأذواق في كثير من الممالك والشعوب.

ولكن تلك الوثنية ظفرت بحظ لم تظفر بمثله الوثنية العربية فقد ظفرت بالإعزاز والتبجيل على حين لم تظفر وثنية العرب بغير التحقير والتقبيح.

فالجميل من الوثنية العربية تناساه المؤمنون، والقبيح من الوثنية اليونانية تناساه المشركون. وكانت النتيجة أن لم يبق من وثنية العرب غير القبح، ولم يبق من وثنية اليونان غير الجمال.

قولوا الحق أيها القراء!

ألا ترون أن الأستاذ أحمد أمين يجني على المنطق وعلى التاريخ حين يستبيح ما يستبيح في تحقير الجاهلية العربية وتمجيد الجاهلية اليونانية؟.

أنا أحتكم إليكم أيها القراء لتفصلوا بيني وبين هذا الزميل

إن الوثنية العربية قد انقرضت تمام الانقراض، ولن تعود مصدر خوف على العقيدة الإسلامية، فلا حرج على الرجل المسلم من القول بأن العرب في جاهليتهم كانت لهم أوهام وأضاليل قد لا تقل جمالاً عما كان عند الفرس والروم والهنود من أوهام وأضاليل.

إن الأســـاطير تخلق لغاية معروفة هي ملء فراغ الأفئدة والعقول، وكان العرب في جاهليتهم كاليونان في جاهليتهم يحتاجون إلى تزجية أوقات الفراغ بطرائف الأسمار والأحاديث، فلم يكن بد من أن يبتدعوا ألوانا من الأقاصيص تصور أهواء الأصنام والأوثان، كما أبتدع اليونان، ألوانا من الأقاصيص تصور ما كان عند آلهتهم من نزوات وشهوات وأهواء.

ولكن أين الأساطير العربية؟ أين؟ أين؟

لقد محاها الإسلام ليخلو الو للعقيدة السليمة عقيدة التوحيد. وأنا مع ذلك قادر على وضع خطوط للوثنية العربية إن سمح الزمن بأن أعيش في بلاد العرب عامين أثنين أدرس فيهما ما بقي في أذهان العرب من أساطير الأولين، ويومئذ نعرف بعض الفروق بين أحلام العرب وأوهام اليونان. فإن لم تتح هذه الفرصة فقد وجهت الأذهان إلى درس هذا الموضوع الطريف، وهو موضوع حاولت درسه منذ سنين لأقدم عنه رسالة إلى جامعة باريس تحت عنوان[1]:

وقد صدني عنه رجال ثلاثة: أولهم الدكتور طه حسين وكانت حجته أن هذا البحث قد ينتهي إلى (الكفر الموبق) وثانيهم لطفي باشا السيد وكانت حجته أنه لا يحسن تعريض الجمهور لفتن جديدة، وثالثهم المسيو فيت وكانت حجته أنه لا يمكن لباحث أن يسبر أغوار هذا البحث إلا بعد أن يقيم في بلاد العرب بضع سنين.

ولو أن المقادير كانت سمحت بالمضي في هذا البحث (وكنت شرعت فيه سنة ١٩٢٧) لكان من المستحيل أن أعجز عن تقديم صورة من الوثنية العربية أقاوم بها السحر الذي تتمتع به وثنية اليونان. فهل أنتظر أن يكون بين طلبة كلية الآداب من يوجه همته إلى هذا البحث الطريف؟.

هل أنتظر أن يكون فيهم من يؤرخ المدة التي غفل عنها مؤلف كتاب (فجر الإسلام)؟

إن من القراء من يذكر أني نبهت الأستاذ أحمد أمين إلى هذه النقطة بمقال نشرته في جريدة البلاغ، ومنهم من يذكر أن بعض تلاميذ الأستاذ أحمد أمين دافع عنه يوم ذاك.

---

١ فراغ في الأصل

والمشـــكلة مع ذلك باقية، وقد فصـــلتها في كتاب النثر الفني بعبارات تعجب منها الأستاذ احمد أمين، ودهش من سكوت الجمهور عما فيها من صراحة جريئة، أشار إلى انه تلطف بالسكوت عنها يوم نقد كتاب النثر الفني في مجلة الرسالة سنة ١٩٣٤ أيها المولعون بالمباحث الأدبية والتاريخية.

أنا أوجهكم إلى موضوع صدتني عنه ظروف الحياة، وهو درس ما بقي في أذهان العرب من أساطير الأولين لتعرفوا شيئاً من رسوم الوثنية العربية التي حاربها القرآن.

فان وفقتم إلى شيء فسنعرف كيف كان العرب يتصورون الدنيا والوجود قبل أن تظلهم راية الدين الحنيف، ويومئذ نعرف كيف كانت جاهلية العرب بالقياس إلى ما عرفنا من جاهلية اليونان.

- ١٣ -

كتب إلي أحد المتخرجين في كلية الآداب يقول: (ألا ترى أن إصـرارك على تفنيد آراء الأستاذ أحمد أمين فيه تجريح لكلية الآداب، وأنت أقسمت على الوفاء لكلية الآداب)؟.

وأقول إني ما نسيت ذلك القسم العظيم، وسأظل طول دهري وفياً لكلية الآداب

ولكن كيف يصح القول بأن تفنيد آراء الأستاذ أحمد أمين ينافي الوفاء لكلية الآداب؟

إن كلية الآداب لها رسـالة أدبية وفلسـفية، وهي تروض أبناءها على الفناء في الحق، وتنكر عليهم أن يكونوا أبواقاً تذيع أهواء الجاهلين، فمن الوفاء لتلك الكلية أن نراقب ما ينشر باسمها من المباحث والآراء، وأن نتعقب أساتذتها بالنقد حين يقضي الواجب بلا ظلم ولا إسراف.

وقد استبحت قبل اليوم نقد آراء الدكتور طه حسين وكان عميداً لكلية الآداب، فلم يقل أحد إن ذلك النقد كان تجريحاً لتلك الكلية وخروجاً على يمين الوفاء.

وهل خرج الدكتور عبد الوهاب عزام على كلية الآداب. حين أنكر آراء الأستاذ أحمد أمين؟.

وماذا تريد منا كلية الآداب؟

أتريد أن نطوف بأحجارها طواف الخشوع فنرى كل صدىً يرن في حجراتها وغرفاتها وحياً نزل من السماء؟.

إن تقاليد تلك الكلية قامت على أساس الفتوة، وقد شرعت النضال والعراك حول المذاهب والآراء، فليعرف بعض الأساتذة هناك أن الوشائج الصحيحة بيننا بينهم ترجع إلى أصل أصيل من تقاليد تلك الكلية، هو الثورة على الأخطاء والأغلاط والجهالات.

ونحن ماضون في سبيل النقد الأدبي بجرأة وصراحة رعاية للحق، ورعاية لتقاليد تلك الكلية الغالية، جعلها الله إلى الأبد مثابة لحرية الرأي والعقل، ونجاها من عادية الأهواء!.

وارجع إلى الموضوع فأقول:

رأى القارئ كيف أخطأ أحمد أمين حين وازن بين الوثنية العربية والوثنية اليونانية، لأن الموازنة لا تصح إلا بين أثرين، وقد وئدت الوثنية العربية وعاشت الوثنية اليونانية، فالموازنة بينهما لا تجوز إلا في ذهن من يستجيز الحكم على المجهول.

وأنا مع ذلك أعترف بأن الوثنية العربية بقيت منها أشـياء، فقد صـح أن بعض العرب عبدوا الأصنام وعبدوا الشمس وعبدوا بعض النجوم.

هذا صـحيح؛ وقد شـهد به القرآن؛ وشـهادة القرآن لا يمكن إنكارها على الإطلاق، فهو عند المؤمنين وحي من عند الله، وهو عند الملحدين صـورة صـحيحة لأحوال العرب في عهد النبوة. وكذلك يستوي المؤمن والملحد في تصديق ما شهد به القرآن.

ولكن كيف كانت تلك الوثنية من الوجهة العقلية والروحية؟

هل يعرف أحمد أمين لأية غاية عبد العرب صنماً في صورة أسد؟

لا يكفي أن يكون الصـنم نحت من حجر ليقال إن عبادته أرضـية وضـيعة، كما يعبر أحمد أمين، وإنما يجب ان نعرف لأية غاية روحية أو عقلية عبد بعض العرب صـنماً من حجر على صـورة أسـد، فقد يكون الغرض من تلك العبادة تمجيد الأنفة والقوة والكبرياء، وهو غرض نبيل رأينا له أشباهاً في وثنية الفرس والمصريين واليونان.

وقد عبد العرب أسافاً ونائلة، وهما صنمان لامرأة مليحة ورجل جميل

فهل يعرف أحمد أمين لأية غاية عبد العرب هاتين الصورتين؟

لقد تحدث الأخباريون بأنهما صـورة لرجل وامرأة فجرا في الكعبة فمسـخهما الله حجرين، وهنا يتحذلق أحمد أمين فيقول: (ولسـت أدري ما حملهم على عبادتهما مع شـنيع فعلهما، وهما إن استحقا شيئاً فالرجم لا العبادة).

فالقول بأن أسـافاً ونائلة فجرا في الكعبة فمسـخهما الله حجرين هو التأويل الذي اهتدى إليه بعض العوام بعد اندحار الوثنية العربية.

أما أهل البصر بأسرار الوثنيات القديمة فيعرفون أن أسافاً ونائلة عند العرب قد يشبهان إيروس وأفروديت عند اليونان، فهما تمثالان لعبادة الجمال والحب، وليسـا تمثالين لعبادة الفجور والفسق.

وعرض الأسـتاذ لتصـور العرب في الزهرة فلم يدرك ما فيه من جمال، فالزهرة في الوثنية العربية كانت امرأة حسـناء فصـعدت إلى السـماء ومسـخت كوكباً، فهل رأى الناس تقديساً للجمال أروع من هذا التقديس؟.

ألا يكفي أن تكون تلك الحسناء نقلت من الأرض إلى السماء، ومن عالم الفناء إلى عالم الخلود؟.

قلت لكم إن أسرار الوثنية العربية ضاعت ضيعة أبدية بفضل الدين الحنيف، ونحن غير آسفين على ضياع تلك الأسرار ولكنا لا نستسيغ القول بأن عقلية العرب كانت أرضية وضيعة ونحن نجهل كيف كانوا يتصورون شؤون الدنيا وأحوال الوجود.

والعرب قد اعتذروا عن عبادة الأصنام فقالوا: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وهذه العبارة القرآنية الكريمة تشهد بأن وثنية العرب كانت تحريفاً لدين صحيح قام على أساس التوحيد.

فمن الخطل أن يقول قائل بأن عبادة الأصنام كانت عبادة أرضية على حين يشهد القرآن، بأنها كانت موصولة الأواصر بالمعاني السماوية.

ويشهد القرآن أيضاً بأن وثنية العرب كانت لها أحكام متصلة بسكان السماء فقد (جعلوا الملائكة الذي هم عباد الرحمن إناثاً) ومعنى ذلك أن أوهامهم تجاوزت الأرض إلى السماء.

إن العرب في جاهليتهم قد عرفوا المصريين واليونانيين والفرس والهنود، فكيف جاز أن تخلو وثنيتهم من السمو الذي عرفت به وثنيات أولئك الناس؟.

كيف يكون ذلك والوثنيات ينقل بعضها عن بعض، كما تنقل بعض الديانات عن بعض؟.

ثم ماذا؟

ثم يحكم الأستاذ أحمد أمين بأن العرب لم تكن لهم طبيعة فنية وأن ما كان عندهم من تماثيل فمجلوب من مصر أو من اليونان، وأن (يغوث) إله مصري اسمه (يغنوت).

ونحب أن نعرف من هم العرب في ذهن أحمد أمين

يظهر أن العرب في ذهنه هم سكان البادية العربية، وسكان البادية لا يحسنون صناعة التماثيل.

والقول بأن العرب في جاهليتهم لم يكونوا إلا سكان البوادي قول أذاعه المستشرقون الذي يهمهم أن يثبتوا أن الحضارة العربية أخذت عن مصر وفارس واليونان وليس فيها أثر عربي أصيل.

والتاريخ الصحيح يقول بغير ذلك، فالعرب في الجاهلية كانت لهم حواضر في الحجاز واليمن والشام والعراق، وكان لهم في تلك البلاد آداب وفنون، ولو عاش قصر غمدان وقصر الخورنق لاستطعنا أن نعرف كيف فهموا قواعد النحت والتصوير وكيف برعوا في تسجيل حوادث التاريخ.

ولنفرض أن العرب جهلوا النحت والتصوير كل الجهل، فكيف جاز مع هذا الفرض أن ينهاهم الإسلام عن النحت والتصوير؟ وهل ينهى الإسلام عن شيء غير موجود؟.

قل كلاماً غير هذا الكلام يا أستاذ أمين ليصدق الناس دعواك!

قد يقال: وأين آثار النحت والتصوير في البلاد العربية؟

ونجيب بأن ذلك كله بدده الإسلام عامداً متعمداً ليذهب آثار الشرك والوثنية!

وهل تعرفون كم أثراً فنياً حطمه المسلمون بمكة يوم الفتح؟

لقد كانت مصر مملوءة بغرائب التماثيل فحطمها المسلمون ليمحوا شواهد الوثنية الفرعونية. والذي قرءوا التاريخ يذكرون ما فعل الشيخ محمد صائم الدهر: فقد طاف بمصر من الشمال إلى الجنوب ليهشم ما ترك المصريون القدماء من الأصنام والأوثان، وهو الذي جدع أنف أبي الهول، ولو استطاع لحوله إلى رماد.

وبعد إسلام أهل مصر بقيت فيهم بقايا من احترام تمثيل الأسود فكانوا يقيمونها فوق قناطر النيل، وكان الشيخ محمد صائم الدهر يسطو عليها من وقت إلى وقت فيهشم منها ما يستطيع.

فإن مررتم على جسر إسماعيل بقصر النيل ورأيتموه محروساً بأسدين فتذكروا أن تلك الصور الأسدية ليست إلا رجعة إلى ما كان يصنع المسلمون في تزيين قناطر النيل بصور الأسود. وإن زرتم أطلال الكرنك ورأيتم مداخل القصر محروسة بعشرات الأسود فاعرفوا أن هذا من ذاك.

توهم احمد أمين أن دين العرب في الجاهلية كان أرضياً وضيعاً، فكان ذلك التوهم سناداً يركن إليه في تحقير التشبيهات الجاهلية، فهي عنده لاصقة بالأرض وشاهد ذلك أن الجاهليين يشبهون الحيوان بحيوان مثله كتشبيه الناقة بالظليم أو بالثور الوحشي أو بالنعامة أو بالأتان واحسب أن لو قال هذا الكلام تلميذ بالسنة التوجيهية لسقط في الامتحان أبشع سقوط.

فتشبيه الناقة بالظليم أو بالثور الوحشي تشبيه مقبول جداً، وليس مادياً لاصقاً بالأرض لأن وجه الشبه هو السرعة لا الشكل، والسرعة صورة معنوية.

أحمد أمين يريد في الواقع أن يقول إن الناقة شبهت بحيوان يعيش في الأرض لا في السماء، وآية ذلك أنه عاب على امرئ القيس أن يشبه الفرس بجلمود صخر حطه السيل من علٍ، وقال:

(إن غير العرب شبهوا سرعة الفرس بالبرق)

ذلك كلام احمد أمين، وما تفتري عليه

فهل رأيتم كلاماً أغرب من هذا الكلام؟

أنا أنتظر رأي أساتذة البلاغة بكلية الآداب والأزهر ودار العلوم

هل من الصحيح أن تشبيه سرعة الفرس بالبرق أدق من تشبيه سرعته بجلمود صخر حطه السيل من شواهق الجبال؟.

إن تشبيه سرعة الفرس بالصخرة التي حطها السيل من شاهق لا يقف عند السرعة وإنما يتعداها إلى الثقل. فالفرس عند العدو ثقيل جداً بحيث لا يملك مراعاة ما قد يعترض الطريق من شجرة أو جدار، وكذلك لا تملك الصخرة الانحراف من جانب إلى جانب حين تنحط من شاهق.

أما تشبيه سرعة الفرس بسرعة البرق فهو تشبيه لا يقبل إلا عند من يرحب بالأخيلة البهلوانية.

وأين الفرس من البرق؟

إن ما يقطعه البرق في لمحة واحدة قد يعجز عنه الفرس في الأعوام الطوال

والغرض من التشبيه هو تقريب بعض الصور من بعض، أما الإغراب في التشبيهات والاستعارات فيهو سخف مرذول.

وأحمد أمين الذي تعجبه الصور السماوية كصورة البرق هو نفسه أحمد أمين الذي عاب على العرب أن يتصوروا مصير الغميصاء بعد فراق سهيل.

(زعموا أن الغميصاء وسهيلاً كانا مجتمعين فانحدر سهيل فصار يمانياً، وتبعته العبور فعبرت المجرة، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت).

تلك هي الأسطورة العربية التي استسخفها أحمد أمين، ولو كان يعرف تاريخ الأساطير لأدرك أن هذه الأسطورة فيها ملامح يونانية، فالنجم الذي يهوي من موضع إلى موضع هو إلهة عاشقة تنحدر لموعد غرام مع إله معشوق.

وكانت الغميصاء المسكينة على موعد مع معشوقها سهيل، ولكنها عجزت عن عبور المجرة فظلت تبكي حتى أصابها الغمص.

ولو كانت هذه الأسطورة يونانية لا عربية لعدها احمد أمين من غرائب الخيال، وعد أصحابها من الزاهدين في الأرض والمفتونين بالسماء!.

وأنتِ كذاكِ قد غُيِّرتِ بعدي = وكنتِ كأنك الشعري العبورُ

ثم ماذا؟ ثم ماذا؟

ثم رأى أحمد أمين أن دين العرب في الجاهلية قد ظهر أثره في وصفهم للمرأة، فهم (لم ينظروا في المرأة إلا إلى جسمها. لقد أدركوا تمام الإدراك جمالها الحسي، ولكنهم لم يدركوا جمالها الروحي. ولعوا بقدها الممشوق، وعيونها الدعج، ووجهها الوردي، وخصرها النحيل، وردفها الثقيل، وما شئت من أعضائها وأجزائها. فأما روحها السماوي وجمالها الروحي، وتعشق روح الشاعر لروحها والشعور بأنها مصدر وحيه وإلهامه فشيء لم يستطع إدراكه الشاعر الجاهلي).

ثم يصرح بأن الوقوف عند هذه المعاني في النظر إلى المرأة شيء مخجل (؟)

أما أنا فأقول بأن نظرة الشاعر الجاهلي إلى المرأة نظرة سليمة تدل على الفحولة والفتوة، فجمال المرأة، جمالها الصحيح، هو في نواحيها الحسية، وليس من العيب أن يقول الرجل إنه يشتهي المرأة شهوة حسية، وإنما يعيب الرجل ألا يملك من المرأة غير أنس الروح بالروح.

إن أحمد أمين يحب أن يكون روحاً لطيفاً شفافاً يؤذيه أن يتحدث الناس عن العيون الدعدج، والقد الممشوق، والخصر النحيل.

هو يحب أن يضاف إلى رجال الأخلاق!

أما أنا فأبغض أشــد البغض أن أضــاف إلى هذا الطراز من رجال الأخلاق أنا أفهم جيداً أن المرأة لا تهم الرجل إلا إن كانت أنثى فيها جميع خصــائص الأنوثة، الخصــائص التي تشعر بأنها متاع جميل، والتي تحمله على أن ينظر إليها نظر السد الهصور إلى الرشأ الربيب.

ولا يمكن للمرأة أن تكون مصــدر وحي وإلهام للرجل إلا إذا اشـتهاها شـهوة حسـية، ومن قال بغير ذلك فهو رجل ضعيف لا يدرك جوهر الصلات بين الرجال والنساء.

إن الأستاذ أحمد أمين يستقبح قول امرئ القيس:

وبيضــةِ خـدرٍ لا يـرام خبـاؤهـا   تمتعـتُ من لهـوبها غير مُعْـجَـلِ

فأين هو من الفحولة التي يهدر بها هذا البيت؟

قد يقول: وكيف يجوز للرجل الفحل أن يبكي وهو يستعطف المرأة؟

وأجيب بأن بكاء الرجل أمام معشــوقته ليس علامة ضــعف، وإنما هو علامة قوة، فالدمع في عين العاشق كالسم في ناب الثعبان؛ فالثعبان يخدر فريسته بالسم، والعاشق يخدر فريسته بالدمع.

وهنا أستأنس بكلمة قرأتها للأستاذ المازني في جريدة السياسة سنة ١٩٣٢ وهو ينقد قول شوقي.

(ما الحب إلا التضحية)

فقد عد هذه الكلمة باباً من الضعف، ومن عمى البصيرة، لأن الحب في حقيقة أمره ضرب من الأثرة والافتراس.

قولوا الحق يا بني آدم، فالنفاق خلق بغيض

قولوا الحق، واعترفوا بأن المرأة لا تهم الرجل إلا بوصــف أنها مخلوق جميل له عينان دعجاوان، وجبين مشرق، وجيد كجيد الريم، وقوام كالغصن الرطيب.

ولعل أحمد أمين يريد امرأة فيلسوفة لها عرقوب كشهر الصوم في الطول، ولها عين كعين الغميصاء تعينه على سهر الليل إلى أن يبزغ (فجر الإسلام).

والعجيب أن تصــدر هذه الأحكام عن رجل يكتب في الفلســفة من وقت إلى وقت، وقد غاب عنه أن في فلاســفة هذا العصــر رجل اسمه فرويد، وهذا الفيلســوف يرجع أعمال

الرجال إلى أصول شهوانية قد تسوق الناس من حيث لا يحتسبون. وما كان فرويد أول من نظر هذه النظرة فقد رأيت لها أصولاً في مؤلفات الشعراني، ومن قبل ذلك رأيت لها أطيافاً عند فقهاء الشريعة الإسلامية، وهم رجال أمعنوا في درس أسرار الطبائع.

فعمن أخذ أحمد أمين هذه الحذلقة في فهم الأدب النسوي؟

أغلب الظن أنه نقلها عن الكاتب المتحذلق توفيق الحكيم الذي زعم أن كل عبقري محروس بروح نسائية تفيض عليه الوحي من وراء الغيب!.

وكيف تستطيع المرأة أن تسيطر على الرجل عند اليأس من طيباتها الحسية؟

إن الرجل قد يذكر المرأة بالشوق بعد أن تموت، ولكن ذلك لا يمنع من أن الأخيلة الحسية لها دخل في تسعير ذلك الشوق.

أقول هذا وأنا أعرف أن في بني آدم من يوحي إليه الرياء بتكذيب هذه البينات، ولكن ماذا يهمني وأنا حريص كل الحرص على الجهر بكلمة الحق؟.

إن الوثنية اليونانية التي يمجدها أحمد أمين قد جعلت للآلهة شهوات ولذات، فكيف يستنكر أن تكون لشعراء الجاهلية شهوات ولذات؟.

إن أفروديت وهي من الآلهة في الوثنية اليونانية قد صهرها الغيظ حين سمعت بأن في الأرض إنسانة جميلة تستهوي قلوب الرجال، وكان من آثار ذلك الغيظ أن قامت بدسائس خبيثة للفتك بتلك الإنسانة التي وصلت أخبارها إلى سكان السماء.

الحق كل الحق أن الجمال الحسي هو كل شيء في المرأة، وهي تصل إلى الكمال حين يؤيد جمالها الحسي بالجمال الروحي، كأن تكون على جمالها ذات عقل وأدب وعفاف.

وهل تعرفون كيف كان العفاف فضيلة؟

كان العفاف فضيلة لأنه تمكين للرجل من السيطرة المطلقة على مواقع هواه، فهو فضيلة لوحظت فيها الأثرة الرجلية.

ما هذا الذي أقول؟

أراني أهيئ الفرصة لثرثرة من لا يفهمون دقائق علم الأخلاق، وأنا أحب أن أسلم من ثرثرة أولئك الناس.

الذي يهمني هو النص على أن شـعراء الجاهلية صـوروا الفطرة السـليمة حين جعلوا الأنس بالمرأة الجميلة من النعيم المحسـوس ولم يجعلوه من النعيم المعقول ولو رزقني الله شـيئاً من الصـراحة لقلت: إن الشـهوات هي في الأصـل من أجل نعم الله على عباده، وما اسـتنكرها رجال الأخلاق إلا بسـبب الإسـراف. أما الشـهوات في حد ذاتها فهي من دلائل العافية: والعافية نعمة جزيلة ينعم بها الله على من يشاء.

وفضـيلة العفاف، وهي فضـيلة نبيلة لا يقام لها وزن إلا حين تصـدر عن رجال مزودين بحيوية الشهوات، فطغيان الشهوة ملحوظ عند النظر في فضيلة العفاف. أما عفاف العاجزين عن الفجور فهو لا يستحق أي ثناء، ولا يضـاف صـاحبه إلى أهل الكمال وإن لبس مسوح الرهبان.

ويجب أن يكون مفهوماً أن الشـهوة الحسـية لها صـلة بتفوق الرجال في الميادين العقلية، فالرجل الآمن من طغيان الشـهوات محروم من نعمتين: نعمة القدرة على فهم الجمال، ونعمة القدرة على مجاهدة الأهواء.

وكذلك يصح القول لأن الرجل العاجز لا يستطيع أبداً أن يتسامى إلى منزلة أصحاب الأخلاق.

فهل ترونني وصـلت إلى إقناعكم بأن أحمد أمين أخطأ حين عاب على شـعراء الجاهلية أن يجعلوا المرأة من المتاع الجميل؟.

أنا أعرف أني أوذي نفسـي بهذه التحليلات، وأعرف أنها قد تصـورني بصـورة الرجل الفاتك، ولكن ماذا أصنع وأنا أريد أن أصدق كل الصدق وأنا أحادث القراء؟.

وهل كتب على الدراسات الأدبية والفلسفية في مصر أن تقوم على قواعد الرياء؟

اسمعوا مني كلمة الحق في هذه الشـؤون قبل أن تسـمعوها من باحث يعيش في لندن أو باريس، فمن العار أن نعجز في عصـر النور عما قدر على شـرحه الأسـلاف في عصـور الظلمات.

أما بعد فهناك مكاره سيصلاها أحمد أمين في المقالات الآتية وسيعرف أن التجني على ماضي الأدب العربي لا يمر بلا حساب.

وأنا أرجوه أن يترفق بنفسه فلا يصر على تحقير الأرومة العربية وتمجيد الأرومة اليونانية، فقد أستطيع أن أحدثه بأن العرب الذي غلبت عليهم شهوات الحواس هم الذي استطاعوا بفضل فحولتهم أن يدحروا اليونان وأن يحولوهم إلى أحلاس في حوانيت الزيتون والسردين.

وقد حدثنا أحمد أمين بأن العرب انحطوا في جاهليتهم بسبب تلك الوثنية الأرضية الوضيعة، ثم حدثنا بأن القرآن لم يرفع عقليتهم، مع أنه وحي سماوي رفيع، فهل يتأثر العرب بالوثنية ولا يتأثرون بالإسلام؟ سنعرف وجه الحق في هذه القضية، في الأسبوع المقبل، وإنه لقريب.

- ١٤ -

أبدأ حديث اليوم بالاعتذار لفريق من القراء يريدون أن نكثر من الشواهد كما صنعنا عند الكلام عن إحساس ابن خفاجة بالطبيعة والوجود، فالنضال بيني وبين حضرة الأستاذ أحمد أمين يمس شؤوناً لا تهم غير الخواص، وهم في غنى عن سوق الشواهد وضرب الأمثال.

أما الأديب الذي كتب من القدس ولم يذكر اسمه ولا عنوانه فأنا أرجوه أن يعفيني من إثبات رأيه في الأستاذ أحمد أمين لما فيه من إيذاء. وأما رأيه في فلا يحتاج إلى إثبات؛ ولعله استقاه من كتاب (ليلى المريضة في العراق) وأنا راض عما شهدت به على نفسي في أكثر مؤلفاتي. وكنت أستطيع أن أقول إن العيوب التي أضفتها إلى نفسي ليست صحيحة، وإنما جعلت نفسي صورة إنسانية أدرس على حسابها ما في الناس من محاسن وعيوب، ولكني في الواقع لا أهتم بأقاويل الناس ولا أقيم وزناً للأراجيف، لأني مؤمن أصدق الإيمان بأن الناس لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فهم أعجز من أن ينفعوني أو يضروني؛ وأنا فوق ذلك أعرف أن الأساس السليم هو خلوص النية، وسلامة ما بيني وبين فاطر الأرض والسماوات، وهو عز شأنه يعلم ما بينه وبيني، ولولا فضله ورحمته وستره لكنت اليوم من الهالكين.

كم تمنيت لو استطعت شكر الله على نعمه وآلائه، ولكن هيهات، فلله نعم تجل عن الحمد والثناء، ومن تلك النعم نعمة الرضا المطلق بما كتبه وقضاه، فما أذكر أبداً أني جزعت أو ضجرت من مكروه يلم بي. وهناك نعمة أعظم تفضل بها علي الله، وهي الأيمان بأنه تباركت أسماؤه هو وحده القادر على الضر والنفع، فما خشيت غيره ولا رجوت سواه.

فأن كنت صادقاً فعند الله جزاه الصدق؛ وان كنت كاذباً فالله وحده هو الذي يملك ستر العيوب، وغفر الذنوب، وعليه أعتمد في نجاتي من شر نفسي.

مولاي أنا أحب أن أكثر من الثناء عليك، ولكني أخشى الوقوع في مزالق الرياء، فارض مني بالقليل يا من لا يعرف القليل في الإحسان إلى العاصين والطائعين.

إن الكافرين بنعمتك لم يفتهم برك وإحسانك، فكيف يفوتني لطفك وعفوك وسترك وأنا في سريرة نفسي من أخلص عبادك.

مولاي، إليك الأمر كله فافعل ما تشاء، ولن تراني إلا حيث تحب في جميع الأحوال

أرجع كارهاً إلى محاسبة الأستاذ أحمد أمين:

صرح الأستاذ بأن الدين له أثر كبير في الأدب (لأنه من ناحية مصدر كبير من مصادر الإلهام الأدبي، ومن ناحية أخرى كان الأديب ذا دين وثني جامد تأثر أدبه بعقليته فخرج مثله مادياً جامداً، وإذا كان دينه ضيق الخيال لاصقاً بالحجارة والأرض كان خياله في أدبه غالباً كذلك، لأن نفسية الإنسان وعقليته وحدة لا تتجزأ، وان اختلفت مناحيها ومظاهرها. من أجل هذا نرى الأدب الجاهلي في الكثير الأغلب مادياً لا معنوياً، ولا روحياً).

ذلك كلام أحمد أمين. وهو بهذا الكلام يضع قاعدة أدبية: هي تأثر الأدب بالدين

فدين الجاهلية في رأيه دين أرضي وضيع، وكذلك كان أدبهم، لأن الأدب من صور الدين.

ولكن العرب لم يطل عهدهم بالوثنية فقد أنعم الله عليهم بالإسلام، وهو دين سماوي رفيع، فكان الواجب أن يتأثر أدبهم بذلك الدين فيسلم من تلك الصبغة الأرضية الوضيعة.

منطق الأستاذ أحمد أمين يقضي بذلك

ولكن الرجل يصر على رأيه في تحقير العقلية العربية فيجزم بأن الشعر العربي لم يتغير بعد الإسلام، وإنما ظل في أسر العقلية الجاهلية.

فهل يكون معنى ذلك أنه كان مخطئاً حين قال بتأثر الأدب بالدين؟

أم يكون معنى ذلك أن الإسلام لم يستطع أن يمحو تلك العقلية الجاهلية

لا هذا ولا ذاك

فالعرب في جاهليتهم تأثروا بالوثنية، وتأثروا في إسلامهم بالإسلام، ولكن أحمد أمين يمزح في مواطن لا يقبل فيها المزاح.

وإلا فمن الذي يقول بأن الشعر العربي لم يتغير ولم يتطور بعد ظهور الإسلام؟

هل كان في الجاهلية شاعر كأبي العتاهية في الزهديات؟

هل كان فيهم شاعر كالشريف الرضي في الحجازيات؟

هل كان قيهم شاعر كأبي نواس في الخمريات؟

كان فيهم شاعر كابن المعتز في التشبيهات؟

هل كان فيهم شاعر كابن الفارض في الوجدانيات؟

هل كان فيهم شاعر كابن خفاجة في الورديات؟

هل كان فيهم شاعر كشوقي في التاريخيات؟

هل كان فيهم شاعر كحافظ في الاجتماعيات؟

وهل استطاع الشعراء الجاهليون أن يصنعوا ما صنع الشعراء الإسلاميون في تنويع القوافي والأوزان؟.

هل عرفوا الابتكار الذي ابتدعه الأندلسيون والمصريون والعراقيون؟

هل عرفوا تسجيل التاريخ بالشعر كالذي صنعه بعض شعراء مصر والأندلس؟

إن أحمد أمين يشهد على نفسه بما لا أدري حين يحكم بأن الشعر الإسلامي صورة من الشعر الجاهلي؛ وإلا فإن ضاق ذرعاً بهذا الوصف فليدلنا على باحث يؤيده في هذا الرأي الغريب.

وهل في الدنيا كلها رجل يجرؤ على القول بأن الشعر الإسلامي في مختلف عصوره ليس إلا نسخة ثانية من الشعر الجاهلي؟.

إن احمد أمين افتتح مقالاته في مجلة الثقافة بتلخيص كتاب الموشي، وهو كتاب يشرح أفانين الشعراء في وصف حياة القصور وملاعب الترف واللين.

فهل كان في شعراء الجاهلية من يعرف تلك الأفانين؟

ومن هم العرب بعد الإسلام في ذهن أحمد أمين؟

يجب أن نعرف أولاً من هم العرب في ذهن هذا (الأديب) فظاهر كلامه يدل على أنهم سكان البوادي العربية، وسكان البوادي يتطورون تطوراً بطيئاً جداً، وقد تظل أحوالهم متقاربة الأشكال والأوضاع ألوفاً من السنين. ومع ذلك لا يمكن القول بأن الإسلام لم يغير سكان البوادي ولم ينقلهم من حال إلى أحوال في العقائد والتصورات، لأن الإسلام رجّ البوادي العربية رجة عنيفة وحول سكانها إلى رجال مؤمنين يتابعون ما في القرآن من صور النعيم والعذاب. ولو أن أشعار سكان البوادي دُوِّنت وعرفت مغازيها ومراميها لاستطعنا أن نعرف إلى أي حد أثر الإسلام في تلوين الصور الشعرية عند سكان البوادي العربية ولكن أحمد أمين قد لا يرضى بظاهر كلامه فيقول إن العرب بعد الإسلام هم الأمم التي تكلمت لغة القرآن في الشرق والغرب بعد ازدهار الحضارة الإسلامية.

إن قال ذلك فقد حق عليه الخطأ فيما ادعاه من ضعف سيطرة القرآن على الأخيلة الشعرية في تلك الشعوب.

إن أحمد أمين لم يدرس الشعر الإسلامي دراسة جدية، وماضيه العلمي يشهد بذلك، فأعماله كلها كانت محصورة في الدراسات الشرعية والأخلاقية، ولو شئت لذكرته بالأساس الذي أقيم عليه كتاب فجر الإسلام، فقد كان مفروضاً أن يدرس أحمد أمين تطور التأليف، وأن يدرس طه حسين تطور الأدب، وأن يدرس عبد الحميد العبادي تحول السياسة. فالرجل في نفسه وفي أنفس زملائه مؤلف لا أديب.

وما يعيب أحمد أمين ألا يكون أديباً، فله مواهب في شؤون غير شؤون الأدب تعوض عليه هذا النقص. ولو وقف حياته على دراسة الفقه والتوحيد لظفر بنصيب من التفرد والتفوق.

ولكن يعيب أحمد أمين أن يحاول فهم سرائر الشعراء والكتاب والخطباء، وهو ليس بالشاعر أو الكاتب أو الخطيب.

وشاهد ذلك موجود: فهو يحكم بأن الشعراء لم يتأثروا بالقرآن، مع أنه لو نظر في كتب البلاغة وكتب الأدب لعرف أن تضمين آيات القرآن كان من الأغراض الملحوظة عند الشعراء، ولعرف أيضاً أن حفظ القرآن كان من الفرائض التي يتواصى بها الشعراء.

لو درس أحمد أمين تاريخ الأدب لعرف أن في الشعراء من كان يقيد نفسه حتى يحفظ القرآن، ولعرف أن أبا إسحاق الصابي وهو على غير الملة الإسلامية كان يقرأ سوراً من القرآن قبل أن يسرع في النظم أو الانشاء، حتى صح القول بأن بلاغة القرآن كانت تجري على سنان قلم أبي إسحاق.

ولما اتهم أبو تمام بأنه يشبه ممدوحة بأجلاف العرب ارتجل فقال:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والياس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وهذه البديهة تشهد بان أخيلة القرآن كانت تلاحق ذلك الذهن الفنان

واتفق مرة أن اعترض أحد الأدباء على الاستعارة في قول حبيب:

لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي

وأرســـل خادمه يقول: إن مولاي يرجوك أن تملأ هذه الكأس من ماء الملام! فقال حبيب: قل لمولاك يتفضل أولاً بإرسال ريشة من جناح الذل!.

فهل هناك أبلغ من هذه الشواهد في الدلالة على أن الشعراء كانوا يتأثرون أشد التأثر بأخيلة القرآن؟.

وهنا مسألة دقيقة قد ينتفع بها الأستاذ أحمد أمين، وهي مسألة لم تدرس قبل اليوم، وسيكون لها صدىً في البيئات التي تهتم بدراسة الشعر الجاهلي.

وتلك المسألة هي تأثير القرآن في الشعر الجاهلي نفسه. ولكن كيف؟ إن هذا لو صح لكان من الغرائب. وهل يؤثر القرآن في الشعر الجاهلي مع أن الشعر الجاهلي أسبق؟.

نعم، القرآن أثر في الشعر الجاهلي تأثيراً شديداً فقد وضعه في الغربال ولم يستبق منه غير ما كان بلغة قريش، وهي لغة القرآن.

فالأشعار الجاهلية التي شرقت وغربت بعد الإسلام هي الأشعار التي تساير القرآن من الوجهة اللغوية والنحوية، بغض النظر عما أثر من الشـــذوذ القليل الذي احتاج إليه اللغويون والنحويون والصرفيون.

وهذا (التوجيه) الذي صـــنعه القرآن كانت له يد في (توحيد) اللغة العربية. فلولا القرآن لظل الشعر الجاهلي مختلف الصيغ والأوزان والأشكال، ولكان باباً إلى (بلبلة) الذوق العربي باختلاف اللهجات والأذواق.

فالقرآن هو الذي ساق العرب على اختلاف قبائلهم ومواطنهم ولهجاتهم في تيار واحد. وهو الذي جعل من الشعر الجاهلي سناداً لما فيه من ألفاظ وتعابير، بحيث لم يبق من ماضي الجاهلية غير ما أراد به القرآن أن يعيش.

فلا تقل يا أحمد أمين أن الشعر الجاهلي قد استبد بالعقلية الإسلامية، ولكن قل إن الإسلام هو الذي استبد بالأشعار الجاهلية وصيرها من شواهد القرآن.

وهناك مسألة أدق، وقد ينتفع بها من يؤرخون الأدب العربي، وهي سبق القرآن إلى غزو الأذواق والقلوب في البلاد التي فتحها المســـلمون. فالمعروف عند المؤرخين أن الحياة الدينية كانت تسبق الحياة الأدبية في كل بلد يدخله الإسلام، لأن الإسلام شريعة مدنية واجتماعية، قبل أن يكون شريعة أدبية وذوقية. فالفرس والهنود والمصريون والأندلسيون سمعوا القرآن قبل

أن يسمعوا الشعر الجاهلي. وكذلك كان القرآن أسبق إلى تلوين ما صار عند تلك الأمم من شمائل وأذواق.

وأحمد أمين صرح بأن الأدب يتأثر بالدين فكيف جاز عنده ألا يتأثر السلمون بأدب القرآن وهم يقرءون سوره في الصلوات ويتدارسونه صباح مساء؟.

إن البيت الواحد من الشعر قد يؤثر في نقل الذوق من وضع إلى وضع، فكيف يجوز أن يحرم القرآن هذه المزية وهو يحمل مئات من الأخيلة والتعابير والمعاني؟.

إن القرآن هو أساس ما عرف المسلمون من المذاهب التشريعية والفلسفية، وهو عندهم المرجع في الشواهد اللغوية والنحوية والبلاغية، فكيف يمر سحره القاهر بدون أن يؤثر في أذواقهم الأدبية؟.

أليس من العجيب أن يقع هذا القول من أحمد أمين وهو يعرف أن وزارة المعارف المصرية توجب على معلم اللغة العربية أن يحفظ القرآن؟.

إن كلية الآداب التي يتشرف بالانتساب إليها أحمد أمين قد اعترفت بخطر حفظ القرآن، ورضيت بألا يكون لخريجيها حظ في تدريس اللغة العربية بالمدارس الأميرية إلا إن كانوا في الأصل من طلبة الأزهر الشريف.

فما معنى ذلك؟

أليس معناه أن الأمم الإسلامية قد توارثت الاعتقاد من جيل إلى جيل بأن القرآن له تأثير شديد في تكوين الذوق اللغوي والأدبي؟.

ألم يسمع أحمد أمين بأن الأستاذ مكرم باشا حفظ القرآن ليروض لسانه وذوقه على الفصاحة العربية؟.

ألم يسمع أحمد أمين بأن الدكتور يعقوب صروف كان يملك خمس نسخ من القرآن ليستطيع الأنس بالبلاغة القرآنية في كل وقت؟.

ألم يسمع أحمد أمين بأن من المبشرين من عاش متنكراً في الأزهر بضع سنين ليتذوق بلاغة القرآن لكي يتسنى له أن يواجه الجماهير بلسان عربي مبين؟.

ما معنى ذلك أيها الناس؟

معناه أنه صار مفهوماً عند كل مخلوق أن القرآن أس متين من أساس الفصاحة العربية، فكيف جوز القول بأنه لم يؤثر في أخيلة الكتاب والشعراء والخطباء؟.

أقول هذا وذهني خال خلواً تاماً من العصبية الدينية، فليس من همي أن أخلق أصدقاء للقرآن، وان كان ذلك مما يشرفني لو تساميت إليه، وإنما أنا رجل أشتغل بتدريس اللغة العربية، وفي تلاميذي مسلمون ونصارى ويهود، ومن واجبي أن أرشدهم جميعاً إلى الحرص على تذوق البلاغة القرآنية، لأنها بلغت الغاية في الدقة والعذوبة والجمال.

وأريد أن أستقصي هذا الموضوع بعض الاستقصاء، فقد تضيق الفرص عن درسه بالتفصيل فيما بعد.

إن أحمد أمين يقف عند الشعر في درس تأثير القرآن، لأن الوقوف عند الشعر ينجيه قليلاً من المعاطب، إن كان من الممكن أن يعرف سبيل النجاة بعد أن وقع منه ما وقع وهو لنفسه ظلوم.

وللأستاذ أحمد أمين أن يسلك من مذاهب النجاة ما يشاء، أما أنا فسأطوقه بطوق من حديد فلا يعرف سبيل الخلاص وإن بالغ في التشكي والتوجع، واستعدى علينا بفلانة وفلان.

لابد أن يكون أحمد أمين قد سمع بتأثير الإنجيل في الأدب الفرنسي، ولا بد أن يكون سمع بأن شاتوبريان تأثر في أدبه بأخيلة الإنجيل.

فهل يمكن القول بأن أثر القرآن في اللغة العربية أقل من أثر الإنجيل في اللغة الفرنسية؟

إن أحمد أمين يقتل نفسه عامداً متعمداً، إن قال بذلك؟

وأتحداه أن يقول، أتحداه، أتحداه، إن وجد السلامة في غير الصمت!

اسمع أيها الصديق

إن القرآن قص على الناس أخبار الأنبياء، فهل تعرف ما ابتدع المسلمون من الأقاصيص حول الأنبياء؟.

وهل تعرف كم مرة تعرض المسلمون لشرح ما في القرآن من أخبار وأقاصيص؟

وهل تعرف عدد التفاسير التي ظفر بها القرآن المجيد؟

حدثنا القرآن عن بعض أخبار يوسف مع فرعون، فهل تعرف أن هذا الحديث كان له مئات أو ألوف من الحواشي والذيول.

ألا تصدق أن هذه الثروة القصصية أثر من آثار القرآن؟

وهل يعرف أحمد أمين أن جميع العلوم التي عرفها المسلمون كان لها ثمرة هي تأييد القرآن

لقد استطاع القرآن أن يؤثر في كل شيء حتى العلوم الرياضية فهي عند أهلها تأييد لآيات القرآن المجيد.

والذي يراجع أحوال العرب والمسلمين في حياتهم العلمية والأدبية يراهم يدورون حول القرآن في أكثر الشؤون.

وفي مطلع كل علم نرى الأبيات التي تقول:

إن مبادئ كلِّ فنّ عشرة الحدّ والموضوع ثم الثمرة

و (الثمرة) في أغلب العلوم ترجع إلى تأييد القرآن من الوجهات التشريعية واللغوية والعقلية. فعلوم الفقه والتوحيد والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع يراد بها جميعاً فهم ما يشتمل عليه القرآن من أغراض علمية أو أدبية.

وقد نقدت ذلك في كتاب النثر الفني حين تكلمت عن مذاهب كتاب النقد الأدبي، ولكن ذلك النقد لم ينسني خطر الحرص البادي من المتقدمين على فهم دقائق القرآن.

ومعنى هذا الكلام بطريقة صريحة أني كنت أحب أن تكون العلوم اللغوية والأدبية مقصودة لذاتها، بغض النظر عن جعلها وسيلة لفهم أسرار الإعجاز في القرآن المجيد، ولكني ما كنت أعلم أن سيجيء رجل كالأستاذ أحمد أمين يحكم بأن القرآن لم يؤثر في الحياة الشعرية، ويقول إن ما وقع من العرب لا يصح وقوعه إلا (في الطبيعة القاصرة، والملكات المحدودة) مع أن العرب قد استوحوا القرآن في جميع الشؤون وجعلوا الأدب كله وسيلة لفهم ذلك القرآن.

وخلاصة القول أن حفظ القرآن وفهمه كان من الوسائل التي يتذرع بها الشعراء والكتاب والخطباء للتفوق في البيان، فكيف يجوز القول بأن الشعراء لم ينتفعوا به في تطور التعابير والأغراض؟.

ولنذكر دائماً أن العرب بعد الإسلام لم يكونوا أمة واحدة، فقد انتشرت اللغة العربية في أقطار كثيرة مختلفة المشارب والأذواق، وكان المتعلمون بها يشارفون المائتين من الملايين، فهل يمكن الحكم بأن تلك الأمم جميعاً أصابها العقم فلم تنتفع واحدة منها بأسلوب القرآن؟.

وهل هذا يعقل إلا عند من يسارعون إلى ارتجال الأحكام بلا مراجعة ولا استقصاء؟

إن مؤرخي الأدب الفارسي ومؤرخي الأدب التركي نصوا على أن القرآن أثر في هذين الأدبين تأثيراً بليغاً، فكيف يجوز ألا يتأثر الأدب العربي بالقرآن وهو به ألصق، واليه أقرب، ومن أخيلته وألفاظه وتعابيره يستمد القوة والحيوية؟.

أنا لا أستسيغ القول بأن الأدب العربي وصل إلى ذلك الحد من الجمود في الاستفادة من القرآن مع أنه استفاد من كل ما وصل إليه من ثمرات الآداب الأجنبية، وقد استطاع بالفعل أن يؤرخ الحضارة التي عرفها في الشرق والغرب، بحيث صار مرآة لما رآه العرب في الممالك الأسيوية والإفريقية والأوربية.

ولا ينكر ذلك إلا رجل يكابر فيما تلمسه الأيدي وتراه العيون

وأختم كلمة اليوم بعرض فكرة لا يختلف فيها اثنان

وتلك الفكرة هي تأثير القرآن في وحدة اللغة العربية، فبفضل القرآن امتدت الحياة في لغة قريش نحو خمسة عشر قرناً. ولو أن العرب خلت حياتهم من الدعوة الإسلامية لكان من المستحيل أن يكون في الدنيا إنسان يفهم ما أثر من لغة قريش قبل الإسلام بقرن أو قرنين.

وإنما استطاع القرآن أن يحفظ وحدة اللغة القرشية، لأنه كان مفهوماً في كل أرض أنه نموذج عال للبلاغة العربية، فكانت البلاد الإسلامية ترجع إليه في صيانة لسان العرب من البلبلة والانحراف.

والكتاب الذي تسود لغته فيما اختلف وائتلف من الأقطار الإسلامية لا يبقى بينه وبين أذواق الشعراء حجاب.

وماذا يريد هذا الأستاذ المفضال؟

أيريد أن يُلغي الناس عقولهم ليصدّقوا أحكامه الخواطئ على ماضي الأدب العربي؟

إن جميع القراء قد اتفقوا على أن قدمه زلت وهو يحاول تزهيد الجمهور فيما ورثناه عن الآباء والأجداد من الثروة اللغوية والأدبية. ولو أنني استبحت نشر ما سمعت من أصدقائه

الأوفياء في نقد ما انزلق إليه، لمادت الأرض تحت قدميه، وعرف أنه يتعلق بخيوط الأوهام حين يظن أن في القراء من ينظر إلى أحكامه الأدبية بعين الاستحسان.

إن الأســـتاذ أحمد أمين يعاني اليوم أزمة أخلاقية، لأنه يعرف أن الاعتراف بالخطأ من مكارم الأخلاق. فإن لم يعترف بخطئه طائعاً فســيتولى القراء هدايته إلى الحق. وهو يجني على نفسه إن كان يتوهم أن قراءه ليس فيهم من ينصب الميزان للتمييز بين الحقائق والأباطيل.

وسنرى في المقال المقبل شواهد جديدة من أحكام ذلك الرجل المفضال.

- ١٥ -

كنت حدثت القراء فيما سلف أني لم أهجم على الأستاذ أحمد أمين إلا بعد أن صح عندي أنه يسيء إلى نفسه وإلى الأدب العربي إساءة خطرة تستوجب المسارعة إلى تعريفه بخطر ما يصنع عساه يثوب إلى رشده فيرجع إلى الصواب.

وفي مطلع حديث اليوم أثير مشكلة تحدث بها إلى تلاميذه في كلية الآداب وكان لها صدىً، هو حيرة بعض الشبان الذين كانوا يثقون برجاحة العقل عند ذلك الأستاذ المفضال.

وما الذي حدَّث به تلاميذه في تلك الكلية؟

حدثهم أن من رأيه ألا يدرس الأدب العربي في المدارس الثانوية ولا المدارس العالية، وأن الواجب أن يُقصَر درس الأدب العربي على المختصين في دراسة تلك اللغات (؟!).

هذا كلام نقله إلينا كثير من طلبة كلية الآداب، فهل هو صحيح؟

يجب على الأستاذ أحمد أمين أن يسارع إلى تكذيب هذا الكلام، إن كان من المفتريات، ويجب عليه أن يحدد الغرض منه إن كانت نسبته إليه صحيحة، لأنا نحب ألا يعرض مركزه لأخطار الإشاعات والأقاويل.

والواقع أن الكلام المنسوب إلى الأستاذ أحمد أمين يتفق في روحه مع الآراء التي أذاعها في الأسابيع الأخيرة، فهو يقول صراحة بأن الأدب العربي في اغلب أحواله أدب له معدات لا أدب أرواح، وأنه لم يصور البلاد العربية والإسلامية، ولم يصف ما وقع فيها من أحداث اجتماعية، ولم يشهد بأن أهله أحسوا الطبيعة وتأثروا بألوان الوجود.

ومن الواضح أن الرجل يحترس في مقالاته أكثر مما يحترس في محاضراته، فما قال أحمد أمين في مجلة الثقافة ليس إلا صورة مهذبة لما أذاعه في كلية الآداب.

نحن إذن أمام فتنة جديدة، هي فتنة القول بأن الأدب العربي لا يصلح لتربية الأذواق في الجيل الجديد. وهذه الفتنة ليست من مخترعات أحمد أمين، فقد نجمت قرونها منذ أكثر من خمسين سنة حين أراد المستعمرون والمبشرون أن يوهموا أبناء الأمم العربية بأن الصلة بين ماضيهم وحاضرهم لم يبق لها مكان، وأن المصلحة تقضي بأن يوضع الأدب القديم في المتاحف، وألا يدرسه غير المتخصصين على نحو ما يصنع الأوربيون في الآداب اليونانية واللاتينية، ثم تُقبِل كل أمة على لهجتها المحلية فتجعلها لغة التخاطب والتأليف، وبذلك تكون

اللغة الفصيحة أُماً أو جدة للغات الشعوب العربية، كما صارت اللاتينية أُماً أو جدة للغات الشعوب اللاتينية. وقد صرح بذلك المسيو ماسينيون في خطبة ألقاها في بيروت سنة ١٩١٣ ونقدتها يومذاك بمقال أرسلته إلى جريدة (البلاغ) من باريس.

والحق أن الفتنة التي أذاعها المستعمرون والمبشرون كانت فتنة براقة خدّاعة تُزيغ البصائر والعقول، وقد انخدع بها من انخدع في الأعوام الماضية، فكانت المفاضلة بين الفصيحة والعامية من المشكلات التي تقام لها المناظرات في بعض المعاهد والأندية الأدبية. وقد وصل صدى هذه الفتنة إلى المجمع اللغوي بالقاهرة فانقسم الأعضاء إلى فريقين: فريق يقول بدراسة اللهجات المحلية وفريق يقول بأن الأفضل إنفاق المال في إحياء الأدب القديم، وقامت بسبب هذه المشكلة مساجلات فوق صفحات الجرائد بين الدكتور منصور فهمي والدكتور طه حسين.

والظاهر أن لأستاذ أحمد أمين من أنصار القول بإحياء اللهجات المحلية، فهو يدرس على صفحات مجلة الراديو المصري ألفاظ اللهجة المصرية باهتمام يدل على تأصل تلك الفتنة في نفسه الواعية!.

فهل تكون مقالاته في مجلة الراديو المصري نواة لمحاضراته عن الأدب العربي المصري بكلية الآداب في الأعوام المقبلات؟.

نحن فهمنا أن الغرض من إنشاء كرسي للأدب المصري بكلية الآداب هو درس الآثار الأدبية العظيمة التي أبدعها المصريون باللغة الفصيحة منذ فتح العرب مصر إلى اليوم لأن مصر تفردت بمزايا كثيرة بين الأمم العربية، فاعظم مكتبة عربية في العالم هي دار الكتب المصرية، وأعظم جامعة عربية في العالم هي الجامعة المصرية، وأعظم معهد إسلامي في العالم هو الأزهر الشريف، وأعظم صحافة عربية في العالم هي الصحافة المصرية، وأعظم معجم عربي وهو لسان العرب ألف في القاهرة، وأعظم كتاب في أسيرة النبوية وهو سيرة ابن هشام أُلِفَّ في مصر، وأعظم كتاب في تاريخ الإنشاء وهو صبح الأعشى ألفه أديب مصري هو القلقشندي، وأعظم موسوعة عربية وهي نهاية الأرب ألفها أديب مصري هو النويري، وأعظم شارح لمذاهب التصوف، وهو الشعراني، مصري من أبناء المنوفية. . . ومصر كانت الملاذ لعلماء العرب بعد أن اعتدى التتار الهمجيون على بغداد؛ ومصر كانت الملجأ لأحرار التفكير

من العرب حين اضطهدهم الأتراك في سورية ولبنان؛ ومصر كانت ولا تزال صلة الوصل بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية، وبفضل سواعد المصريين اندحر الصليبيون؛ وبفضل مصر حبطت دسائس المبشرين في الشرق وهم أعوان المستعمرين في تقويض دعائم الحضارة العربية.

فما الذي سيصنع أحمد أمين حين يدرس الأدب المصري بكلية الآداب؟

أترونه يفهم الغرض الأصيل من الأدب المصري فيرفع آصار الخمول عن مآثر المصريين في خدمة الأدب واللغة والتاريخ والتشـــريع؟ أم ترونه يتخذ مادة الدرس من الكلام عن أحاديث الحاجة خدُّوجة والمعلِّم مشحوت؟.

إن كلية الآداب لن تعيش بمنجاة من رقابة النقد الأدبي، ولن يهمس أحمد أمين بكلمة أو فكرة بدون أن تصل إلى من يهمهم معرفة جوهر الرسالة الأدبية التي تذيعها كلية الآداب، ولن يرن في أبهاء تلك الكلية صـــوت ينطق بالحق أو بالباطل إلا وحوله أرصـــاد من عقول الشبان الأذكياء الذين توّجههم عزائمهم وقلوبهم إلى أن يكونوا أبطال الفكر العربي الصحيح في العصر الحديث!.

وإني لموقن بأن أصدقائنا من أساتذة كلية الآداب يعرفون جيداً أن الأمة تنتظر أن يكون ذلك المعهد العظم أهلاً في كل وقت للأمانة العظيمة التي عهدتْ بها إليه، فلا يكون مسرحاً للآراء الفطيرة التي يذيعها بعض الناس في إحدى المجلات.

لقد رجونا ألف مرة أن تكون كلية الآداب بالقاهرة هي النبراس الذي تســـتضـــئ بها العقول في الشرق، وقد استطاعت تلك الكلية بفضل المتفوقين من أساتذتها وخريجيها أن ترفع لواء الدراسات الأدبية والفلسفية، فمن المجازفة بسمعتها العلمية أن تصفح عمن يقفون عند الحدود السطحية في فهم الأدب والتاريخ.

أقول هذا وقد كتب إليَّ أحد المتخرجين في تلك الكلية خطاباً يقول فيه: إن اللغة العربية ليست لغة المصريين. ولو شئت لصرحت باسم صاحب ذلك الخطاب، ولكنه صديق عزيز لا أحب أن أعرضه للاتسام بسمة الخطأ الذي وقع فيه أساتذة أحمد أمين وإنما يهمني نقض هذا الرأي لأنه على ضعفه يرفع رأسه من وقت إلى وقت، ويخيل للناس أنه قادر على الحياة وأنه يستطيع أن يمشي على رجلين أو على أربع، وأنه خليق بأن تُنصَبْ له الموازين!.

وهذه الشبهة لها صورة من صور الحق:

فاللغة العربية ليســـت لغة مصـــرية، وإنما هي في الأصـــل لغة أجنبية حملتها العقيدة الإسلامية.

هذه الشـبهة تحمل وجهاً جميلاً من وجوه الحق، ولكنها تذكر بحكاية اللص الذي رأى صاحب الدار يجول في أرجاء داره فصاح: من الذي هناك!.

أيها القراء

أسمعوا الحجج الآتية، ثم كذبوني إن استطعتم، ولن تستطيعوا أبداً. أنتم تعرفون أن أهل مصـر تكلموا اللغة العربية نحو ثلاثة عشـر قرناً، فهل تعرفون أن المصـريين تكلموا لغة واحدة ثلاثة عشر قرناً قبل أن يتكلموا اللغة العربية؟.

هل يســتطيع رجل من علماء الآثار المصــرية أن يثبت أن أهل مصــر كانت لهم لغة واحدة في أي عهد من العهود قبل أن يعرفوا اللغة العربية؟.

إن التاريخ يؤكد أن المصـريين قبل الإسـلام كانت لهم لغة في الشـمال ولغة في الجنوب، ويؤكد أنهم عرفوا لغة ثالثة هي اللغة اليونانية، وكانت لغة رسمية في بعض العهود، وربما استطاع التاريخ أن يقول إن مصر كان فيها ثلاث لغات: لغة لأهل مصر الوسطى ولغة لأهل الجنوب ولغة لأهل الشمال.

وقد يستطيع التاريخ أن يؤكد أن بعض الأقاليم المصرية عرفت اللغة العربية قبل الإسلام. والتشـابه بين اللغة المصـرية واللغة العربية أثبته كثير من الباحثين منهم المرحوم أحمد باشـا كمال وأحدِّد الغرض فأقول:

إن اللغة التي تسود سيادة تامة في قطر من الأقطار ثلاثة عشر قرناً لا تكون لغة أجنبية وإنما تكون لغة قومية. وسـيأتي يوم تسـمى فيه اللغة العربية باسـم آخر هو اللغة المصـرية، لأن العرب الأصـليين في حوا ضـرهم وبواديهم لا يتذوقون اللغة الفصـيحة كما يتذوقها المصـريون، ولولا مصر لانقرضت لغة العرب منذ أجيال طوال.

يا بني آدم من أهل مصر، أسمعوا وعوا إن مصر – لحكمة أرادها الله بالعرب والمسلمين – هي البلد الوحيد الذي انقرضــت لغاته القديمة لتحل محل اللغة العربية، وهذا حظ لم تظفر بمثله أمة عربية: فالأقطار الشـامية تحيا فيها اللغة السـريانية واللغة العبرانية؛ والبلاد العراقية تحيا فيها اللغة البابلية واللغة الكردية، ولغات أُخر يعرفها أهل تلك البلاد؛ والجزيرة العربية تحيا فيها

لهجات مختلفات؛ والبلاد المغربية فيها ما تعرفون من لغات متنافرة بعضـــها قديم وبعضـــها حديث، والرجل العربي قد يحتاج في تلك البلاد إلى ترجمان.

وقد عصفت عصور الظلمات بلغة القرآن في كثير من الممالك العربية، فاضطرت بغداد وكانت عروس العروبة إلى أن تتكلم اللغة الفارسية بضعة قرون، ثم قهرها الظلم بعد ذلك على أن تتكلم اللغة التركية زمناً غير قليل؛ والشـــام في مختلف أقطاره تعرض كارهاً لأمثال تلك الخطوب. ومع هذا لطف الله بمصر فظلت موئل اللغة العربية، وكانت المساجد في القاهرة وفي سائر الحواضر المصرية مدارس جامعة لنشر علوم اللغة والدين، وما يزال الناس يذكرون كيف حفظ الأزهر الشـــريف مخلفات الفُرس والهنود والعراقيين والشـــوام والمغاربة والأندلســـيين في ميادين المعقول والمنقول.

فالذين يهمســـون بأن اللغة العربية في مصـــر لغة أجنبية هم قوم مجرمون يســـتأهلون التأديب وكيف تكون لغة أجنبية وقد تغلغلت في دمائنا وأرواحنا نحو ثلاثة عشـــر قرناً، وكنا الدرَّع التي تصد ما يوجه إليها من سهام ونبال؟.

إن اللغة العربية في مصـــر أرســـخ من اللغة الفرنســـية في فرنســـا ومن اللغة الإنجليزية في إنجلترا ومن اللغة الألمانية في ألمانيا، لأن تلك اللغات بصـــورتها الراهنة لم تعش في بلادها ربع المدة التي عاشتها اللغة العربية في بلادنا، والفرق بيننا وبينهم أنهم سلموا من الدسائس وابتلينا نحن بالدسائس.

وهل يستطيع شاعر مثل فيكتور هوجو أن يجد في أجداده من تكلم اللغة الفرنسية كما يجد حافظ إبراهيم من أجداده من تكلم اللغة العربية؟.

وأين كانت اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية في الوقت الذي ظهرت فيه أشعار أبي تمام والبحتري، وأبن الرومي، والشريف الرضي باللغة العربية؟.

وهل في الدنيا لغة عاصـــرت القرآن وبقيت مفهومة لأهلها على نحو ما يفهم القرآن في جميع البيئات العربية؟.

إن مصـــر هي التي حفظت لغة القرآن بلا جدال ولا نزاع، فمن العار أن يوجد في أبنائها من يقول إنها لغة أجنبية.

ومن أعجب العجب أن تحفظ لنا الأمم العربية هذا الفضل، ثم نتنكر نحن لهذا الفضل!

من اعجب العجب أن تذكرنا الأمم العربية بماضـــينا في خدمة اللغة العربية، ثم يكون فينا من يقول بأن اللغة العربية في مصر لغة أجنبية.

فما هي لغتنا إذن؟

إن اللغات المصـــرية القديمة لن تعود أبداً، ولو أنفقنا في ســـبيلها غاليات الأنفس والأموال، فهل ترون أن نتكلم بعض اللغات الأوربية، وهي أجنبية أجنبية أجنبية؟.

وهل يدعو إلى هذا الرأي غير مخلوق جهول لا يعرف ما تعيش به الأمم من المقومات الذاتية؟.

إن مصر ستحتفل بعد قليل بالعيد الألفي للقاهرة، فهل تستطيع مدينة في الشرق أن تقول إنها أدت للدراسات العربية والإسلامية ما أدت القاهرة؟.

هل تستطيع مكة وهي مهد اللغة العربية أن تقول إنها تنافس القاهرة في ماضيها اللغوي والأدبي؟.

وهل طبع المصحف في مكة بقدر ما طبع في القاهرة؟

وهل أذيعت تفاسير القران في أي بلد عربي بقدر ما أذيعت في القاهرة؟

وهل نشرت عيون المؤلفات العربة إلا بفضل مطابع القاهرة؟ وهل عرف التسامح في درس المذاهب الإسلامية كما عرف في القاهرة؟.

احفظوا نعمة الله عليكم، يا أهل مصر، وكونوا عند ظن الأمم العربية بوطنكم المحبوب

ولنفرض أن العامية هي لغة المصـــريين وأنها ترجع إلى عهد ســـبق الإســـلام هو عهد الهكسوس كما قال بعض المبشرين، فما عسى أن تكون تلك العامية المصرية؟ أليست لغة عربية فصيحة المفردات لا ينقصها غير الإعراب وهو ليس شرطاً أساسياً في الإفصاح؟.

أنا لا أسمي هذه اللغة عامية، وإنما أسميها لغة التخاطب ولكل أمة في الدنيا لغتان: لغة تخاطب ولغة إنشاء ومن حدثكم أن أمثال الإنجليز والفرنسي والطليان والألمان يتكلمون كما يكتبون فاعرفوا أنه غافل جهول.

وكيف تصح تلك الدعوى العريضة وقد عرف كل من عاش في البلاد الأوربية أن العوام لهم لغة سهلة بسيطة لا تقاس إلى لغة من يحيون في البيئات العلمية والأدبية؟.

فمن كان في ريب من ذلك فليشهد بعض الأفلام الفرنسية التي تمثل لهجات الصناع والعمال أو تصور مناحي التعبير عند أهل الشمال أو أهل الجنوب، فإن فعل فسيعرف أن لغة التخاطب تختلف قليلاً أو كثيراً عن لغة الخطابة ولغة الإنشاء.

إننا نعرف أن العصر العباسي كان عصر ازدهار اللغة العربية في العصور الماضية، فهل تظنون أن عامة الناس في البصرة والكوفة وبغداد كانوا يتكلمون كما يتكلم المبرد والجاحظ ومسلم ابن الوليد؟.

إن في أدباء فرنسا لهذا العهد من يشكك في قدرة جمهور الأدباء هناك على التعبير الأصيل باللغة الفرنسية، ولأحد مؤلفيهم كتاب أسماه:

فهل يكون معنى ذلك أن اللغة الفرنسية خفيت أصولها على أدباء باريس وليون؟

أم يكون معناه أن الغيرة على اللغة تثور في صدور الأدباء من حين إلى حين بسبب التسامح الذي يشهدونه في تعابير بعض الكتاب كما فعل عبد القاهر الجرجاني في مقدمة دلائل الإعجاز حين رأى ما يشبه ذلك عند كتاب القرن الخامس؟.

إن الناس عندنا لا يفرقون بين الحالات التي يختلف فيها بعض الكتاب عن بعض، وهم يظنون أن كل إنشاء يخالف إنشاء الجاحظ أو ابن العميد هو من شواهد انحطاط اللغة العربية؛ وهم يتوهمون أننا تفردنا بين الأمم بالحيرة بين لغتين: إحداهما لغة التخاطب والثانية لغة الإنشاء.

ولو كان ذلك المتخرج في كلية الآداب قد تخرج في قسم اللغة العربية لا في قسم التاريخ لعرف أن الجاحظ على فضله نص على أن هناك مواطن لا يجوز فيها التعبير بغير اللغة العامية، وهذا يشهد بأن حياة اللغة العامية ليست نذيراً للغة الفصيحة بالهلاك، فالذوق يوجب أن يكون لكل مقام مقال وألا نحدث العوام كما نحدث الخواص.

وهل كان أهل مكة والمدينة يتكلمون فيما بينهم بنفس الأسلوب المعروف في القرآن والحديث؟.

إن القرآن نزل على العرب بلسان عربي مبين، ومع ذلك لا يمكن القول بأن العرب لذلك العهد كانوا يعبرون عن ذوات أنفسهم في شؤونهم اليومية والمعاشية بنفس الأسلوب الذي عبر به القرآن عن الشؤون الدينية والدنيوية.

فكيف يطلب منا أن نتكلم كما يتكلم شعراؤنا وخطباؤنا في جميع الشؤون، وألا قيل إننا خوارج على اللغة العربية؟.

وهل يطلب من تجار الغورية بالقاهرة أو تجار الشورجة في بغداد أو تجار الحميدية في دمشق أن يتكلموا كما يتكلم علماء مصر والشام والعراق؟.

وهل يتكلم سكان محلة بِلْ فيل في باريس كما يتكلم أساتذة السوربون؟

أنا أعرف أن أستاذنا برونو كان يوصينا بأن نستمع إلى محاورات العوام في المترو، ولكن لهذه الوصية مدلول آخر، فهو كان يريد النص على أن لغة التخاطب فيها مرونة قد لا توجد في لغة الإنشاء، وأن من العقل أن ننتفع بتلك المرونة في بعض المقامات لأن انصراف العوام عن الزخرف والتنميق أعطى لغتهم خصائص من السهولة والوضوح، وهما من أهم عناصر البيان.

وأؤكد للقراء أن الفرنسي الذي ينتقل من الشمال إلى الجنوب قد يجد من اختلاف الألفاظ والتعابير ما لا يجده العربي حين ينتقل من مصر إلى العراق.

فكيف يجوز لبعض الناس أن يوهم القراء بأن العرب تبلبلت ألسنتهم وأن التفاهم بين خواصهم وعوامهم صار من المعضلات؟.

إنه لا مفر من الاعتراف بأن اللغات العامية لها مكان في كل أرض، لأنها لغات بسيطة سهل تؤدي الأغراض اليومية في المعاملات. ولو فرضنا اللغة الفصيحة على جميع الناس لكان ذلك ضرباً من الإرهاق. . . ولا خطر على العرب من أن تكون لهم لهجات عامية تقترب أو تبتعد وفقاً للظروف الجغرافية، ولكن الخطر كل الخطر هو في جعل اللهجات المحلية أصولاً ثابتة يتدارسها العلماء ليعطوها من السلطة الأدبية ما يمكنها من الانفصال عن اللغة الفصيحة بعد جيل أو جيلين، كما يصنع الأستاذ فلان الذي يعد نفسه ليكون (أصمعي) اللهجة المصرية في هذا الزمان!.

وماذا يقول فلان وفلان وفلان إذا حدثتهم بأن اللهجات المحلية في البلاد العربية أصبحت تقترب من اللغة الفصيحة بسرعة عجيبة لم تكن تخطر في البال بسبب انتشار الصحافة والتأليف؟.

إن العوام في جميع البلاد العربية يقرءون الجرائد والمجلات ويفهمون مغازيها ومراميها بلا صعوبة، وشاهد ذلك يعرفه أصحاب المجلات المصرية الذين يشهدون بأن قراءهم في خارج مصر يعدون بالألوف.

فهل يمر ذلك بلا تأثير في تطور اللهجات المحلية؟

شرقّوا قليلاً أيها المصريون لتدركوا فضل اللغة الفصيحة في نشر معارفكم بأقطار الشرق، ولتروا كيف يعتز الرجل المصري حين يرى له إخواناً يفهمون عنه في أقطار تفصلها عنه البحار والصحارى والجبال.

أنتم لا تعرفون قيمة الحرص على وحدة اللغة العربية، ولا تدركون قيمة النعمة التي خصكم بها الله حين جعلكم حَفَظَة التراث العربي، ولو عرفتم ذلك لأفضيتم حلل الثناء على من ينشدون أخوتكم من أهل الشرق، ويذكَرونكم في كل يوم بأنهم إخوانكم الأقربون وإن بعدت الدار، وشطَّ المزار.

إن الأديب الذي طويت اسمه حفظاً لسمعته ينسى أن المزية الصحيحة التي رفعته مكاناً عليَّاً بين زملائه هي قدرته على مخاطبة الجماهير بلغة مصونة من اللحن والتحريف، فإن أصر على معاداة اللغة الفصيحة فليجرب حظه بطريقة عملية، ثم لينظر كيف تميد الأرض تحت قدميه.

أما بعد فهل ينتهي صديقنا الأستاذ أحمد أمين؟

هل يدرك أن شبان اليوم يعانون أزمة خطيرة بسبب الدسائس التي يصوبها المستمرون والمبشرون إلى صدر اللغة العربية، وإن واجب الأساتذة بكلية الآداب هو حماية أولئك الشبان من تلك السموم الفواتك؟ هل يعرف أن فرنسا على عظمة إيمانها بسيطرة لغتها الفصيحة سيطرة قاهرة تحسب ألف حساب بخطر اللهجات المحلية وتتخوف من انتقاض (البروفانس) وإنها لذلك أعلنت غضبتها الأدبية على الشاعر ميسترال؟.

من حق السيد فلان أن يتحذلق كيف شاء فيدّعي أن الأدب العربي لا يستحق الدرس في المدارس الثانوية والعالية، ومن حق السيد فلان أن يقول بأن اللغة العربية لغة أجنبية، ومن حق السيد فلان أن يقول بأن المصريين ليسوا من العرب؛ من حق هؤلاء أن يقولوا ما يشاءون

ما دام القانون لا يحرم الاعتداء على اللغة كما يحرم الاعتداء على الدين. . . ولكنا سـنريهم أن سيف القلم أمضى من سيف القانون.

- ١٦ -

كان الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام شرع في الرد على الأستاذ أحمد أمين، فقلت في نفسي: يحسن ترك المسائل التي نقدها الدكتور عزام حتى لا يكون في هذه المقالات حديث معاد. وهل كان الغرض من هذه المقالات إيذاء الأستاذ أحمد أمين بالذات حتى نعيد القول فيما نقده الدكتور عزام؟ إن الغرض هو التنبيه على أغلاط الأستاذ أحمد أمين حتى لا يفتن بها من يثقون بكفايته العلمية من طلبة الآداب في مختلف المعاهد العالية، وقد حمل الدكتور عزام بعض تلك الأعباء.

كذلك حدثت نفسي حين قرأت ما كتب الدكتور عبد الوهاب عزام في كشف أغلاط الأستاذ أحمد أمين.

ولكني رجعت عن هذه النية فيما بعد حن رأيت أن لي مسالك في النقد تغاير مسالك الدكتور عزام وتجعل القراء في أمان من ضجر الحديث المعاد.

زعم الأستاذ أحمد أمين أن علماء العرب (رفعوا من قيمة كل شيء جاهلي وغلوا في تقديره: فالماء الحقير في مستنقع جاهلي خير من دجلة والفرات والنيل وكل أنهار الدنيا، والجرادتان اللتان غنتا للنعمان كان صوتهما وغناؤهما خيراً من كل صوت وكل غناء، ودوسر كتيبة النعمان بن المنذر أقوى جيش عرفه التاريخ، وأيام العرب في الجاهلية ووقائعها الحربية لا يعادلها أي يوم من أيام المسلمين، وجبلا طيئ خير جبال الدنيا، وحاتم الطائي لا يساوي كرمه كرم. حتى الرذائل لا يصح أن يساوي برذيلتهم رذيلة، فليس أبخل من مادر، ولا أشأم من البسوس، ولا أسرف من شظاظ).

أتدرون ما الذي قال الدكتور عزام في نقد هذا الكلام الأجوف؟

قال إنه يقوم على أساس المبالغة والإغراق

وهذا نقد جارح: لأن اتهام أستاذ من أساتذة الجامعة بالمبالغة والإغراق له عواقب سود. وما الذي يبقى لأساتذة الجامعات إذا حرموا مزية التحديد في شرح المقاصد والأغراض؟.

وهناك كلمة طواها الدكتور عزام وهي كلمة (الافتراء)، فقد افترى أحمد أمين على علماء العرب حين زعم أنهم لا يرون أن أي يوم من أيام المسلمين يعادل أي يوم من أيام

الجاهلية، ونحن نتحداه أن يثبت انه رأى شواهد هذا الرأي في أي مكان من كتب الأدب أو التاريخ. نتحداه، نتحداه، فلينطق إن كان من كلامه على يقين.

وهل شغل المؤلفون بتدوين أخبار الحروب في الجاهلية كما شغلوا بتدوين أخبار الغزوات والفتوحات؟.

وما هو النص الذي يشهد بأن الماء الحقير في مستنقع جاهلي كان عندهم خيراً من دجلة والفرات والنيل وسائر أنهار الدنيا؟ وما هي العبارة التي تنص على أن جبلي طي كانا عندهم خير جبال الأرض؟.

وإذا كانت الجرادتان اللتان غنتا للنعمان كان صوتهما وغناؤهما خيراً من كل صوت وكل غناء فكيف استجار أدباء العرب أن يشغلوا أنفسهم بتقييد أخبار الأغاني والمغنين في عصر بني أمية وعهد بني العباس؟.

إن أحمد أمين قد يستطيع النهوض من كبواته الكثيرة، ولكنه لن ينهض أبداً من هذه الكبوة. وستظل شاهداً على أنه يكيل الأدب والذوق بمكيال، مع أنه بحكم منصبه مسئول عن إدراك دقائق الفروق بين الألفاظ والمعاني.

أترونني أقف عند الحد الذي اكتفى به الدكتور عزام حين قال: إن كلام الأستاذ أحمد أمين في هذه النقطة يقوم على أساس المبالغة والإغراق؟.

هيهات، هيهات!!

سأقول إن كلام أحمد أمين صدق في صدق، وسأرجوه أن يتحمل الصدمة برباطة جأش.

أفي الحق أن العرب يرون الماء الحقير في مستنقع جاهلي خيراً من دجلة والفرات والنيل؟ وهو كذلك. ..

ولكن ما رأيك إذا صارحتك بأن كلامك هذا هو الحجة عليك. . .؟

ألم تقل بأن العرب لم يحسوا الطبيعة في بلادهم؟

فكيف يصح هذا وكان الرجل منهم يتعلق بما يراه إلى الحد الذي عبته أنت على أولئك الرجال.

المسألة تحتمل وجهين: الوجه الأول أن يكون العرب في كلامك هم أهل الجاهلية، والثاني أن يكون العرب في كلامك هم المسلمون.

ولا صحة للوجه الثاني لأن العرب بعد الإسلام تغنوا بأنهار مصر والشام والعراق والأندلس غناء يشهد بأنهم فتنوا أشد الفتون بأنهار تلك البلاد حتى صح لعمر بن أبي ربيعه أن يضرب المثل بعذوبة ماء الفرات فيقول:

أسُكَيْن ما ماءُ الفرات وطيبهُ　　　منى على ظمأ وَبرد شراب

بألذ منك وإن نأيت وقلما　　　يرعى النساء أمانة الغُيّاب

وحسان في جاهليته جعل ماء بردى يصفق بالرحيق. واتفق لبعض المسلمين أن يقول بأن بردى أنزه بقاع الأرض، فكيف يجوز مع هذا أن يحكموا بأن الماء الحقير في المستنقع الجاهلي أعذب من سائر المياه في الأرض؟.

واتفق لأحد شعراء الأندلس، وهو ابن خفاجة أن يحكم بأن الأندلس هي جنة الخلد، ولذلك اتهم بالمروق من الدين، فهل يصح في ذهن ابن خفاجة أن تكون المستنقعات الجاهلية أطيب من المياه الأندلسية وهي تجري في رعاية الرياض والبساتين؟.

وتحدث النويري والعمري عما عرف العرب من بحار وأنهار وغدران حديثاً يشهد بأن العرب بعد إسلامهم فتنوا بما رأوا من طيبات الوجود كل الفتون.

يبقى الوجه الأول وهو أن يكون العرب في كلام أحمد أمين هم أهل الجاهلية

وأعترف بأن الجاهليين فضلوا مياههم على سائر مياه الأرض ولكن هل يدرك أحمد أمين سر هذا التفضيل؟.

إن العربي في جاهليته كان يرى ماءه خير المياه، لأن كلمة (ماء) عند أهل الجاهلية ترادف كلمة (الوطن) ومن حق الرجل الكريم أن يرى وطنه خير الأوطان.

وأتصدق على الأستاذ الناقد فأقول إن الكتب المؤلفة في (مياه العرب) لم يكن يراد بها وصف تلك المياه من وجهة طبيعية كأن يقال هذا ماء عذب وذاك ماء أجاج، وإنما كان يراد بالحديث عن (مياه العرب) وصف المواطن التي تجمع فيها العرب أيام الجاهلية، فهي دراسة لطبائع السكان في تلك البقاع، وتعريف بقواهم المعاشية.

وإذا صح للشاعر الحضري أن يفضل أروند على بغداد فيقول:

وقـالـت نســـاء الحي أين ابن أختنـا ألا خـبِّرونا عـنـه حـيّـيـتُـمُ وفـدا

رعـاه ضـــمـان الله هـل في بلادكم أخو كرم يرعى لـذي حســـب عهـدا

فـإن الـذي خـلـفـتـمـوه بأرضـــكـم فتىً ملأ الأحشـــاء هجرانـه وجـدا

أبـغـدادكـم تُنســـيـه أَرْوَنْـد مـربـعـاً ألا خـاب من يشـــري ببغـداد أرونـدا

فـدتهن نفســـي لـو سمعن بمـا أرى رمى كـل جيـدٍ من تنهـده عقـدا

فقد صح للشاعر البدوي أن يفضل ماء (الوشل) على جميع المياه فيقول:

أقرأ على (الوشـــل) الســـلام وقل له كـل المشـــارب مـذ هُجِرت ذميمُ

ســـقياً لظلك بالعشـــيّ وبالضـــحى ولـبرد مـائـك والمـيـاه حمـيـم

لو كنـت أملـك منع مـائـك لم يـذق مـا في قِلاتـك مـا حييـت لئيم

وهذه الأبيات تبلغ الغاية من المعاني الوطنية، وفيها تتوقد جذوة الصدق

وقد أُغرم العرب بعد الإســـلام بتقديس ما عرفوا من المياه والأنهار فزعموا أن النيل ينبع من الجنة، ولهم في ذلك أســـاطير يعرفها قراء كتب الأدب والتاريخ. وأروند التي ذكرناها آنفاً عرفت الأسطورة التي تقول بأن في جبلها عيناً تتفجر من الفردوس.

وما دخل العرب بلداً إلا رأوه خير البلاد: فمصـــر عند أهلها أطيب البلاد وهي كنانة الله في أرضه من أرادها بسوء قصم الله ظهره. والعراق عند أهله أجمل بقاع الأرض وفي رحابه تنبت عرائس الشعر وتسيطر العيون السود. والشام عند أهله جنة الأرض وفي عرصاته يقوم الناس يوم الحســـاب. وهضـــاب فارس كانت في أنفس شـــعرائها ملاعب الأفئدة والقلوب. وتونس والجزائر ومراكش كانت مركز الجيش المرابط الذي صـــدَّ الغارات الأوربية حيناً من الزمان.

ولو أردنا أن نستقصي أشعار العرب في وصف ما عرف المسلمون من البلاد لجمعنا من ذلك مجلدات ضخماً تصور غرام العرب بما شهدوا من أطايب الوجود.

فمن أين عرف أحمد أمين أن الماء الحقير في مستنقع جاهلي كان عند العرب خيراً من دجلة والفرات والنيل وسائر أنهار الدنيا؟.

من أين استسقى مصدر هذا الحكم الخاطئ الأثيم؟

إن أحمد أمين يمزح في مواطن لا يُقبَل فيها المزاح. ولو كان ينتظر أن يتناول الناقدون كلامه وأحكامه بالتجريح والتزييف لأقلع عما تورط فيه من مبالغة وإغراق، فليلق جزاء ما صنع، وكان لنفسه من الظالمين.

ثم ماذا؟

ثم نسوق القول في أيام الجاهلية التي ندد بها أحمد أمين

إن أيام الجاهلية كان لها في الواقع صدى رنّان في أسماع العرب بعد الإسلام، وقد شُغِلَ بها كثير من المؤرخين، ولكن هل تدرون لأية غاية شُغِلَ العرب بذلك التاريخ؟.

إن وقائع العرب في الجاهلية لها ألوان مختلفات، فبعضها يصور ما كان بين قبائل العرب من نزاع وشقاق قضت بهما منافع المعاش أو مَطالب المجد، وبعضها يصوَّر مغالبة العرب لطغيان الأحباش والفُرس والروم.

أما التاريخ الذي يصور ما كان بين القبائل من حروب فكان الحرص عليه يرجع إلى غاية سياسية، ولتلك الغاية صورة هي اشتباك الأورمات العربية في الخصومات حول المناصب الرئيسية بعد أن مكّن لهم الإسلام من نواصي المجد والمعاش، وكذلك كانت القبائل تحيي وقائع الجاهلية لتأخذ منها وقوداً لأتُّون المنازعات حول الرياسة والملك. . . ولا يعاب على أمة أن تحيي ماضيها لتنتفع به في إذكاء العزائم والقلوب.

وأما التاريخ الذي يصور وقائع العرب مع الأحباش والفُرس والروم فكانت له غاية قومية، هي تكذيب ما ادعاه الشعوبيون من أن العرب لم تكن لهم ذاتية قبل الإسلام وأنهم لم يذوقوا طعم المجد إلا بفضل الدين الحنيف.

وما كان يؤذي العرب أن يعترفوا بنعمة الإسلام عليهم، ولكنهم كانوا يكرهون أن يقال إنهم كانوا في كل عهود الجاهلية أذلاّء.

ومن هنا رأيناهم يبدءون ويعيدون في عدّ أيامهم الغُرّ حين أُتيح لأسلافهم أن ينتصروا في بعض المواقع التي نازلوا فيها أعداءهم الأشداء.

وهذا يفسَر إكثارهم من الطنطنة في أشعارهم بيوم ذي قار الذي انتصر فيه العرب على الفُرس انتصاراً أشعرهم بما في قلوبهم وعزائمهم من صلابة ومتانة وحيوية. ويوم ذي قار في الجاهلية كان له فضل في إذكاء حمية العرب يوم القادسية، وهو اليوم الذي عرف فيه العرب أنهم قادرون على امتلاك ناصية الشرق.

وقد ظل يوم ذي قار يذكر في الأشعار بعد الإسلام بأجيال طوال، وأظنه سيذكر بعد هذه الأيام، فإن وقائع التاريخ لها رجعات، والأحقاد الدفينة تنشرها الحوادث من زمان إلى زمان.

فإن زعم أحمد أمين أن دوسر كتيبة النعمان بن المنذر كانت عند العرب أقوى جيش عرفه التاريخ فليعرف إن شاء أن تلك الكتيبة تستحق ذلك التهويل لأنها كانت نواة الجيش الذي:

به علمتْ صُهْب الأعاجم أنه = به أعربتْ عن ذات أنفسها العرْبُ

وليس يهمني بعد ذلك أن أنقض قول أحمد أمين إن العرب يرون فضائل الجاهليين خير الفضائل ورذائلهم شر الرذائل، لأن هذا الكلام لا يحتاج إلى نقض فهو أوهى من بيت العنكبوت. ولو صح أن العرب كانوا يرون حاتماً أكرم الناس جميعاً؛ ويعتقدون أن مادراً أبخل الناس جميعاً لما كان في ذلك بأس من الوجهة الذهنية، لأن تجسيم الصفات وتضخيمها من الأمور التي استساغها العُرف في جميع البلاد. وهل يعتقد أحمد أمين حقيقة أن العرب كانوا يريدون القول بأن حاتماً أكرم من جميع الناس في سائر بقاع الأرض، وأن ما دراً أبخل من كان ومن سيكون في المشرق والمغرب؟ ذلك غير معقول.

لا يهمني أن أنقض هذا الجانب من كلام أحمد أمين فهو إغراق في التوهم والتخمين، وإنما يهمني أن أشرح مسألة نقدها الدكتور عزام بصورة تغاير الصورة التي عرضها بلطف ورفق مراعاة لمزاج الأستاذ أحمد أمين الذي يتأدب في معاملة الأحياء ويتمرد في محاسبة من أصبحوا في غيابه التاريخ!.

إن أحمد أمين حكم بأن العرب في جاهليتهم انتزعوا صـــور التعبيرات والتشـــبيهات والمجازات والاستعارات من البيئة التي عاشوا فيها، فما يجوز لنا نحن أن نجاريهم في تشبيهاتهم ومجازاتهم واستعاراتهم لأننا نواجه بيئة غير بيئتهم.

وهذا الحكم صحيح، ولكن يجب أن يفهم أحمد أمين الحقيقة الآتية:

في اللغة العربية تعابير كثيرة نشأت في الأصل مصبوغة بالصبغة البدوية، ولكنها صارت على الزمن ميراثاً حلالاً يملكه أبناء العرب من جيل إلى جيل، وقد نُسَي معناها الأول أو كاد بحيث لا يفطن الكاتب أو القارئ إلى أنها منقولة عن صورة بدوية.

فالذي يقول: (دون ذلك خرط القتاد) لا يتصـــور الخرط ولا القتاد حين ينطق بهذا التعبير. والذي يقول: (هذه مشـكلة أعقد من ذَنَب الضَّـب) لا يتصـور العُقَد في ذيل ذلك الحيوان، وإنما يأخذ هذا التعبير قوته من الصورة المرسومة في أذهان من تداولوه على اختلاف الأحوال، وذلك معروف في اللغات الأجنبية ففيها تعابير منسـية الأصـول وهي تؤدي المراد منها بلا عناء.

وهنا يزعم أحمد أمين أن الشاميين والعراقيين لم يروا الضب ولم يعرفوا عنه شيئاً؟

وأعتقد أن الصـواب غير ما قال، فالشـاميون والعراقيون عرفوا الصـحراء وما فيها من ضباب ويرابيع.

واستنكر أحمد أمين أن يقول المصريون والعراقيون والشاميون (عيون المها وجيد الغزلان) وتعجب من أن يقول ابن الجهم.

عيون المهـا بين الرصـــافـة والجســـر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

ثم قال: وأين المها في بغداد أمام عليَّ بن جهم وأين المها في مصر والأندلس؟

وأنا لم أزر الأندلس حتى أقر أو أنكر كلام أحمد أمين، فقد لا يكون فيها غير الظباء الإنسـية، وإنما أسـتطيع أن أحكم بأن أحمد أمين ينكر الواقع المحسـوس حين يقول بأن أهل بغداد لا يرون الظباء، فقد رايتها بعيني تباع وتشـترى في شـارع الرشـيد ولا يزال البغداديون يذهبون لصـيد الغزال في نواح كثيرة منها سـامراء. وعفا الله عن السـيد حسـين النقيب الذي مناني بالخروج لصيد الغزال ثم اعتذر بشواغل مجلس النواب.

ومن تقاليد أهل بغداد أن يربّوا الظباء في دورهم كالذي رأيت في دار الشـــاعر ناجي القشطيني، أراني الله وجهه الأصبح في خير وعافية!.

ومن أطعمة أهل بغداد لحم الغزال، وقد أكلته بشهية في دار ظمياء أعزها الحب!

والبصـريون يرون الغزلان حين يشـاءون، فمنها أسـراب تمرح وتلعب بالقرب من بلدهم الجميل.

والشاميون يعرفون الغزلان معرفة أكيدة لأنها تجاورهم في الصحراء الشامية

أم المصريون فهم يعرفون الظباء، وهي كثيرة جداً في الصحراء الغربية، وهم يطاردونها من وقت إلى وقت، وقد حدثنا الأسـتاذ محمد خالد بأنه اشـترك في مطاردة غزال، وتلك إحدى الأعاجيب، فقد كنت أحسبه من طراز الأستاذ أحمد أمين.

وكلمة (طراز) تدخل في الموضـــوع، فهي في الأصـــل علم الثوب، كما يعبر صـــاحب القاموس، ثم نسى ذلك الأصل وصار الغرض هو المماثلة في الشمائل والخصال ومن حقنا أن نقول: إن أحمد أمين ينسج على منوال طه حسين في نكران الحقائق.

وليس لأحد أن يعترض بأن المنوال لا تراه العيون إلا في قليل من الأحايين، لأننا حين نعبر بمثل هذه العبارة لا نفكر في ثوب ولا منوال، وإنما نســـوق التعبير حيث وقع في كلام الأسلاف ونفهم المراد منه بلا عناء.

وفي اللغة العربي تعابير لا نكاد نفهم الغرض منها بالتحديد، ولكنها في غاية من الانسياغ.

ومن شـواهد ذلك ما وقع بين الأسـتاذ سـعد اللبان والدكتور هيكل باشـا في مجلس النواب. فقد هجم الأسـتاذ سـعد اللبان على إحدى كليات الجامعة المصـرية هجوماً عنيفاً، فقال الدكتور هيكل باشا: هذا كلام يلقى على عواهنه!.

ومن المؤكد أن أكثر النواب لم يفهموا المراد بالعواهن، ولكن هذه العبارة وقعت منهم موقع القبول، لأنها خير عبارة تقال في ذلك المقام الدقيق، وهي على عنفها لا تجرح الذوق.

واعترض الأســـتاذ أحمد أمين على قولهم: (فلان يعرف من أين تؤكل الكتف) وعدها عبارة بدوية لا يجوز لحضري أن يدونها في مقال أو ينطق بها في حديث.

والظاهر أن الأســـتاذ أحمد أمين يظن أن أهل الحضـــر لا يأكلون الحُملان إلا مقطعة بأيدي القصابين فهو لذلك يتوهم أنهم لا يحتاجون إلى الاحتراس عند أكل الكتف.

فليعرف (إن شـــاء) أن الناس لا يزالون يدركون هذه العبارة في أصـــلها الأصـــيل، وقد رأيت الرجل البدوي الحضـــري عبد الســـتار بك الباســـل يداعب أحد ضـــيوفه بتســـليط تيار الكتف عليه، وهو تيار قد يسلَّط مرة على الأستاذ أحمد أمين فيعرف من أين تؤكل الكتف!.

من حق أحمد أمين أن يرى الناس جميعاً مقلدين في الأخيلة والتعابير، لأنه من أبعد الناس عن مواجهة الحياة، وأكاد أجزم بأنه لا يساير الحياة الأدبية والفنية والاجتماعية إلا عن طريق القراءة أو الســماع، وإلا فمن الذي رآه مرة يشــهد رواية ســينمائية أو يشــهد حفلة من حفلات التمثيل؟.

وأعيذكم أن تظنوا أني أتجنى على الأســـتاذ أحمد أمين، فهذا الرجل على فضـــله قليل الخبرة بألوان الوجود، وقد تقع منه أحياناً عبارات تضـــحك الحزين. أليس هو الذي يقترح أن (نميت العَرار ونحيي الزنبق، ونميت الكمأة ونحيي ألمانجو، ونميت القوس ونحيي القنابل، ونميت أُلخرثي ونحيي ما يدل على الموبليا)؟.

ذلك كلامه بالحرف، وهو يدعو إلى النظر في الألفاظ المتماثلة أو المتقاربة، لنميت القديم ونحيي الجديد، ومن كلامه هذا تفهمون أن (الكمأة) نوع من الفاكهة، بدليل أنه يقابلها بألمانجو!.

فهل سمعتم أن الكمأة اسم فاكهة قبل أن يحدثكم بذلك الأستاذ أحمد أمين؟

إن الكمأة معروفة لأهل الشام والعراق، ومعروفة لبعض أهل مصر من الذين يتصلون بالأُسر السورية واللبنانية والفلسطينية. وقد عرفتها في القاهرة قبل أن أعرفها في بغداد، فكيف جاز للأستاذ أحمد أمين أن يظنها من الفواكه؟ تلك والله إحدى الغرائب!.

أما بعد، فقد كنت أرجو أن يترفق الأستاذ أحمد أمين بسمعته الأدبية فلا يعرَّضها لهذه المزالق، وكنت أتمنى أن يكف عن السخرية من ماضي الأمة العربية، ولكنه أراد أن يمضي في العناد وفي اللجاجة إلى آخر الشوط فيزعم أن شعراء العرب وكتابهم لم يعرفوا الثورة على المظالم، ولم يعرفوا تحليل المقاصد والأغراض في الشعر والإنشاء.

وذلك كله ظنٌّ وترجيم، وسنحاسبه أشد الحساب، عساه ينتهي عن اللجاجة والعناد

وإني لواثق بأنه يطرب لهذه المباحث التي تكشـــف له آفاقاً من الحقائق الأدبية، وتعينه على فهم ما خفي عليه من مكانة العرب في التاريخ.

- ١٧ -

أراد صاحبنا أن يقسم الأدب إلى قسمين: أدب تركيبي وأدب تحليلي، ثم بنى على هذا التقسيم أحكاماً خواطئ، كعادته في كل ما يتناول من الشؤون الأدبية وإلا فمن الذي يصدق أن التشبيهات تُعاب بحجة أنها صور تركيبية، وبحجة أن الأمم لا تهتم بالتشبيهات إلا في حالتها الفطرية؟.

إن أحمد أمين أفرط في تحقير التشبيه اقبح إفراط، ونسى أنه عمليةٌ ذهنية تشهد بقوة الذكاء، ودقة الملاحظة، والقدرة على ضم الصور بعضها إلى بعض.

ولو جارينا أحمد أمين في أحكامه الجائرة لأغضينا عن جمال التصوير في قول ابن المعتز:

لا مثلَ منزلة الدويرة منزلٌ ... يا دار جادكِ وابلٌ وسقاكِ

بؤساً لدهر غيرتك صروفهُ ... لم يمح من قلبي الهوى ومحاك

لم يحلُ للعينين بعدك منظرٌ ... ذُمّ المنازلُ كلُّهن سواك

أي المعاهد منك أندبِ طيبهُ ... ممساك بالآصال أم مغداك

أم بَرد ظلك ذي الغصون وذي الجَنَي ... أم أرضك الميثاء أم ريّاك

فكأنما سُعِطتْ مجامر عنبر ... أوفُتَّ فار المسك فوق ثراك

وكأنما حصباءُ أرضك جوهَرٌ ... وكأن ماَء الورد دمع نداك

وكأنما أيدي الربيع ضحيةً ... نشرت ثياب الوْشي فوقُ رُباك

وكأن درعاً مُفْرغاً من فضة ... ماءُ الغديرِ جَرَتْ عليه صباك

وقد أشـــرنا من قبل إلى أن أحمد أمين يرى التشـــابيه ضـــرباً من الألاعيب، وليس من الكثير عليه أن يرى ذلك فقد رأيتم فيما ســلف وســترون فيما بعد أن للرجل طريقة في الفهم تخالف طريقة أهل الأدب.

وأُدعم هذا الهجوم بالشاهد الآتي لتسقط حجة من يدّعون أننا نظلمه ونتناسى مكانته الأدبية.

قال أحمد أمين إن الأدب العربي جنح إلى التركيب وغفل عن التحليل، وكان دليل ذلك عنده (أن علماء البلاغة العربية عُنُوا بالإيجاز أكثر من عنايتهم بالإطناب، وأُعجبوا بجوامع الكلم أكثر من إعجابهم بالكلام الطويل المنبســـط، بل إن بعضـــهم كأبي هلال العســـكري فهم أن الإطناب تكرار المعاني وطول الألفاظ، وقال: (إن كتب الفتوح وما يجري مجراها مما يقرأ على عوامّ الناس ينبغي أن تكون مطوّلة مطنباً فيها) فكأنه يريد أن يجعل الإطناب أدب العامة، والإيجاز أدب الخاصة).

ذلك كلام أحمد أمين، وهو يدل على أنه لم بفهم كلام أبي هلال وإليكم البيان:

إن كلام أبي هلال معناه أن الكلام له مقامات، فإن خاطبت رجلاً ذكياً فأوجز: لأن الإطناب في مخاطبة الأذكياء يعدّ من التطويل وهو فضـــول، وأن خاطبت الجمهور فأطنب: لأن الجمهور مكوّن من عناصـــر كثيرة تتفاوت في الفهم والتمييز والإدراك، والحزم يوجب أن نطنب حين نخاطب الجماهير لنصل إلى إفهامهم ما نقصد إليه من المعاني والأغراض.

ذلك معنى كلام أبي هلال، فهو لا يريد أن يقول بأن الأدب يكون أدب خاصـــة عند الإيجاز وأدب عامة عند الإطناب، وإنما يريد أن يحدد واجب الشـــاعر والكاتب والخطيب، ودليل ذلك أن علماء البلاغة مجمعون على أن الإيجاز في مخاطبة العامة خطأ، والإطناب في مخاطبة الخاصة ضياع.

وعلى ذلك يكون شـرف البيان موقوفاً على فهم مقتضـيات الأحوال، فالأديب الذي يوجز حين يخاطب الخاصـــة ليس أعلى منزلة من الأديب الذي يطنب حين يخاطب العامة، كما يتوهم أحمد أمين الذي يكيل الحقائق الأدبية بأوسـع المكاييل، مع أنها لا توزن إلا بأدق الموازين.

فمن أين فهم أحمد أمين أن الإطناب يراه العرب من المبتذلات حتى يحكم بزهدهم في الأدب التحليليّ الذي يستوفي عناصر الموضوعات؟.

وعاب أحمد أمين على العرب أن يهتموا بجمع الحكم والأمثال وعدّ ذلك نتيجة حتمية للأدب التركيبيّ، ولو كان أحمد أمين من المطلعين على الآداب الأجنبية لعرف أن الاهتمام بجمع الحكم والأمثال هو من الأغراض التي يهتم بها أكثر الشعوب. ويقول أحمد أمين إن (الخطب والكتب في كثير من الأحيان عبارة عن جمل قصيرة مركزة محكمة، كالذي نلاحظه في كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء وكخطبة زياد وخطبة الحجاج، ولو تناول الأدب التحليلي كل جملة من هذه الجمل لصاغ منها صفحات).

فهل يدرك الأستاذ أحمد أمين وجوه الخطأ في كلامه هذا؟

إن خطاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري من أنفس الخطابات في تحديد أصول القضاء، فهل كنت تنتظر أن يؤلف عمر بن الخطاب كتاباً في مجلد أو مجلدين يشرح فيهما لأبي موسى فروع القضاء؟.

وما الذي تعيب على خطبة زياد وخطبة الحجاج؟

أتعيب عليهما الإيجاز؟ وما الموجب للإطناب وقد وقعت الخطبتان على رؤس من سمعوها وقوع الصواعق، وظلتا حديث الناس من جيل إلى جيل؟.

ما رأيك في المستر تشمبرلن وقد ألقى خطبتين وجه إحداهما إلى مواطنيه الإنجليز، ووجه الثانية إلى أعدائه الألمان؟.

ألا ترى أن هاتين الخطبتين أوجز من خطبتي زياد والحجاج؟

هما أوجز بلا جدال

فهل سمعت أن ناقداً أدبياً في فرنسا أو إنجلترا عاب على المستر تشمبرلن أنه أوجز ولم يطنب؟ هل سمعت؟ هل سمعت؟.

وا أسفاه!!

إن المستر تشمبرلن حوله أمة تفهم أقدار الرجال، فقد أعلن الإنجليز عطفهم عليه حين رأوه يبكي جهوده الضائعة في الدعوة إلى السلام.

وكان العرب أمة تفهم أقدار الرجال إلى عهد الحجاج: فقد كان مالك بن دينار يظهر عطفه على الحجاج كما أعلن الإنجليز عطفهم على تشمبرلن. كان مالك بن دينار يقول: ما سمعت الحجاج يشكو أهل العراق إلا رحمته منهم!.

إن أحمد أمين يقول إن كل جملة من كتاب عمر بن الخطاب وخطبة زياد وخطبة الحجاج يصاغ منها عند التحليل صفحات، ويعد ذلك شاهداً على ميل العرب إلى الأدب التحليلي، فما الذي يقوله أحمد أمين في خطاب تشمبرلن إلى الألمان؟.

إن خطاب تشمبرلن قد يصاغ منه عند التحليل مجلدات لا صفحات، ومع ذلك لم يقل أحد بأن هذا الخطاب شاهد على أن الإنجليز لا يحسنون تحليل المعاني والأغراض إن المستر تشمبرلن يفهم ما كان يفهمه زياد والحجاج.

هو يفهم أن الجمل القصيرة المركزة المحكمة هي التي تبقى في الأذهان والقلوب، ويدرك أن التهديد الذي يصبه الخطيب في جملة أو جملتين، والسخرية التي يصوغها في كلمة أو كلمتين، أبقى أثراً من الكلام المطول المبسوط الذي يصاغ في صفحات.

أيعرف أحمد أمين ما الذي سطره الفرنسيون على مدخل البانثيون؟

سطروا هذه العبارة الموجزة:

وهي عبارة تُشرح في مجلدات لا صفحات

أيعرف أحمد أمين الجملة المسطورة على باب قصر التين؟

هي الجملة القليلة الألفاظ الكثيرة المعاني الجملة التي تقول:

(العدل أساس الملك)

وهي أنفع من ألف كتاب في شرح مزايا العدل وأثره في حياطة الملك

أيذكر أحمد أمين الآية المكتوبة في جميع المحاكم المصرية فوق منصة القضاء؟

هي كلمة القرآن المجيد:

(وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)

فهل يعدّ ذلك الإيجاز من الخطأ؟ أم يراه غاية في تذكير الناس بأصول الحقائق؟

يجب أن يعرف الأستاذ أحمد أمين أن العرب لم يستهينوا بالإطناب ولم يعدوه من المبتذلات حتى يحكم بأنهم يرونه من أدب العوامّ لا أدب الخواصّ. فالإطناب أسلوب من

البيان يقصد إليه الشاعر والكاتب والخطيب حين يدعو المقام إليه، وهو أسلوب شريف لم يحتقره أحد من أهل البلاغة كما توهم أحمد أمين.

وهل كانت سائر الكتب على نمط كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري؟

أين هو من الكتب المطولة التي كان يبعث بها علي بن أبي طالب إلى عماله في الأقاليم البعيدة والأقطار القصية؟ وأين هو من كتب العهود التي صارت بعد ذلك من تقاليد الحكومة الإسلامية؟.

وهل كانت سائر الخطب كخطبة زياد وخطبة الحجاج؟

أين هو من الخطباء المطنبين الذي تحدث عنهم الجاحظ في البيان والتبيين؟

أين خطب سحبان الذي كان يهدر بها من الظهر إلى الأصيل؟

أين أحاديث صعصعة بن صوحان؟

أين مشاورة المهدي لأهل بيته، وهي من أنفس الذخائر الأدبية؟

وتحدث أحمد أمين عن الإيجاز الذي التزمه مؤرخو العرب في كتب التراجم وعده من عيوب السليقة العربية، فهل كان ينتظر أن تصاغ تلك التراجم على نحو ما نصنع اليوم، وعلى نحو ما يصنع الأوربيون؟.

كان هذا ممكناً لو أن المؤرخ العربي كان يقصر جهده على الترجمة لرجلين أو عشرة رجال، ولكن هذا كان من المستحيل على من يترجمون لعشرات أو مئات أو ألوف.

وما الذي قرأ أحمد أمين من كتب التراجم؟

هل عرف كتب الطبقات: طبقات النحويين واللغويين والفقهاء والصوفية؟

إن كان عرف تلك الكتب فليحدثني كيف كان يمكن لرجل مثل السبكي أن يصنع أكثر مما صنع في طبقات الشافعية؟.

وليحدثني كيف كان يمكن لأبي الفرج أن يصنع أكثر مما صنع في كتاب الأغاني؟ وليحدثني كيف كان يمكن لياقوت أن يصنع أكثر مما صنع في كتاب إرشاد الأريب؟ وليحدثني كيف كان يمكن للمقري أن يصنع أكثر مما صنع في نفح الطيب؟.

لو أن هؤلاء الرجال ترجموا للشعراء والكتاب والخطباء والمؤلفين على نحو ما نصنع اليوم لأضاعوا علينا فرصاً لا تعود أبد الدهر، لأنه كان يستحيل عليهم أن يحدثونا عن جميع تلك

الطوائف، وكانت هممهم ستقف عند الترجمة لعدد قليل من أصحاب المواهب في الأقطار العربية والإسلامية.

فما الذي يستفيد أحمد أمين حين يغض من أقدار أولئك الرجال، وهو من فضلاتهم يعيش؟.

هل يعرف كم ألوفاً من الأدباء والمؤرخين انتفعوا بجهود مؤلف الأغاني؟

هل يعرف أن ابن خلكان الذي احتقره وازدراه أدى مهمة يعجز عنها الأكثرون؟

إن أحمد أمين يعيش في عصر المطبعة، والسبل أمامه ممهدة لنشر ما يشاء، فما الذي صنع، وما الذي صنع زملاؤه في الترجمة لأعلام العصر الحديث؟.

ليت دنيانا الحاضرة تعرف رجلاً مثل ياقوت يترجم لأقطاب الفكر والبيان في مصر والمغرب واليمن والحجاز والشام والعراق!.

ليت ثم ليت! فأحمد أمين نفسه لا يعرف شيئاً من التيارات الفكرية في البلاد العربية والإسلامية لهذا العهد، وهو محتاج إلى ثعالبي جديد يعّرف الناس بفضلاء عصره كما صنع أبو منصور حين ترجم لأقطاب القرن الرابع.

فما هذه الغطرسة على أسلافكم يا أدباء آخر الزمان؟

وبأي حق تتجنون على رجال أدّوا واجبهم أحسن أداء وهم في قلة من أسباب الرزق؟

إن أحمد أمين لم ير بلداً غير مصر إلا وهو مكفيّ المؤونة بأموال الحكومة المصرية. . . فهل يعرف كيف كان يصنع رجل مثل ياقوت وهو يطوّف بالمغرب والمشرق وعلى ظهره حقيبة يحمل فيها ما يتّجر به ليعيش؟.

وأبو هلال الذي يستشهد أحمد أمين بكلامه في الإيجاز والإطناب؟

أبو هلال هذا لم يعرف سهولة العيش التي عرفها أحمد أمين، فقد قست عليه الأقدار حتى اضطرته، وهو من نوابغ الأدباء والمؤلفين إلى كسب قُوته من مزاولة التجارة بالأسواق، وهو الذي يقول:

جلوسي في سوق أبيع وأشتري دليلٌ على أن الأنام قُرودُ

ولو اضطُر أحمد أمين – لا قدر الله ولا سمح – إلى كسب رزقه من مزاولة التجارة في الأسواق لنضب معين فكره وشُغل عن مضغ الكلام في أدب المعدة وأدب الروح. . .!.

أُحب أن أعرف ما هي الغاية من تحقير ماضي الأمة العربية؟

أحب أن أعرف لأي غرض شغل أحمد أمين نفسه بالنص على أن عبد الحميد الكاتب فارسيّ الأصل؟.

هل يريد القول بأن الأدب التحليليّ وصـــل إلى العرب من أدباء ليســـوا من الأرومة العربية؟.

وهو كذلك!

ولكن ما رأيك إذا حدثتك بأن الحضـارة العربية هي صـاحبة الفضـل على عبد الحميد وابن المقفع وسائر من نبغوا في الممالك الإسلامية وهم من أصول أجنبية؟.

إنك تعرف أن أعظم ما بقى من آثار ابن المقفع هو الحِكم المبثوثة في الأدب الصـــغير والأدب الكبير، وهي حِكم يغلب عليها الإيجاز، فهل تعدُ الإيجاز من عيوب تلك الحكم الخوالد بحجة أن الإيجاز من خصائص البلاغة العربية؟.

اتق الله في نفسك، أيها الصديق، فللناس أذواق وعقول وتقول إنك لا تعرف في العربية غير شاعر واحد هو ابن الرومي وكاتب واحد هو ابن خلدون. . . وسترى في الأسبوع المقبل كيف نلتقي في تحرير هذا الموضوع الدقيق.

- ١٨ -

ترفق الأستاذ احمد أمين بالأدب العربي فقال: إنه يرى من الإنصاف أن يستثني أديبين أثنين (كان أدبهما أدباً تحليلياً واضحاً) وهما ابن الرومي وابن خلدون.

وكذلك انتهت دنيا الأدب العربي، الأدب الذي لم ينجب غير شـــاعر واحد وكاتب واحد في أمد طويل دام نحو خمسة عشر قرناً، وتعاونت في تكوينه أمم أسيوية وأفريقية وأوربية، واستطاع أن يؤثر في الآداب اللاتينية والعبرية والفارسية والتركية والهندية، وصار له في أكثر الجامعات الأوربية كرسي خاص.

احمد أمين يستثني ابن الرومي من بين الشعراء، ويستثني ابن خلدون من بين الكتاب لسبب آخر غير الإنصاف، فقد سمع أن العقاد وضع كتاباً عن ابن الرومي، وسمع أن طه حسين وضع كتاباً عن ابن خلدون، ومن الواجب عليه أن يعجب بالشاعر الذي أعجب به العقاد، والكاتب الذي أعجب به طه حسين.

وكيف أقفر الأدب العربي في تلك الآماد الطوال فلم ينبغ فيه غير أديبين أولهما شاعر، وثانيهما كاتب؟.

إن احمد أمين لو حكم بأن مدينة واحدة مثل القاهرة أو دمشق أو بغداد لم تنجب في جيل واحد غير أديبين أثنين لكان من المسرفين، فكيف وهو يكيل الأحكام الأدبية بأوسع المكاييل فيحكم بأن الأدب العربي في جميع عصوره، وفيما انتظم من أمم شرقية وغربية لم ينجب غير أديبين أثنين؟.

قد يقول أنه يقصد الأدب الذي يقوم على التحليل والاستقصاء إن قال ذلك فنحن ندعوه إلى دراسة الأدب العربي من جديد. فالطريقة التحليلية عرفها شعراء العرب منذ أقدم العهود وعليه أن يرجع إلى معلقة طرفة، ومعلقة لبيد، وعينية أبي سويد وتائية كُثيّر، ولامية الكميت، وتائية دعبل، ودالية مسلم.

الواقع أن الشعر العربي تغلب عليه النزعة التحليلية في أكثر ما تعرض له من مقاصد وأغراض، وانظروا كيف يحلل سعيد ابن حميد فكرة النهي عن العتاب:

أقلل عتابك فالبقاء قليلُ ... والدهر يعدِل تارة ويميلُ

لم أبـك مـن زمـنٍ ذممـتُ صــــروفـهُ ... إلا بـكـيـتُ عـلـيـه حـين يـزولُ

ولـــكـــل نائـــبـــةٍ ألمـــتْ مـــدةٌ ... ولـكـل حـال أقـبـلـت تحـويـلُ

والمـنـتـمـون إلى الأخـاء جمـاعـةٌ ... إن حُصِّـــلوا أفنـاهم التحصـــيـل

فلئن ســـبقـتُ لتبكـينَّ بحســـرة ... ولـيـكـثـرنَّ عـلـيَّ مـنـك عـويـل

ولـتُـفـجـعـنّ بمـخـلـص لـك وامـق ... حـبـل الـوفـاء بحـبـلـه مـوصـــول

ولئن – سبقتَ ولا سبقتَ – ليمضينْ ... مـن لا يشـــاكـلـه لـديّ خـلـيـل

ولـــيـــذهـــبنّ بهـــاءُ كـــل مـــروءة ... ولـيـفـقـدنّ جمـالهـا المـأهـول

وأراك تـكـلَـف بالـعـتـاب وودُّنا ... باقٍ عـلـيـه مـن الـوفـاء دلـيـل

ولـعـل أيام الحـيـاة قصـــيرةٌ ... فـعـلام يـكـثـر عـتـبـنـا ويـطـول

فالشـاعر في هذه القصـيدة يحلل ويعلل ويتناول موضـوعه تناول من يدرك ما فيه من كليات وجزئيات، ومازال ينتقل من العموم إلى الخصوص حتى وصل في تصوير معناه إلى ما يريد.

ولننظر كيف يقول الشريف الرضي في استبقاء الصديق:

وكم صـــاحـبٍ كـالرمح زاغـت كعوبـه ... أبى بعـد طول الفـخر أن يتقومـا

تـقـبـلـتُ مـنـه ظـاهـراً مـتـبلِّـجـاً ... وأدمـج دوني باطـنـاً مـتـجـهِّـمـاً

فـأبـدى كروض الحَزن رقَّـت فروعـه ... وأضـــمر كـالليـل الحـذاريّ مظلمـا

ولو أنني كشَّفته عن ضميره أقمت على ما بيننا اليوم مأتما

فلا باسطاً بالسوء إن نالني يداً ولا فاغراً بالذم إن رابني فما

كعضو رمت فيه الليالي بقادح ومن حمل العضو الأليم تألما

إذا أمر الطب اللبيب بقطعه أقول عسى ضنَّاً به ولعلما

صبرتُ على إيلامه خوف نقصه ومن لام من لا يرعوي كان ألوما

هي الكفّ مضَّ تركُها بعد دائها وإن قُطِعت شانت ذراعاً ومعصما

أراك على قلبي وإن كنت عاصياً أعزّ من القلب المطيع وأكرما

حملتك حمل العين لجّ بها القذى فلا تنجلي يوماً ولا تبلغ العمى

دع المرَء مطوياً على ما ذممته ولا تنشر الداء العضال فتندما

إذا العضو لم يؤْلمك إلا قطَعته على مضض لم تبق لحماً ولا دما

ومن لم يوطّن للصغير من الأذى تعرض أن يلقى أجلّ وأعظما

فما رأيكم في هذا القصيد الجميل؟

ألا ترون الشاعر ينقل الفكرة من وضع إلى وضع، ويصنع بها ما يصنع المصور الذي يراعي دقائق المعاني. . . وهو يضع اللوحة الفنية؟. ..

إن الشاعر في هذه القصيدة أمامه غرض واضح الرسوم، فهو يحلل ويعلل ليصل إلى أبعد ما يريد من الاستقصاء!.

أليس هذا هو التحليل الذي يقصد إليه احمد أمين؟

وما رأيكم في قول الطغرائي وهو يحاور الحمامة الباكية:

أيكيةٌ صدحتْ شجواً على فنَن فأشعلت ما خبا من نار أجفاني

ناحتْ وما فقدت إلفاً ولا فُجعت فذكّرتنيَ أوطاري وأوطاني

طليقةٌ من إسار الهمّ ناعمةٌ أضحت تجدد وجد الموثَق العاني

تشبهت بيَ في وجدي وفي طربي هيهات ما نحن في الحالين سيّان

ما في حشاها ولا في جفنها أثرٌ من نار قلبي ولا من ماء أجفانِي

يا ربة البانة الغنّاء تحضنها خضراءُ تلتف أغصاناً بأغصان

إن كان نوحك إسعاداً لمغترب ناءٍ عن الأهل ممنُوٍّ بهجران

فقارضِيني إذا ما اعتادني طربٌ وجداً بوجد وسلواناً بسلوان

أو لا فقصرَك حتى أستعين بمن يعنيه شأني ويأسو كلْم أحزاني

ما أنت مني ولا يَعنيك ما أخذتْ مني الهموم ولا تدرين ما شاني

كِلي إلى الغيم إسعادي فإن لهُ دمعاً كدمعي وإرناناً كإرناني

فهل ترون هذه القصيدة من (الأدب التركيبي)، وهو لفظ ثقيل اخترعه أحمد أمين؟

أم ترونها قصيدة تقوم على تحليل المعاني ليخلق منها الشاعر صورة شعرية؟

وانظروا قول ديك الجن وقد قتل معشوقته بيديه:

يا طلعةً طلع الحِمام عليها فجَنى لها ثمر الردى بيديها

حكَّمت سيفي في مجال خناقها ومدامعي تجري على خديها

روّيتُ من دمها الثرى ولطالما روّى الهوى شفتيَّ من شفتيها

فَوحقِّ نعليْها وما وطئ الثرى شيءٌ أعزُّ عليّ من نعليها

ما كان قتليها لأني لم أكن أبكي إذا سقط الذباب عليها

لكن بخلتُ على الوجود بحسنها وأنِفتُ من نظر العيون إليها

فقد شرح الشاعر فكرته أتم الشرح، وصورها أكمل التصوير. ..

وهل وصلت إلى احمد أمين أخبار تلك الوصية الرائعة التي بعث بها العباس بن الأحنف إلى حجاج البيت الحرام، وقد توقع أن يمروا بدار هواه.

انظروا إلى ذلك العليل، وقد تمرد الداء، وتعذر الشفاء، وكلما عصر الماء في فيه مجه، كما يصنع الطفل الوليد. . . وقد ذهبت العلة بجمال نظراته، وبريق بسماته، وإن نودي لم يجب بغير الأنين. . . انظروا إليه! وقد تمنى جرعة مزجت بريق حبيبته يحملها الحجاج في زجاجة، ولو أمكن أن تنقل النظرة لرجاهم أن يحملوا إليه نظرة، ولو خلق (الحاكي) في ذلك الحين لرجاهم أن ينقلوا إليه نغمة من نغماتها العذاب، ولو مهر المصورون حينذاك لكلفهم أن يصوروا مشيتها في الضحى والأصيل. . . انظروا إليه وهو يرجوهم أن يتعللوا عند أهله، فيذكروا أن تلك الجرعة العذبة إنما هي من ماء زمزم. . . انظروا إليه وقد أوصاهم أن يرشوا ريق من يهوى على وجهه، فإن صادفوه ميتاً فليرشوه على قبره. ..

انظروا كيف يقول:

أزوَّار بيت الله مُرُّوا بيثربٍ لحاجة مبتول الفؤاد كئيب

وقولوا لهم يا أهــل يثرب أســـعــدوا	على جَلَــب للحــادثات جليــب

فــإنا تــركــنــا بالــعــراق أخــاً هــوىً	تنشّـــــب رهنــاً في حبــال شـــعوب

بــه ســـــقَمٌ أعيــا المــداوين علــمــه	ســــوى ظنهم من مخطئ ومصـــيــب

إذا مــا عصـــرنا المــاء في فيــه مجــةٌ	وإن نحــن ناديــنــا فــغــير مجــيــب

خــذوا لي منهــا جرعــة في زجــاجــة	ألا إنهــا لــو تــعــلــمــون طــبــيــبي

وســـيروا فــإن أدركتُم بي حُشـــاشـــةً	لهــا في نواحي الصــــدر وَجْس دبيــب

فرشـــوا على وجهي أفق من بليتي	يثيبكُم ذو العـرش خير مثيـب

فــإن قــال أهلي مــا الــذي جئتم بــه	وقــد يحســـن التعليــل كــل أريــب

فــقــولــوا لهــم جــئــنــاه مــن مــاء زمــزم	لــنشــــفــيــه مــن دائــه بــذَنــوب

وإن أنتُم جئتم وقــد حيــل بينكــم	وبــيــني بــيــوم لــلــمــنــون عصـــيــب

وصـــرت من الــدنيــا إلى قعر حفرة	حليــف صـــفيح مطبق وكثيــب

فرشـــوا على قبري من المــاء وانــدبوا	قــتــيــل كَــعــابٍ لا قــتــيــل حــروب

فهذا الشاعر قد قص قصة بلواه بأسلوب تحليلي رائع لا أدري كيف ينكره احمد أمين

وما رأيكم فيما قال كثير في السخرية من عهود النساء:

ألا إنما ليلى عصى خيزرانة إذا غمزوها بالأكفّ تلين

تمتع بها ما ساعفتك ولا يكن عليك شجاً في الحلق حين تبين

وإن هي أعطتك الليان فإنها لآخر من خلاتها ستلين

وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها فليس لمخضوب البنان يمين

وما حاجتنا إلى تحليل هذا المعنى وقد وفاه في بيت واحد من يقول:

فلا تحسبن هنداً لها الغدر وحدها سجية نفْس، كل غانية هندُ

إن احمد أمين ينتظر شعراء يحللون، فهل أتاه حديث أبي العتاهية في الزهديات، وحديث أبي نؤاس في الخمريات، وحديث الشريف الرضي في الحجازيات، وحديث الكميت في الهاشميات، وحديث الأبيوردي في النجديات، وحديث البحتري في طيف الخيال، وحديث العباس بن الأحنف في الكتمان؟.

وهل عنده علم بوصف الربيع في شعر أبي تمام؟ وهل سمع بأشعار ابن زيدون في الحنين؟ وقل قرأ قصائد ابن خفاجة وا بن حمديس؟ وهل فتح الله عليه فنظر بكاء الرندي يوم سقوط الأندلس؟ وهل قرأ فائية ابن الفارض؟ وهل اهتدى إلى حائية ابن النحاس الذي يقول:

كم أداوي القلب! قلتْ حيلتي كلما داويت جرحاً سال جرح

وهل عرف مصير أشعار بديع الزمان الذي يقول:

رأيت الناس خدَّاعاً إلى جانب خدَّاعِ

يعيشون مع الذئب ويبكون مع الراعي

وهل قرأ قصيدة أبي تمام يوم فتح عمورية؟ وهل عرف روميات أبي فراس؟ وهل شهد موكب المعاني في مقصورة ابن دريد؟ وهل درس رائية أبي صخر وعينية أبي ذؤيب؟.

أحب أن أعرف أين مكانك بين أدباء اللغة العربية، يا صديقي؟

أحب أن أعرف أتجدّ في دعواك أم تكون من الهازلين؟

اقسم بالله وبالشرف أني لفي عجب من غفلة الأستاذ احمد أمين عن ذخائر الأدب العربي، مع أنه أستاذ مسئول يتصدر لتدريس الأدب في أكبر معهد من معاهدنا الأدبية.

ويزيد في الأسف أنه لم يكن كذلك فيما كنا نعرف من شمائله الذاتية، فقد استطاع أن يظفر بثقة ناس من كبار الأدباء منهم لطفي السيد وهيكل وطه حسين والمازني والعقاد والزيات والبشري، وسمعنا ثناء عليه في بيئات تزن أقدار الرجال، فمن أين وصل إليه مرض الحذلقة الذي كاد يضيفه إلى أدعياء الأدب والبيان؟.

أتريدون الحق؟

الحق أن احمد أمين لم يوفق إلى الإجادة إلا في الموضوعات التي سار فيها على سنن مسلوك مهده العلماء من قبل.

فكتاب (الأخلاق) له مصدر معروف، فهو في جملته وتفصيله وأصوله وفروعه تلخيص لأي كتاب أوربي في الأخلاق، ولو شئت لسقت الأدلة والبراهين.

وفجر الإسلام وضحى الإسلام لهما أصول من أبحاث المستشرقين عن المدنية الإسلامية، وفيهما توجيهات للدكتور طه حسين سأكشف أسرارها حين أشاء، وفيهما سرقات في شئون اجتماعية ونحوية، ولو شئت لقلت إنه نهب بعض آراء الأستاذ فلان، وهو يعرف من أعني، وسيعرف كيف نجازيه بعد حين.

بقي أحمد أمين (الأديب) الذي ينقل عن العقل والروح فهل قرأتم له مقالة واحدة تشهد بأن له مواهب فيها أصالة وعمق.

وكيف يصح ذلك، وهو يرى أن الأدب العربي لم ينبغ فيه غير شاعر واحد؟

ومن هو الشاعر؟

هو ابن الرومي، وإنما نص عليه بالذات، ليصح له اتهام الأرومة العربية بالفقر والإجداب، فقد كان المازني كتب منذ أعوام أبحاثاً عن ابن الرومي، وقرر في تلك الأبحاث أن ابن الرومي ورث طريقة التحليل عن أجداده الأبعدين من اليونان.

ولست بصدد الرد على المازني، الأديب العظيم، حتى ابحث من أين أخذ هذا الرأي، وإنما يحق لي أن أسأل: هل كان ابن الرومي أول شاعر عربي له أسلاف من اليونان؟.

ومن هو الجد اليوناني لطرفة بن العبد، وقد وصف ناقته في المعلقة وصفاً هو النهاية في التحليل والاستقصاء؟.

ومن هو الجد اليوناني لعمر بن أبي ربيعة وأشعاره تقوم على أساس من الحوار والتحليل والتمثيل؟.

ومن هو الجد اليوناني للشاعر لبيد وفي معلقته تحليل دقيق؟

ومن هو الجد اليوناني للشريف الرضي وفي حجازياته أوصاف وتحليلات لم يهتد إلى مثلها سدنة الهياكل اليونانية؟.

وما رأي الأستاذ أحمد أمين في أبي العلاء صاحب اللزوميات وصاحب رسالة الغفران؟

ألا يرى أن أبا العلاء كان من الشعراء الذين يجيدون تحليل المعاني؟

إن أبا العلاء قضى الشطر المثمر من عمره، وهو يحاور نفسه ودنياه، وقد وصل في التحليل والاستقصاء إلى أبعد الحدود، برغم المآخذ النفسية التي قيدناها عليه في كتاب (وحي بغداد) فهو عندنا لا يقل عظمة في تحليلاته ومحاوراته عن أكبر شاعر يبرع في الحوار والتحليل.

أفلا يتفضل الأستاذ أحمد أمين بالاعتراف بمكانة أبي العلاء بين أقطاب الشعراء والمفكرين، فيضيفه إلى ابن الرومي وابن خلدون؟!.

يظهر أن الأستاذ أحمد أمين نسي أن أبا العلاء شغل الأستاذ العقاد والدكتور طه حسين، فنشر الأول كتاباً عن أبي العلاء ونشر الثاني كتابين!.

يظهر أنه نسي ذلك، وما أنساه إلا الشيطان، ولولا ذلك لاعترف بمكانة أبي العلاء رعاية للعقاد وطه حسين، إن عزت عليه رعاية الحق!.

وأرجع فأقول: إن من التجني على شعراء العرب أن نقول بحرمانهم من النزعة التحليلية، فهم في أغلب الأحوال يهتمون بتصوير المعاني، ويشعرون السامع والقارئ بأنهم يحاورون العواطف والقلوب والعقول، وإليكم قول تميم بن جميل وهو يرعد من خوف الموت بحضرة المعتصم:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يلاحظني من حيثما أتلفتُ

وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله يفلت

وأيُّ أمـريءٍ يـدلي بـعـذر وحـجـة ... وسـيف المنايا بين عينيه مصـلـت

يعز على الأوس بن تغلـب موقف ... يُسـلُّ عليّ السـيف فيه وأسـكت

ومـا حَـزِني أني أمـوت، وإنـني ... لأعـلـم أن الموت شـيءٌ مؤقـت

ولكن خلفي صـبيـةً قـد تركتهم ... وأكـبـادهـم مـن حسـرة تـتـفـتـت

كـأني أراهـم حـين أُنـعـى إلـيـهـم ... وقـد خمّشـوا تلك الوجوه وصـوتوا

فإن عشـت عاشـوا خافضـين بنعمة ... أذود الردى عنهم، وإن مـتُّ مُوِّتوا

فـكـم قـائـل لا أبـعـد الله داره ... وآخر جـذلان يُسـرُّ ويشـمـت

أليس هذا الشعر قائماً على الحوار والتحليل؟؟

وما رأيكم في قول ابن الزيات، وقد ماتت زوجته وتركت له طفلاً يؤرقه بكاؤه في هجعات الليل:

أَلاَ مـن رأى الـطـفـل المفـارق أمـه ... بُـعَـيْـد الـكـرى عـيـنـاه تـبـتـدرانِ

رأى كـل أُمّ وابـنـهـا غـير أمـه ... يـبـيـتـان تحـت الـلـيـل يـنـتـجـيـان

وبات وحـيـداً في الـفـراش تجـثـهُ ... بـلابـل قـلـب دائـم الخـفـقـان

ألا إنَ سـجْـلاً واحـداً قـد أرَقـتـهُ ... من الدمع أو سـجلين قد شـفـياني

فـلا تَـلْـحيـانِي إن بـكـيـتُ فـإنمـا أداوي بهـذا الـدمـع مـا تـريان

وإن مـكـانـاً في الـثـرى خُـطَّ لحـدهُ لمـن كـان في قـلـبي بـكـل مـكـان

أحـقُّ مـكـان بالـزيارة والهـوى فـهـل أنتمـا إن عُـجْـتُ منتـظران

فـهبني عزمـتُ الصـبر منهـا لأنني جليـدٌ فـمـن بالصـبر لابـن ثمـان

ضـعيف القُوَى لا يعرف الأجر حسـبةً ولا يأتسـي بالـنـاس في الحـدثان

ألاَ مـن أمـنِّـيـه المـنى وأَعـدّهُ لـعـثـرة أيامـي وصـرف زمـانِي

ألاَ من إذا مـا جئـت أكرم مجلسـي وإن غـبـتُ عـنـه حـاطـني ورعـاني

فـلـم أر كـالأقـدار كيف يصـبنني ولا مثـل هـذا الـدهر كيف رمـاني

فهذه قطعة تحليلية رائعة، وقد يلاحظ بعض القراء أن الصورة الشعرية في هذه القصيدة متنافرة الأجزاء، ولكن لا بأس فهذه القصيدة قد ضاعت أصولها مع الأسف، ولم يبقى منها غير هذه الأبيات وهي مما تخيره ابن رشيق. وقد تعبت في البحث عن أصل هذه القصيدة واستعنت بالأستاذ الشيخ محمد الخضري بك مهذب الأغاني فلم أصل إلى ما أريد، ولكن هذه البقية الباقية من تلك القصيدة تشهد بقدرة ابن الزيات على تحليل المعاني والأغراض.

أما بعد فأنتم تعرفون أن توضيح الواضحات من المشكلات؛ فالعرب في أكثر أشعارهم قد تفوقوا في عرض المعاني والمناظر والمشاهد، ولهم في تصوير الطبائع والشمائل قدرة لا ينكرها إلا جاهل أو مكابر أو حقود.

وليس من الحتم أن يسلكوا جميعاً مسالك ابن الرومي أو أبي العلاء، فلكل شاعر مذهب في الأوصاف والتعابير، واختلافهم في مذاهبهم ومناحيهم ومراميهم هو الشاهد على ما يملكون من الأصالة والذاتية.

وما كان ابن الرومي أكبر شـــاعر عرفه العرب، كما توهم احمد أمين، وقد صـــارحت الأستاذ العقاد بأني أرى الشريف الرضي أشعر من ابن الرومي فلم ينكر ذلك، واكتفي بأن يقول إن مزية ابن الرومي عنده هي التفوق في وصف.

وهذا حق، فمزية ابن الرومي هي الحرص على درس أهواء الناس، وهي مزية شاركه فيها أبو العلاء.

وإذا كان ابن الرومي قد أفلح في تصوير نحائز الخلق فهو مع ذلك لم يصل في شعره إلى الرنة الموسيقية التي كان يتفرد بها البحتري، ولم يصل في الصنعة إلى منزلة أبي تمام أو مسلم بن الوليد، ولم يحس الأنس بالحياة على نحو ما أحس ابن خفاجة أو ابن زيدون أو أبو نؤاس.

ومن هنا نفهم أن للشعراء رسالات مختلفات، فعمر بن أبي ربيعه في بابه أشعر من ابن الرومي في بابه، وابن الرومي في بابه أشعر من ابن أبي ربيعه في بابه. والناقد الضيق الذهن هو الذي يضع للشعر غاية واحدة يحاكم غليها الشعراء.

ومحاســـن الأدب العربي ترجع إلى هذا التنوع الطريف، فليس عندنا شـــاعر يغني عن شـــاعر، وإنما هم اخوة مختلفون في المذاهب والأغراض، ومن اختلاف الألوان التي قدموها تتم الصورة الكاملة للعبقرية العربية.

ثم ماذا؟ ثم يقول أحمد أمين: إن الأدب العربي ليس فيه إلا كاتب واحد يجيد التحليل هو ابن خلدون.

وســنرى في المقال المقبل خطأ ما ادعاه هذا الزميل مع الدعاء له ولنا بالهداية والتوفيق، وإنا أو إياه لعلى هدى أو في ضـــلال مبين، والله المســـتعان على حيرة الفكر في أهل هذا الزمان.

- ١٩ -

رأينا في المقال السالف كيف أخطأ الأستاذ أحمد أمين حين زعم أن الأدب العربي على اختلاف عصوره ليس فيه إلا شاعر واحد يهتم بتحليل المعاني.

فهل نجاه الله من الخطأ حين زعم أن الأدب العربي لم يعرف غير كاتب واحد يهتم باستقصاء الأغراض؟.

إن الله لطف بابن خلدون فشغل به قلب الدكتور طه حسين لتعلو منزلته في نظر الأستاذ أحمد أمين، فأغلب الظن أن احمد أمين لم يكن عنده مانع من القول بأن الأدب العربي في جميع العصور وفي جميع الأقطار لم يخلق فيه كاتب يعرف كيف يشرح المعاني والأغراض على نحو ما يصنع الكتاب في هذه الأيام!.

والحق أن بُعد الدكتور طه حسين عن مصر في أيام الصيف عرض الأستاذ أحمد أمين للمعاطب، فلو أن الدكتور طه بقي في مصر لكان من الجائز أن يعلن إعجابه بكاتب آخر غير ابن خلدون، وعندئذ كان يصح للأستاذ أحمد أمين أن (يتفصل) فيقول إنه لا يعرف في الأدب العربي غير كاتبين اثنين؛ وكان من الجائز أيضاً أن يعلن الدكتور طه حسين إعجابه بكاتب ثالث فيقول الأستاذ أحمد أمين إنه لا يعرف في الأدب العربي غير ثلاثة من الكتاب!.

فهل نرجو أن يتلطف الدكتور طه حسين فيقول إنه لا يُعقَّل ألا ينبغ في الأدب العربي غير كاتب واحد في ذلك الأمد الطويل الذي سيطر فيه على أقطار أسيوية وإفريقية وأوربية؟.

إن الدكتور طه لو قال هذه الكلمة – وهي حق – لسرت عدواها إلى روح الأستاذ أحمد أمين فاندفع يثني على الأدب العربي بما هو أهله، ولكان من الممكن أن يصرح بأن الأدب العربي نبغ فيه من الكتاب عشرات أو مئات.

ولكن الدكتور طه يترفق بأصدقائه أشد الترفق، ويحرص على ستر ما يقعون فيه من أوهام وأضاليل، وقد يقدمهم إلى الجمهور في جلبة وضوضاء، فكيف ننتظر أن يقول في الأدب العربي كلمة حق تشجع رجلاً مثلي على مهاجمة رجل يستبيح في الغض من أدب العرب ما لا يباح؟.

لقد قضيت أعواماً طوالاً في محاربة الدكتور طه حسين، واستطعت أن أعدل مسالكه الأدبية بعض التعديل، فهل أستطيع اليوم أن أخوفه من عواقب السكوت على أغلاط بعض زملائه الأعزاء؟.

إن الدكتور طه هو المسئول عن احمد أمين، فهو الذي قال: (إن أحمد أمين لم يكن يعرف نفسه فهديناه إليها) ومعنى ذلك أن أحمد أمين لم يكن يعرف أنه أديب قبل أن يدله الدكتور طه على الكنز المدفون في صدره.

كنت أعرف أن الدكتور طه على خطأ يوم ظن أنه استكشف (الأديب) المدفون في صدر احمد أمين، ولكني رأيت ألا أسارع إلى تخطئة الدكتور طه، علماً بأن الأيام سترد الدكتور طه إلى الصواب، فهل ردته إلى الصواب؟.

لقد حدثتكم من قبل أن أحمد أمين لم يكن أديباً، وإنما كان موظفاً مخلصاً للوظيفة لا يرى ما عداها من الشؤون، ثم قال له طه حسين: كن أديباً، فكان.

واليوم أحدثكم أني أخطأت، والصواب أن أحمد أمين لم يكن أديباً، وإنما قال له طه حسين: كن أديباً، فلم يكن!.

يا دكتور طه:

هل تصدق القول بأن اللغة العربية لم يكن فيها كاتب يحلل المعاني غير ابن خلدون؟

أحب أن أساجلك الحديث، فقد ضجرت من مساجلة أحمد أمين

ما رأيك في الرعيل الأول من الكتاب بعد عصر النبوة؟

ما رأيك في الخطاب الذي وجهه عبد الحميد بن يحيى إلى الكتاب؟

ألا تراه غاية في تحليل المعاني وتشريح الأغراض؟

وما رأيك في طريقة عبد الله بن المقفع وهو ينثر الحكم أو يكتب العهود؟

إن كتاب كليلة ودمنة هندي الأصل، فليس لابن المقفع غير الترجمة والتهذيب، ولست من القائلين بأن كتاب كليلة ودمنة من إنشاء ابن المقفع، ولكن ما رأيك في مقدمة ذلك الكتاب، وهي بالتأكيد من إنشاء ابن المقفع؟.

أليست تلك المقدمة شاهداً على أن ابن المقفع يجيد الاستيعاب والاستقصاء؟

وما رأيك في الكتاب الذين عرفتهم اللغة العربية بعد ذلك؟

هل يستطيع إنسان أن يقدم ابن خلدون على الجاحظ إلا وهو محروم من نعمة الفهم والذوق؟.

إن الجاحظ كاد يستوعب جميع المعارف في عصره، وكاد ينطق جميع الأحياء والأموات بما عرفوا وأحسوا من دقائق الأشياء. والذي يقرأ رسائل الجاحظ ومؤلفاته يشهد المعارك والمصاولات بين أصحاب المذاهب والآراء، ويرى كيف تصطرع الطبائع والنحائز والخصال.

فهل يجوز القول بأن اللغة التي عرفت أدب الجاحظ ليس فيها كاتب غير ابن خلدون؟

وما رأيك في ابن قتيبة؟

هل تذكر مقدمة كتابه (أدب الكاتب)؟

إن (أدب الكاتب) هو في الأغلب دراسات لغوية وصرفية ولكن ما رأيك في مقدمة ذلك الكتاب؟.

أليست غاية في التحليل والتشريح؟

وقبل الجاحظ وابن قتيبة عرف الأدب العربي (مشاورات المهدي لأهل بيته) وأذكر أنك حاورتني في صحة هذه المشاورات وصح عندك أنها من الأدب المنحول، وكانت حجتك أنها لم تذكر في غير كتاب العقد الفريد. وقد ضاق وقتي عن تعقب المصادر التي وردت فيها إشارة إلى تلك المحاورات، فهل تظن أنها من بعض ما اخترع كتاب الأندلس؟.

المهم، يا سيدي الدكتور، أن نتفق على أنها سبقت القرن الرابع، ولا يهمنا بعد ذلك أن تكون مشرقية أو مغربية، كما لا يهمنا أن تكون من نتاج القرن الثاني أو الثالث، فما يعنينا في هذا المقام إلا أن نتخذها شاهداً على أن من كتاب العرب من أجادوا التحليل والتشريح قبل ابن خلدون بأجيال طوال.

ومن المؤكد أن مشاورات المهدي لأهل بيته ليست أول وآخر ما عرف العرب من هذا الطراز، فلها أشباه كثيرة منها (حديث السقيفة) الذي قصه علينا التوحيدي والذي نقده ابن أبي الحديد.

ولولا خوف الفتنة لأشرت إلى قصة دينية كثر فيها الحوار والتمثيل، وهي من الشواهد على أن العرب تنبهوا من وقت مبكر إلى تحليل المعاني وتشريح الأغراض.

وما رأيك في أبي حيان التوحيدي؟

ألا ترى أن أعماله في القرن الرابع تذكر بأعمال الجاحظ في القرن الثالث؟

كان الجاحظ ينطق العلماء والفقهاء والأدباء، وكذلك كان التوحيدي ينطق من عاصروه بألوان كثيرة من صور الفكر والبيان.

ومن المؤكد أن التوحيدي أكتب من ابن خلدون وأسبق إلى تشريح الآراء والأهواء

ومن المؤكد أيضاً أن التوحيدي لا يقل عن أعظم كاتب عرفته اللغات الأجنبية، وشمائله في الأسمار تذكر بشمائل أناطول فرانس.

وهل يذكر الدكتور رسالة الطير والحيوان بين رسائل إخوان الصفاء؟

لقد دلنا ابن أبي الحديد على واضع (حديث السقيفة) فمتى نعرف الكاتب المجهول الذي وضع (مشاورات المهدي لأهل بيته)؟ ومتى نعرف الكاتب المجهول الذي وضع (رسالة الطير والحيوان)؟.

قد نتعزى حين نيأس من معرفة المهندس الذي وضع تصميم الأهرام، والمهندس الذي وضع تصميم إيوان كسرى والمهندس الذي وضع تصميم قصر الحمراء، ولكنا لن نتعزى أبداً عن اليأس من معرفة الكاتب الذي وضع (رسالة الطير والحيوان) لأنه عندنا أعظم كاتب عرفته الآداب العالمية بعد أفلاطون.

هل يذكر الدكتور ما قال يوم لقيته في جريدة كوكب الشرق؟

لقد صارحني الدكتور طه حسين بأن الفصل الذي حللت به رسالة الطير والحيوان في كتاب النثر الفني غير كاف، وقد أجبت بأنه فصل من كتاب، وتحليل هذه الرسالة يحتاج إلى كتاب خاص.

فكيف يقال إن اللغة العربية لم ينبغ فيها كاتب غير ابن خلدون وفيها (إخوان الصفاء) الذين سجلوا معارف زمانهم أعظم تسجيل؟.

لقد أشرت من قبل إلى الميزة الخلقية التي امتاز بها أولئك القوم، وهي نكران الذات، وإلا فمن الذي يصدق من أهل عصرنا أن جماعة من أهل البصرة أو غير أهل البصرة يخفون هوياتهم عن أعين التاريخ مع تلك القدرة الباهرة على تشريح الحقائق والأباطيل؟.

وما رأي الدكتور في ابن شُهيد صاحب (التوابع والزوابع)؟

ألا يسمح لهذا الكاتب المبدع بأن يضاف إلى من يجيدون تحليل المعاني واستقصاء الأغراض؟.

إن ابن شهيد في تلك الرسالة قارع المعاني الصعبة مقارعة الفحول، ودخل في شعاب لا يهتدي إلى مسالكها غير المزودين بأضواء البصائر والقلوب، فكيف يُجهل ويُعرف ابن خلدون؟!.

وما رأيك في التنوخي صاحب (نشوار المحاضرة)؟

ألا يذكرك هذا الكاتب بكتاب (الصور) من أقطاب الفرنسيس والإنجليز والألمان؟

لو كان التنوخي في أمة غير الأمة التي طبع فيها ديوان ابن خفاجة مرة واحدة في مدى أربعين سنة لجاز أن يخطر في بال الذي قال إن اللغة العربية لم تعرف كاتباً غير ابن خلدون!.

وما رأيك في ابن مسكويه صاحب (تجارب الأمم)؟

ألم يهتد ابن مسكويه إلى فلسفة التاريخ قبل ابن خلدون بأزمان؟

وما رأيك في الجرجاني صاحب (دلائل الإعجاز)؟

هل ترضى أن توازن بين الجرجاني وبين لانسون؟

إن الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز أبرع وأعظم من لانسون في كتابه ' ' ولكن لانسون وجد رجالاً يعرفون قيمته الأدبية، أما الجرجاني فله أخلاف ينسونه ويذكرون ابن خلدون!.

وهل يمكن لرجل فيه بقية من الفهم والعقل أن يتناسى العظمة الفكرية عند أمثال عبد القاهر الجرجاني؟ ومن قبل الجرجاني عبد القاهر كان أستاذه أبو الحسن الجرجاني الذي فصل ما بين المتنبي وخصومه أعظم تفصيل، والذي أدخل في الأحكام الأدبية روحاً من عدل القضاء.

ومن قبل هؤلاء نشأ احمد بن يوسف المصري الذي برع في تسجيل ما عرف عن معاصريه من محاسن وعيوب، والذي وصل إلى الغاية في شرح أهواء النفوس.

وهل ترى أن يقف الأدب عند الرسائل والمؤلفات التي غلبت عليها الصفة الاصطلاحية؟.

إن ميدان الأدب أوسع من ذلك، فإليه تضاف أعمال المؤلفين في التصوف والأخلاق

إن صح هذا – وهو صحيح – فهل أستطيع أن أعرف رأيك في الغزالي؟

أنا أعتقد أن الغزالي من فحول الكتاب في اللغة العربية، وأومن بأنه من المبتكرين في تحليل النوازع النفسية والقلبية، وفي كتاب (الإحياء) فصول تشهد بأنه من أئمة الفكر والبيان.

اقرأ – إن شئت – بعض ما كتب في الرياء تجده أتى بالأعاجيب في التنبيه على المجهول من سـرائر النفوس، وتعرف – وأنت تعرف – أنه في بابه أعمق من ابن خلدون وأقدر على التحليل والتشريح.

قلت في محادثة قريبة بأنه لا يسرك أن تراني أعتدي على الناس.

لقد ذهب الناس، يا سيدي الدكتور!

أليس من المحزن أن يحتاج الأدب العربي إلى من يحميه من غطرسة بعض الأساتذة بكلية الآداب؟.

إن الأسـتاذ الذي لم يعرف في اللغة العربية كاتباً غير ابن خلدون لم يطلع أبداً على كتاب الفتوحات المكية، فلو أنه كان اطلع على ذلك الكتاب لعرف أن عندنا كاتباً فحلاً هو ابن عربي الذي طوف بآفاق يجهلها أكثر الأدباء في هذا الجيل.

وهو أيضاً لم يطلع على مؤلفات الشعراني الذي صور المجتمع المصري في القرن العاشر تصويراً نعجز عن مثله اليوم، وأكاد أجزم بأن الصحف المصرية على اختلاف ألوانها ونزعاتها لا تعطي من صور مصر في العصر الحاضر ما أعطته مؤلفات الشعراني من صور مصر في القرن العاشر.

وما كان الغزالي ولا ابن عربي ولا الشعراني إلا تلاميذ لأساتذة مجهولين وضعوا الأساس لحياة الفكر والتأليف في مختلف الأقطار العربية والإسلامية.

هل تذكر المقريزي، يا دكتور؟

أنظر خطط المقريزي، وتذكر العصر الذي عاش فيه المؤلف ثم وازن بينه وبين أي باحث من نوعه عاش في الأقطار الأوربية، فإن فعلت فسـترى أن أسـلافنا كانوا من أئمة الابتكار والابتداع فبأي حق يقال إن اللغة العربية لم ينبغ فيها كاتب غير ابن خلدون؟.

إن ابن خلدون ممتاز في الترتيب والتبويب، وتلك هي الصـفة التي يعنيها أحمد أمين، فأين هو من القلقشندي الذي بوب (صبح الأعشى) تبويباً معدوم النظير؟.

وأين هو من السخاوي الذي صور القرن التاسع كأنك تراه؟

وأين هو من الحركات العقلية الممثلة في ذخائر التفكير العربي والإسلامي؟

الأدب، يا دكتور، له فنون تتجاوز ما أسلفنا من الفنون، فأين صاحبك من الكتاب الذين شغلوا أنفسهم بتشريح الدقائق النحوية والصرفية؟.

إن سيبويه ألف (الكتاب) في القرن الثامن للميلاد، فهل تعرف أن الأقطار الأوربية كان فيها مؤلف يشرح أصول النحو والصرف كما صنع سيبويه في ذلك العهد؟.

وهل يمكن أن يقال إن ابن خلدون كان في التشريحات السياسية والاجتماعية أعمق من سيبويه في التشريحات النحوية والصرفية؟.

وهل يمكن القول بأن جوهر العقل عند سيبويه أقل قيمة من جوهر العقل عند ابن خلدون؟.

إن الأستاذ أحمد أمين لا يرى غير ظواهر الأشياء، ولو كان عميق الفكر لعرف أن رجلاً مثل ابن هشام الأنصاري خليق بأن يوضع في أول صف من صفوف الباحثين الذين يجيدون تشريح المعاني، فهذا الرجل عرض مسائل النحو في صور مختلفات، وبذل في ذلك جهداً يشهد بأنه في غاية من سمو الفهم والعقل، وقد استطاع أن يجعل القاهرة في صف البصرة والكوفة وبغداد، ومجموعة المحاولات التي بذلها في تكييف المعضلات النحوية والصرفية أقوى من مجموعة المحاولات التي بذلها ابن خلدون في تكييف السياسة والاجتماع.

إن فقهاء الشرع الإسلامي كان فيهم فحول من الوجهة الأدبية، ولكن أين من يدرك أن البويطي صاحب كتاب الأم كان من أقطاب البيان؟.

أين من يصدق أن البويطي عرض الخلاف بين الشافعية والحنفية عرضاً هو الغاية في حسن التعبير، ودقة الوصف، وسداد الأداء؟.

ومع ذلك نجد من يقول بأن اللغة العربية لا تعرف كاتباً غير ابن خلدون!

أما بعد فما الذي بقي لأحمد أمين وقد مزقنا أوهامه كل ممزق!

بقي أن نبين أن أغلاطه ليست أغلاط الرجل المجتهد – وللمجتهد أجر حين يخطئ وأجران حين يصيب – وإنما أغلاطه مسروقة سرقة حرفية من بعض أدباء هذا الجيل.

فكيف سرق أحمد أمين تلك الأغلاط؟ وكيف خفيت سرقاته على الناس؟

سـنكشـف تلك السـرقات في مقال أو مقالين، ثم نتركه في سـلام ليتذوق البقية من أطايب رمضان، إن لم يجد ما يوجب أن يفطر يوم العيد على حديث ذي شجون.

- ٢٠ -

من كلام الحكماء: (نعوذ بالله من الحديث المعاد)

وإنما استعاذ الحكماء من الحديث المعاد لأنه شاهد على انعدام القدرة على الابتكار والابتداع والخلق والإنشاء، ولأنه يدل على استهانة المتكلم بأقدار من يخاطب من الرجال، ولأنه يشهد بأن صاحبه قد لا يعني ما يقول.

وصديقنا القديم الأستاذ أحمد أمين موكل بالحديث المعاد ينقله من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل، وقد صحت فيه كلمة أحد النقاد القدماء في سعيد بن حميد:

(لو قيل لكلام سعيد وشعره: ارجع إلى أهلك لما بقي معه شيء)

وكذلك نقول في كلام أحمد أمين: فلو دعونا مقالاته ومؤلفاته بالرجوع إلى أهلها لما بقي معه شيء!.

وما ظنكم برجل يتوهم أن القراء في الأقطار العربية هم جميعاً أبناء الأمس، وما فيهم من قارئ واحد سمع من أخبار الأدب والمجتمع غير ما يتحدث به أحمد أمين؟.

وإليكم هذا الشاهد:

كان المرحوم الشيخ محمد الخضري بك ألقى محاضرة منذ خمسة وعشرين سنة عن تطور المجتمع المصري، وقد نص في تلك المحاضرة على الخطأ الذي ارتكبته مصر حين سمحت بأن ينقسم التعليم إلى شعبتين: شعبة دينية وشعبة مدنية، وقال: إن هذا يعرض مصر لشهود الصراع بين طائفتين تختلف عقلياتهم أشد الاختلاف.

وقد سمعت هذه المحاضرة وسمعها الأستاذ أحمد أمين، فهل تعرفون ما الذي وقع؟

وقع أن الأستاذ احمد أمين فهم أن الشيخ الخضري مات منذ أكثر من عشر سنين، وأن الذين سمعوا تلك المحاضرة منذ خمس وعشرين سنة قد أنستهم الأيام ما كان في تلك المحاضرة من آراء.

وكذلك أعد القلم والدواة والقرطاس ليحدث قراء (الثقافة) بأن مصر ارتكبت جرماً فظيعاً حين سمحت بأن ينقسم التعليم إلى شعبتين: شعبة دينية وشعبة مدنية، وأن هذا عرض المجتمع المصري لشهود الصراع بين طائفتين تختلف عقلياتهم أشد الاختلاف.

وكيف قال هذا الكلام؟ قاله وهو يوهم القراء أنه من المبتكرات في عالم الاجتماع!

ولم يكن الشيخ الخضري أول من قال ذلك الكلام الذي سرقه احمد أمين، فقد تنبه المغفور له علي باشا مبارك إلى هذه الفكرة منذ أكثر من سبعين سنة، وعلى أساس هذه الفكرة أنشأ مدرسة دار العلوم ليخلق جيلاً يجمع بين الصبغة الدينية والمدنية ويكون أساساً للتطور المعقول.

وهذه الفكرة عرض لها الكتاب بالنقد والشرح مرات كثيرة في مدى أعوام طوال، وفصلها المنفلوطي في (النظرات) بعض التفصيل، وإن كان ساقها في مساق آخر هو التناحر بين الأخياف من أبناء الثقافة المدنية.

من حق أحمد أمين أن يلخص كلام من سبقوه ليطلع عليه شبان هذا الجيل

ولكن هل راعى الأمانة العلمية وهو أستاذ مسئول؟

هل رجع كل كلام إلى قائله كما يصنع أساتذة الجامعات؟

لم يصنع شيئاً من ذلك، وإنما انتهب ما انتهب، ثم واجه القراء وهو مزهو مختال، كأنه صار بالفعل من أهل الابتكار في الميادين الأدبية والاجتماعية!.

قد يقال: وأين هذا الكلام من الموضوع الأصيل؟

وأجيب بأني أريد أن أبين أن أغلاط أحمد أمين لم تكن أغلاط الرجل المجتهد، وإنما هي أغلاط منهوبة مسروقة ليس فيها من جديد غير برقشتها بحبر جديد في ورق جديد!.

وإليكم يساق الحديث

لبس أحمد أمين ثوب المفكر المبتكر وقال: إن الأدب الجاهلي جنى على الأدب العربي حين فرض عليه ما عرف الجاهليون من ألفاظ وأخيلة وتعابير وقواف وأوزان.

وهذه الفكرة خطأ في خطأ، وهو نقلها عن بعض الكتاب الذي تكلموا في النقد الأدبي بلا زاد من المعارف الأدبية، وبلا سناد من فهم التطور الذي شهده العرب في ميدان الحقائق الأدبية.

وآفة الأدب في مصر وفي غير مصر أنه معرض في كل وقت لغارة الأدعياء، فكل مخلوق يتوهم أن من حقه أن يقرأ الشعر والنثر قراءة الخبير بأسرار الدقائق الشعرية والنثرية، وأن يوازن بين الشعراء والخطباء والكتاب والمؤلفين بعد أن تتيح له المقادير أن يفرق بين المنظوم والمنثور، وبين الخطاب والكتاب، وبين الألف والباء!.

وهل كان من الصحيح أن الأدب الجاهلي جنى على الأدب العربي في العصور الإسلامية؟.

إن العرب تحللوا من قيود الأدب الجاهلي منذ أول يوم توجهوا فيه إلى الاتصال بغيرهم من الممالك والشعوب.

ويقول المبتدئون في الأدب إن أبا نؤاس كان أول من ثار على التقاليد الجاهلية، وهذا غير صحيح، وإن صار من الحقائق المقررة عند بعض أساتذة كلية الآداب.

والصحيح أن الثورة على التقاليد الجاهلية في الأشعار والرسائل سبقت عهد أبي نواس بزمن بعيد. ولهذه الثورة شواهد في العصر الأموي سنسوقها حين نجد ما يجب ذلك، أو حين ينطق الأستاذ أحمد أمين الذي خرج بالصمت عن لا ونعم، والذي نزل بالبرج العاجي ضيفاً على الأستاذ توفيق الحكيم.

قلت لكم غير مرة إن أحمد أمين قليل الاطلاع على تاريخ الأدب العربي، فلو كان من المطلعين لعرف أن العرب بعد الإسلام أعلنوا ثورتهم على التقاليد الجاهلية، وصرحوا بأن الأدب يتأثر بالزمان والمكان، وأن أخيلة سكان الحواضر يجب أن تختلف عن أخيلة سكان البوادي، وأن من يعيش في مصر له أذواق تخالف من يعيش في الحجاز أو العراق أو الشام أو المغرب أو فارس أو الهند.

لو كان أحمد أمين من المطلعين لعرف أن من العرب في القرن الثالث من صرح بأحكام يعجز عن التصريح بها من يعيشون في هذه الأيام.

هل تصدقون بأن من كتاب القرن الثالث من قال بأنه لا يجوز أن نحاكي القرآن في جميع التعابير؟.

وهل في الدنيا جرأة أعظم من جرأة الرجل المسلم حين يقول في زمن شباب الإسلام بوجوب التحرر من بعض أساليب القرآن؟.

وهل يجوز القول بأن من جاز عندهم الخروج على الأساليب القرآنية تصعب عليهم الثورة على التقاليد الجاهلية؟.

انظروا كيف يقول ابن المدبر في (الرسالة العذراء):

(وأعلم أنه لا يجوز في الرسائل ما أتى في آي القرآن من الإيصال والحذف، ومخاطبة الخاص بالعام، والعام بالخاص، لأن الله سبحانه وتعالى إنما خاطب بالقرآن أقواماً فصحاء فهموا عنه جل ثناؤه أمره ونهيه. والرسائل إنما يخاطب بها قوم دخلاء على اللغة لا علم لهم بلسان العرب. وكذلك ينبغي للكاتب أن يتجنب اللفظ المشترك والمعنى الملتبس، فأنه إن ذهب على مثل قوله تعالى (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي اقبلنا فيها) وقوله تعالى (بل مكر الليل والنهار) احتاج أن يبين أن معناه (اسأل أهل القرية وأهل العير) و (بل مكركم بالليل والنهار) ومثله في القرآن كثير).

فما معنى هذا الكلام؟

معناه أن العرب فهموا أن القرآن وهو عندهم تنزيل من حكيم حميد راعى عقلية العصر الذي نزل فيه فخاطب الناس بما يفهمون، وأنه حين يتغير الناس بتغير الزمان لا يجب أن نخاطبهم بالأسلوب الذي استجازه القرآن، لأنه نزل على قوم يدركون الحذف والإيصال ومخاطبة الخاص بالعام، والعام بالخاص.

فهل يعقل أن يكون الأدب الجاهلي أقدس عندهم من القرآن؟

وهل يجوز اتهام العقلية العربية بالجمود والخمود لتصح أوهام أحمد أمين؟

أنا أتحدى أي باحث أن يثبت أن العرب لم يدركوا ما يوجبه اختلاف الزمان والمكان في تلوين الصور والأفكار والأساليب.

أتحدى أي باحث أن يقيم الدليل على أن العرب التزموا محاكاة التعابير القرآنية والنبوية

وكيف فات أحمد أمين أن العرب لم يلتزموا وحدة الوزن والقافية على نحو ما التزم الجاهليون؟.

ألم تصل إليه أخبار التجديد والتنويع في القوافي والأوزان عند أهل المشرق وأهل المغرب؟

ألم تصل إليه أخبار الموشحات والأزجال؟

ألم يسمع بما دخل في الشعر العربي من الأخيلة الفارسية والمصرية والأندلسية؟

ألم يحدثه أحد بأن الذوق الأدبي عند مهيار الديلمي يخالف الذوق الأدبي عند الشريف الرضي؟.

ألم يعلم بأن عمارة اليمني له مذاهب في القول تخالف مذاهب ابن حمديس؟

ألم يقرأ ما كتب أبو الحسن الجرجاني في اختلاف الأذواق باختلاف الوجوه والطباع؟

ألم تحدثه كتب الفقه بأن الشافعي تغيرت حاسته التشريعية بالتردد بين الحجاز ومصر والعراق؟.

ألم يسمع بأن علماء البلاغة في مصر لهم مسالك تخالف مسالك أمثالهم في فارس؟

ألم يصل إليه القول بأن كتاب الإحياء له ألوان مختلفات بسبب تنقل المؤلف من أرض إلى أرض؟.

ألم يشهد تطور الأسلوب عند ابن عربي في الفتوحات المكية بسبب اختلاف موطن التأليف؟.

ألم يعرف بأن شعراء اليتيمة تختلف أذواقهم باختلاف البلاد؟

ألم يدرك أن أشعار البهازير لها مذاق غير مذاق أشعار أبن زيدون؟ ألم يلمس الخشونة والنعومة في تردد ابن الجهم بين البادية وبغداد؟.

وهل بقي أحمد أمين على حال واحد حتى يبقى الناس جميعاً على حال واحد؟

إن أحمد أمين القاضي الشرعي كانت له مسالك في الحكم على الأشياء تخالف مسالك احمد أمين الأستاذ في كلية الآداب.

فكيف يقال إن الشاعر الذي يعيش في الأندلس أو في فارس لا يزال خاضعاً لأذواق أسلافه القدماء في الحجاز أو العراق؟.

إن أذواق أهل العلم في البلد الواحد تختلف باختلاف المعهد الذي يتخرجون فيه، مع وحدة الزمان، ومع تقارب المشارب والميول. فالمتخرج في الأزهر غير المتخرج في دار العلوم وغير المتخرج في كلية الآداب. وقد كان مفهوماً عند أهل مصر أن المتخرج في الأزهر غير المتخرج في الجامع الأحمدي مع التقارب الشديد فيما يلقى هنا هناك من المعارف العقلية والنقلية. وأهل فرنسا يفهمون أن المتخرج في جامعة باريس غير المتخرج في جامعة ليون.

وإنما كان الأمر كذلك لأن اختلاف المكان يؤثر في الأذواق حتى صح القول بأن الأدب الإنجليزي في إنجلترا يبعد بعض البعد أو كل البعد عن الأدب الإنجليزي في أمريكا.

وكذلك يقال في الأدب الفرنسي حين يصدر عن أرض فرنسية أو بلجيكية أو سويسرية

فكيف يمكن أن يتفرد العرب بالخروج على هذا القانون الذي تفرضـــه طبيعة الوجود على سائر الناس.

وهل يجوز في ذهن عاقل أن تكون جيمية ابن الرومي نسـخة ثانية من جيمية الشـماخ لوحدة القافية؟.

وهل يصـح أن تكون تائية حافظ إبراهيم في رثاء محمد عبدة صـورة من تائية دعبل في التوجع لأهل البيت بحجة الاتفاق في الوزن والقافية؟.

إن احمد أمين ينظر في ديوان جاهلي وديوان إسلامي فيرى قصائد تشابهت في القوافي والأوزان فيحكم بأن الشعر لم ينتقل من حال إلى حال، وإن اختلفت الأماكن والأجيال.

ولو نظر غيره هذه النظرة لقلنا أنه يحكم أحكاماً عامية، ولدعوناه إلى الانســحاب من ميدان الدراسات الأدبية.

من واجب أحمد أمين أن يفهم أن أسـاتذة الجامعات لا يصـح لهم الوقوف عند ظواهر الأشياء، فأقل مزية لرجل الجامعة أن يكون في إحساسه كالشاعر الذي قال:

أسمع في قلبي دبيب المنى = وألمح الشبهة في خاطري

وأحمد أمين أســـتاذ في كلية الآداب، وهي كلية على جانب عظيم من الكبرياء، وهي تأبى الاعتراف بأي معهد يقارعها في هذه البلاد، ولا تنظر إلى سـائر المعاهد الأدبية إلا بعين الاستخفاف.

والمنزلة التي صـارت إليها كلية الآداب بفضـل جهود أسـاتذتها الكبار من المصـريين والأجانب توجب على الأسـتاذ أحمد أمين أن ينظر في كل كلمة يكتبها خمسـين مرة قبل أن يعرضها على الناس.

فأين كان حرصـه على مكانة تلك الكلية يوم زعم أن الأدب العربي لم يتطور قط، وأن الأدب الجاهلي ظل يسيطر عليه من عصر إلى عصر حتى خنق مواهب أحمد شوقي وحافظ إبراهيم؟.

وهنا يتسع المجال لعرض سرقة جديدة من سرقات احمد أمين فهل يعرف هذا الباحث الكبير من أين أخذ القول بأنه يجب أن نضع القنبلة مكان القوس؟.

لقد سرق هذه الفكرة من باحث لا أنوه باسمه إلا وأنا كاره لأني أبغضه أشد البغض وقد أرجع إلى مصاولته بعد أيام أو بعد أسابيع.

هذا الباحث هو الدكتور طه حسين الذي عرف الجمهور بالأستاذ احمد أمين

ولكن متى قال الدكتور طه هذا الكلام؟

إن أحمد أمين يظن أن ذاكرة الناس ضعفت كل الضعف، وأنه لم يبقى في مصر أو غير مصر من يتذكر مقالة نشرت منذ عام أو عامين، فكيف يتذكرون مقالة نشرت منذ أكثر عشر سنين؟.

فما هي تلك المقالة؟

هي مقالة الدكتور طه حسين في نقد بائية شوقي في يوم (سقاريا) التي عارض بها بائية أبي تمام في يوم (عمورية)، بائية شوقي ذات المطلع:

الله أكبركم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

وقد نص الدكتور طه في تلك المقالة على أن شوقي استعمل في وصف الحرب التركية اليونانية ألفاظاً وتعابير كانت تعرفها الحروب القديمة، ولكنها مجهولة عند المحاربين في العصر الحديث.

أنكر الدكتور على شوقي أن يقول في خطاب مصطفى كمال:

قذفتَهم بالرياح الهُوج مسرجةً يحملن أُسد الشرى في البيض واليَلَبِ

وأن يقول في مدح الجنود الأتراك:

والجاعلين سيوف الهند ألسنهم والكاتبين بأطراف القنا السُلُب

وكانت حجة الدكتور طه أن (أسد الشرى) عبارة قديمة وقد لا يفهمها الترك، وأن (البيض واليلب وأطراف القنا السلب) ليست أهم الأدوات الحربية في هذه الأيام.

وقد تأذى شوقي بهذا النقد اشد التأذي لأنه في ظاهره لا يخلو من بريق، ودعاني إلى الرد على الدكتور طه حسين ولكني اعتذرت لأسباب أدبية لا يتسع لشرحها المقام، ولعلي كنت أحرص على مجاملة الدكتور طه في ذلك الحين.

ومقالة الدكتور طه في نقد بائية شوقي مشوهة جداً، ولكن عند من؟

عند الذين كانوا يسايرون الحياة الأدبية أيام الفتنة بين السعديين والدستوريين والاتحاديين، وهي مقالة نشرت في جريدة يومية كانت قليلة الذيوع وهي جريدة الاتحاد، ولكنها كانت على كل حال مما يطلع عليه الأستاذ أحمد أمين.

ماذا يظن أحمد أمين بذاكرة الرجال؟

هل يتوهم أن النقد الأدبي قد أنعدم في مصر وأنه لا يوجد في هذه البلاد من يذكر تطور الآراء النقدية من حال إلى أحوال؟.

يجب أن يعرف جيداً أننا سنحصي عليه خطرات قلبه، وسنردها خطرة خطرة إلى ما قرأ وما سمع، فلا يزهي ولا يختال بترديد الحديث المعاد. فهل يقرأ هذا الكلام بعض من كبر عليهم أن نهجم على الأستاذ أحمد أمين؟.

إن الذين فتنوا بحذلقة احمد أمين لم يكونوا يعرفون أنه ينتهب آراء المعاصرين وغير المعاصرين بلا تهيب ولا تخوف، ولم يكن يدور في خواطرهم أن هذا الرجل له سطوات على الكتب والمقالات يأخذ بها ما يشاء بلا ترفق ولا استبقاء.

قد يقال: وما خطر هذه السرقات؟ وما العيب في أن يسرق احمد أمين كلام طه حسين؟.

وأجيب بأن النص على السرقات يشرح تطور الأفكار الأدبية، وذلك مغنم ليس بقليل

وسنرى في المقال المقبل سرقات أغرب وأعجب. . . ومن الله وحده ننتظر حسن الجزاء على هذا الجهاد.

- ٢١ -

رأينا في المقال السالف سرقتين من سرقات الأستاذ أحمد (الأمين) كما كان يسميه أستاذنا الشيخ المراغي قبل أن تنكشف تلك السرقات.

والكشف عن سرقات هذا الرجل المفضال لا يعد من الإيذاء حتى نقبل دعوة بعض الأصدقاء إلى مهادنته مراعاةً لأدب الصيام. فاحمد أمين نفسه يحكم منصبه في كلية الآداب يعرف أن الكشف عن سرقات الشعراء والخطباء والكتاب نوع من المرانة الذهنية، وفن من فنون الأدب الرفيع.

وأعترف بأن اهتمامي بكشف سرقات أحمد أمين لا يخلو من شيطنة، ولعله ضرب من المنافسة للدكتور طه حسين، فالدكتور طه قد زعم أن أحمد أمين لم يكن يعرف نفسه فهداه إليها، وأنا أيضاً أزعم أن أحمد أمين لم يكن يعرف نفسه وسأهديه إليها، مع الفرق بين الهدايتين.

وأصرح بأن تشجيع القراء وحرصهم على أن تجمع هذه المقالات في كتاب يرجع إليه من تهمهم معاودة النظر فيما شرحناه من الحقائق الأدبية، ذلك التشجيع لا يهمني كثيراً وإن كان يدلني على يقظة القراء ورغبتهم في محاسبة الكتاب والباحثين.

وإنما أنتظر أن أتلقى كلمة ثناء من الأستاذ أحمد أمين لأعرف أن الجميل في هذا البلد لا يضيع، فهو يعرف جيداً أني قدمت إليه خدمة عظيمة حين دللته على أن مصر لا تزال بخير ففيها رجال يحاسبون من كان في مثل منزلته من المتصدرين لتدريس الأدب بكلية الآداب، وهل يظن أصدقاؤنا بتلك الكلية أن حديقة الأورمان منطقة من مناطق المريخ، وأنهم بمنجاة من أسنة الأقلام؟ هيهات ثم هيهات؟!.

ونرجع إلى السرقات فنقول:

شغل الأستاذ أحمد أمين نفسه بالنص على أن العرب في جاهليتهم لم تكن لهم وثنية تبدع الأساطير على نحو ما كان الحال عند اليونان، وذلك يشهد بأن الجاهليين لم يكونوا من أهل الخيال وقد ناقشنا هذا الرأي بمقال مفصل نكره تلخيصه اليوم لئلا نقع في الحديث المعاد، فهل يعرف القراء من أين أخذ الأستاذ أحمد أمين هذا الرأي؟ أخذه من قول الدكتور أحمد ضيف:

(وقد قال بعض المستشرقين مثل رينان ومن جرى على مذهبه: إن العرب ككل الأمم الساميّة ليس لها أساطير في شعرها ولا في عقائدها، وإن هذا يدل على ضيق الخيال لديهم: لأن الأساطير والخرافات إنما هي نتيجة سعة الخيال، ونتيجة الحيرة والبحث وحب الاطلاع. . . وكل ذلك يظهر أثره في بلاغات الأمم من نظم ونثر، كما هي الحال عند الأمم الآرية كاليونان وغيرهم من الأمم الأوربية، وقالوا سعة الخيال، ولا يقصدون بالخيال ما نقصده نحن من المجاز والتشبيه، وإنما يقصدون سعة الخيال في تصور الحقائق وفي إدراك الموضوعات المختلفة، لأن أساطير اليونان كان منشأها البحث عن الخالق وتصوره فلم ترشدهم عقولهم إلا إلى ضرب من الخرافات كتبوا عنها وألفوا فيها الأسفار ونصبوا لها التماثيل، فاستدل الباحثون بذلك على قوة الذكاء وسعة الخيال وحب الجمال والافتتان فيه، وربما كان هذا من الأسباب التي حملتهم على طول الكلام والميل إلى القَصص في النثر والشعر، لأن هذا النوع من البلاغة ليس إلا ضرباً من سعة الخيال في التصور والفكر والتعبير. ومن هنا يكون تعدد الأنواع في ضروب البلاغة نظماً ونثراً).

ذلك كلام الدكتور أحمد ضيف في محاضرات ألقاها بالجامعة المصرية سنة ١٩١٨ ونشرها سنة ١٩٢١.

فهل عرفتم من أين سرق الأستاذ أحمد أمين كلامه عن الفرق بين وثنية العرب ووثنية اليونان؟ هل عرفتم من أين سرق القول بأن الوثنية العربية لم تخلق التماثيل كما صنعت وثنية اليونان؟ هل عرفتم من أين أنتهب القول بأن المجاز والتشبيه لا يدلان على سعة الخيال؟ هل عرفتم من أين اغتصب القول بأن الجاهليين لم تتعدد عندهم ضروب البلاغة فلم يعرفوا الأقاصيص الشعرية والنثرية؟.

إن الدكتور أحمد ضيف لم يبتكر هذا الكلام، ولكنه راعي الأمانة العلمية فذكر مصدره من كلام المستشرقين، أما الأستاذ أحمد أمين فقد انتهب ما نقله الدكتور أحمد ضيف عن المستشرقين ثم ادعى أنه من مبتكراته ودعا الناس إلى مناقشته في تلك (المبتكرات)!!.

فهل عرف أنه جازف أقبح مجازفة حين دعا الباحثين إلى مناقشته وهو يظن أن لن يسمع منهم غير الحمد والثناء؟.

وفُتِنَ القراء بقول الأستاذ أحمد أمين إن العربي الجاهلي وصف ما رآه، وهي فكرة بسيطة لا تحتاج إلى مقال مطول في مجلة اسبوعية، ولكنها مع ذلك مسروقة من قول الدكتور أحمد ضيف:

(كان العربي يصف في شعره ما يراه، ويتكلم عما يشعر به في نفسه من عواطف وفضائل، وقد تكلم وعبَّر عما يجول بخاطره بنفس الشجاعة والإقدام اللذين كانا له في الحياة).

فأين الذين فتنوا بكلام الأستاذ أحمد أمين ليعرفوا أنه مسروق من كلام الدكتور أحمد ضيف؟.

وهناك فرق بين العبارتين: فعبارة الدكتور ضيف سبقت بتعليل مقبول لوقوف العربي عند وصف ما يراه، أما أحمد أمين فاقتضب الكلام حتى لا ينتبه بعض القراء إلى أنه يجدح من سويقِ سواه!.

وقال الأستاذ أحمد أمين إن بلاد العرب كانت في الأغلب جرداء فلم توح إليهم التفنن في وصف المناظر الطبيعية من رياض وبساتين، وجداول وأنهار، وجبال مكللة بالأشجار والأزهار.

فهل يعرف القراء أنه سرق هذه الفكرة من قول الدكتور أحمد ضيف:

(إن طبيعة بلاد العرب الجافة ذات الشكل الواحد لم تُلهم العربي ولم توح إليه من أنواع الجمال غير جمال التعبير عما يجول بخاطره وإظهار عواطفه إظهاراً ساذجاً. غاب عنه جمال الطبيعة من حقول وخمائل ومن جبال وتلال مكللة بالأشجار والأزهار، ونَدرَ لديه جريان الماء وهدوء الجو، فلم ير إلا الصحراء المحرقة ذات الفضاء اللانهائي، والنخل المصعد في السماء على شكل واحد فأثر ذلك في خياله وجعله لا يعرف التغيير).

قد تقولون إن هذه أفكار تعدُّ من البديهيات، فمن حق أحمد أمين أن ينقلها عن أحمد ضيف.

وهذا حق، ولكن ما رأيكم فيمن ينقل البديهيات التي أعيدت مرات على أنها من البدع المبتكر الطريف، ثم يقول وهو مزهو مختال: هذه آراء نعرضها للبحث وندعو القراء إلى مناقشتها رغبةً في تلخيص الأدب العربي من الأوهام والأضاليل؟!.

وأراد الأستاذ أحمد أمين أن يأتي بالأعاجيب فقرر أن العرب لم يعرفوا الشعر القصصي ولا الشعر التمثيلي، وهي فكرة بسيطة لا تحتاج إلى دعوى الابتكار والابتداع، ولكنها مع ذلك مسروقة من قول الدكتور أحمد ضيف: (الشعر القصصي والشعر التمثيلي بالمعنى المعروف الآن عند الأدباء في بلاغات الأمم الأخرى لا وجود له عند العرب).

وما ادعينا ولا ادعى أحد أن العرب كان عندهم شعر قصصي وشعر تمثيلي حتى نحتاج إلى حذلقة أحمد أمين.

وعاب صاحبنا على الناس أن يظنوا أن العرب عرفوا كل شيء، ولامهم على الاطمئنان المطلق إلى المؤلفات القديمة مع أنها على سعتها مشوشة تتنافر بعض أجزائها مع بعض، وعجب من أن يوجد قوم يأنفون من الخروج على الأدب القديم.

وهذا الكلام (المبتكر) مسروق من قول الدكتور أحمد ضيف في مطلع المحاضرة التي ألقاها بحضور الزعيم سعد زغلول في اليوم التاسع من نوفمبر سنة ١٩١٨:

(دراسة الأدب العربي بالطرق المعروفة الآن لا تزال حديثة العهد. والأدب العربي على سعته وغناه مشوش مختلط مرتبك لا يزال باقياً على حالته الأولى من البساطة والسذاجة في التأليف والجمع، ولم تحرر بعد عقول أدبائنا من قيود الطرق القديمة والانتصار لها، ولا يزال يعد الخروج من القديم خروجاً عليه. ولا نزال نعتقد أن القدماء وصلوا إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه العقل البشري من الذكاء والإتقان، وغير ذلك من ضروب الرضا والارتياح).

ومن ذلك ترون أن الأستاذ أحمد أمين لم يكن من المبتكرين حين أراد أن ينهبكم إلى الغفلة التي شاعت منذ أزمان، الغفلة التي توجب أن نجهل أن مصادر الأدب العربي تحتاج إلى تهذيب وترتيب، والتي قضت أن تظل عقولنا في أسر الأدب القديم، والتي أوهمتنا أن العرب لم يتركوا زيادةً لمستزيد، وأنهم وصلوا إلى كل شيء، وأن لغتهم أحسن اللغات.

قد تعتذرون عن الأستاذ أحمد أمين بأنه يحادث ناساً يعيشون في سنة ١٩٣٩ لا في سنة ١٩١٨، ولكن لا تؤاخذوني: فقد توهمت أننا نتقدم في الدراسات الأدبية من يوم إلى يوم، وأن ما ينشر في سنة ١٩١٨ لا يعاد بحروفه في سنة ١٩٣٩ خوفاً من أن يقال إن في أساتذة الجامعة المصرية من يرى الحديث المعاد من المبتكرات.

وحدثكم الأستاذ أحمد أمين أن الإعجاب المطلق بالأدب العربي يضر أكثر مما ينفع، وأن من واجبنا أن نوازن بين أدبنا وبين الآداب الأجنبية، وأن نترك أحكام النقل والتقليد. . . وهذا منقول عن قول الدكتور ضيف:

(كل حكم مبني على النقل أو التقليد لا قيمة له، ولا يفيد شيئاً ولا يصح الاعتماد عليه، فلا يصح أن نصدق قول من قال إن لغة العرب أحسن اللغات بدون أن نعرف شيئاً من اللغات الأجنبية ونوازن بينها وبين اللغة العربية. وإننا لنسيء إلى اللغة العربية وإلى الأدب العربي وإلى الأمة العربية أكثر من أن نحسن إليها بمثل هذه الأقوال التي لا يمكن أن يعتمد عليها إنسان مفكر، كما أنها لا تحرك العقول ولا تحملها على البحث).

ذلك كلام الدكتور أحمد ضيف الذي نقله الأستاذ أحمد أمين بدون أن يشير إليه. . . وهل كان يظن أن في مصر من لا يزال يذكر كلاماً قيل في سنة ١٩١٨ ونشر في سنة ١٩٢١؟.

وحدثكم الأستاذ أحمد أمين بأنه يجب أن ننظر إلى الأدب العربي القديم كما ننظر إلى الآثار المودعة في المتاحف، وندرسه كما تدرس الآداب اليونانية واللاتينية. . . وهذا هو كلام الدكتور ضيف إذ يقول:

(من هذه الوجهة يجب أن نتعصب للغة العربية وآدابها كما يتعصب الأوربيون الآن للغة اللاتينية واليونانية لأنهما أصل معارفهم ومستودع سر مدينتهم).

وحدثكم أحمد أمين بأنه يجب أن يكون لنا أدب مصري يصور المجتمع عندنا ويحدثنا عن الزارع في حقله والتاجر في متجره والعالم بين تلاميذه وكتبه والعابد في معبد والماجن في مجونه. . . وهذا منقول عن قول الدكتور ضيف:

(نريد أن تكون لنا آداب مصرية تمثل حالتنا الاجتماعية، وحركاتنا الفكرية، والعصر الذي نعيش فيه، تمثل الزارع في حقله، والتاجر في حانوته، والأمير في قصره، والعالم بين تلاميذه وكتبه، والشيخ في أهله، والعابد في مسجده وصومعته، والشاب في مجونه وغرامه. أي نريد أن تكون لنا شخصية في آدابنا. ولا نريد بذلك أن نهجر اللغة العربية وآدابها، لأننا إن فعلنا ذلك أصبحنا بلا لغة وبلا أدب).

ومن هنا تعرفون كيف سـرق أحمد أمين تلك (المبتكرات) التي دعاكم إلى تقليبها على جميع الوجوه لتعرفوا ما في كلامه من الخطأ والصواب!.

وحدثكم أحمد أمين بأنه يجب تحرير الشعر من القوافي والأوزان حتى يتسع لشرح مختلف المقاصد والأغراض. وهذا منقول عن قول الدكتور ضيف:

(إن بلاغة العرب محصـورة أو تكاد تكون محصـورة في الشـعر، والشـعر لا يمثل حالة الاجتماع لضيق المجال فيه، لأنه لا يسع جميع الأفكار ولا يحتمل إظهار الحقائق كما ينبغي، لما فيه من القوانين التي جيب على الشـاعر اتباعها، وكثيراً ما تضـطره إلى ذكر ما لا يلزم، أو حذف ما يلزم، ولأن الشـعر رغم كل شـيء مبناه الخيال والمبالغات، والاسـتعارة والتشـبيه والمجاز).

أما بعد فتلك مجموعة جديدة من سـرقات أحمد أمين في الآراء التي عدَّها من (المبتكرات).

فهل أخذتم منها عبرة؟

هي أولاً شاهد على أن في أدبائنا من ينهب آراء معاصريه لا ترفق ولا استبقاء

وهي ثانياً مظهر من مظاهر الاسـتخفاف بيقظة النقد الأدبي فلو كان الأسـتاذ أحد أمين يعرف أن مصر رجالاً يسايرون الحياة الأدبية مسايرة تمكنهم من رد كل كلام إلى مصادره الظاهرة والخفية لتهيب عواقب السطو على آراء من سبقوه في القديم والحديث.

وهي ثالثاً دليل جديد على عدل فاطر الأرض والسـموات، فالدكتور ضـيف قد انسـحب من ميدان الحياة الأدبية منذ أعوام طوال، وهو يوغل في إيثار العزلة والانزواء، ولا يكاد يلتفت إلى أن له آراء يسـرقها أحمد أمين أو غير أحمد أمين، ولعله يتأذى حين يسـمع أننا ننوه بتلك الآراء ونأخذ بتلابيب من يسرقونها في وضح النهار أو ظلام الليل.

ثم ماذا؟ ثم ماذا؟

سترون في المقال المقبل سرقات جديدة من سرقات الأستاذ النبيل أحمد أمين!

وسترون أنه لن يضن علينا بكلمة ثناء!

الهم إني صائم! الهم إني صائم!

فاجعل إفطاري على زاد أفضل من كشف سرقات الأدباء

(النهاية)

هل أستطيع أن أحدِّث القارئ مرةً عن بعض مكاره النقد الأدبي؟

ليتني أعرف من أغروني بسلوك هذا الطريق المحفوف بالمخاطر والمعاطب والحتوف!

كنت تبت ونجاني الله من مهلكات هذا الطريق الوعر الشـــائك، فكيف رجعت إليه بعد أن عرفت وجه الخلاص؟.

كان الأســـتاذ أحمد أمين أحد الأصـــدقاء الذين رأيت أن أتجنب الوقوف في طريقهم مهما كانت الأحوال، وكانت الحجة بيني وبين نفســـي أن هذا الرجل رقيق الإحســـاس، أو ضعيف الأعصاب، فلا يجوز أن أعرض له بإيذاء.

وما زلت أذكر ما وقع في سنة ١٩٣٥

كنت يومئذ مدرساً بكلية الآداب، وأخرج الأستاذ أحمد أمين الجزء الثالث من ضحى الإسلام، وقد سرق من الأستاذ إبراهيم مصطفى مسألة متصلة بتاريخ النحو وسرق مني مسألة متصلة بتاريخ التشريع الإسلامي، فصاح إبراهيم: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجةً ولي نعجةٌ واحدة فكيف يسرقها مني؟ إنه لطمّاع!.

جلست أنا وإبراهيم نتشاكى في غرفة أساتذة اللغة العربية، وانتقلنا من التشاكي إلى التباكي، فهتفتُ: سأنتقم لي ولك يا إبراهيم!.

فقال: يعزّ عليّ أن يَجرح الأستاذ أحمد أمين بسببي، وهو صديق قديم، ولم ينهب مني شيئاً قبل هذه المرة، وأنت يا صديقي قد أوغلت في معاداة طه حسين فلا تضف إليها معاداة أحمد أمين!.

وشاءت المقادير أن أقص هذه القصة على بعض أصدقائي في بغداد سنة ١٩٣٨ فكان من أثر ذلك أن يوجَّه إليَّ سؤالٌ في جريدة (الكلام) عن بيان ما سرق مني أحمد أمين.

ورأيت أن أعتصم بالصمت فلا أجيب: لأني كنت نشرت قبل ذلك كلمة أثنيت بها على جهود أحمد أمين في جريدة (الهدف) ولأني كنت أستقبح اغتياب أبناء وطني في جرائد بغداد، فقد كان أدباء لبنان يسمونني سفير العروبة المصرية في العراق.

ومنذ أشهر نشر الأستاذ أحمد أمين مقالته الأولى فيما سمّاه جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي فلم تعجبني: لأني رأيتها من الحديث المعاد، ثم لقيني مصـــادفةً في (المترو) بعد ظهور مقالته الثانية فسألني عما أراه في الأفكار التي أودعها مقالتيه، فقلت له: لم يعجبني غير نقد الشاهد الذي أوردته من كلام ابن قتيبة، أما سائر أفكارك فتحتاج إلى تحقيق، فقال: أنا دعوت القراء إلى مناقشة تلك الأفكار، وأنا أرحِّب بكل ما يَرِد إلي من تصحيح.

فهل كان يدعوني إلى أن اساجله الحديث؟

كانت الصداقة بيني وبين الأستاذ أحمد أمين قد بلغت أقصى حدود المتانة والصدق، وما كان ينتظر أن يرى مني غير ما يحبّ، وكنت والله خليقاً بالتجاوز عن سيئاته لو لم يُسرف في الإساءة إلى ماضي اللغة العربية في وقت يحرص فيه العرب على تفهيم أبنائهم أن أجدادهم كانوا من أصـــحاب الرفيعة في العلوم والآداب والفنون، وأنهم كانوا في ماضـــيهم من أقطاب الزمان.

وكذلك وقعت الواقعة وكان ما عرفه القراء من تمزيق الأوهام التي اعتز بها ذلك الصديق.

ولكن ما الواجب لهذا التمهيد في مطلع المقال الثاني والعشرين؟

أنا أريد أن يعرف القارئ أني أشـعر بالضـجر حين أثبت في مقال اليوم أن أحمد أمين سرق بعض آرائي، بعد أن أثبتُّ ما سرق من الدكتور أحمد ضيف والدكتور طه حسين، وما كان يهمني أن ينص على ما سرق مني، ولكن اعتزازه بآرائه (المبتكَرة) أوجب الحدّ من جرأته العاتية في نهب تلك (المبتكرات).

وأدخل في صميم الموضوع فأقول:

اهتم الأستاذ أحمد أمين بالنص على أن الشعر العربي كان في أغلب أحواله أدب معدة لا أدب روح، وحجته في ذلك أن التكسب بالشعر كان عادةً غالبةً على أكثر الشعراء، وقد طنطن بهذه المسألة وأخذ يعيدها في كل مكان حتى صحّ للأستاذ محمد العشماوي بك أن يواجهني بهذه العبارة:

(كيف تعيب على الأســـتاذ أحمد أمين أن يقول إن شـــعراء العرب كانوا يتجرون بأشعارهم، وهو قول صحيح)؟.

فهل ابتكر الأستاذ أحمد أمين ذلك الرأي؟

انظروا ما جاء في كتاب (البدائع) ج ١ ص ٩٩

(لا أنكر أن كثيراً من الشعراء اتخذوا مدح الملوك والأمراء وسيلة من وسائل العيش، ولا أنكر أن كثيراً منهم وصل بذلك إلى أسفل دركات الاسفاف، واصرّح بأن من النقائص النفسية أن يسخر الشعر تسخيراً في سبيل المنافع الزائلة، وأعترف بأن هذه النقيصة تمسُّ كثيراً من شعراء اللغة العربية، وإن كان من أسباب العزاء أن هذه النقيصة لم يتفرد بعارها شعراء العرب فقد كان أكثر الشعراء في أوربا يعيشون عالةً على الملوك والأمراء ولم يعرف منهم باستقلال الشخصية إلا القليل. ولكني – مع هذا – أقول بأن المديح ديوان العرب، وهو الوثيقة الباقية على ما كان فيهم من كرم الشمائل والخصال. والمادحون قد يكذبون، ولكنهم في كذبهم يصورون ما اصطلح عليه معاصروهم من ألوان المحاسن والعيوب، فالشاعر الكاذب يقف كذبه، عند حقيقة ممدوحه، ولكنه من الوجهة الاجتماعية صادق كل الصدق، لأنه يصور ما يتشهى ممدوحه أن يتصف به من كرائم الخلال).

وهذا البحث كان من البحوث التي راعت الأستاذ المازني وكان نُشرَ في جريدة البلاغ قبل أن يُضم إلى الطبعة الثانية من كتاب البدائع.

وقد رأى الأستاذ أحمد أمين أن ينهب الشطر الأول من الفكرة ويغفل الشطر الأخير، لأن الشطر الأخير فيه توجيه لمدائح الشعراء وهو حريص على طمس محاسن أولئك الشعراء.

وعاب أحمد أمين على العرب أن يلتزموا افتتاح القصائد بالنسيب وأن يتنقلوا بهذه العادة من جيل إلى جيل، في حين أن الشاعر قد لا يكون مشبوب العاطفة في كل حين.

وهذا الكلام مسروق من مقال أرسلته من باريس سنة ١٩٣١ وفيه أقول:

(لقد درج شعراء اللغة العربية منذ الزمن القديم على افتتاح القصائد بالنسيب، وتلك طريقة لها محاسن ولها عيوب: فمن محاسنها أنها تمهد للشاعر طريق الكلام، وهي بذلك أشبه بالموسيقى تتقدم الغناء ليثور قلب المغنّي ويُرهَف إحساسه للتلحين والتطريب. ومن مساويها أنها تفرض على الشاعر ما لا قِبَل له باحتماله من التغني بعواطف قد تكون خمدت في صدره منذ أزمان. على أن الشعراء الأقدمين قد التزموا هذه القاعدة حتى وصلت ببعضهم إلى الإسفاف، وحسبُ القارئ أن أذكر له أن من الشعراء الماضين من كان يفتتح قصائد الرثاء

بالنسيب، وذلك أغرب ألوان الشذوذ، وقد أحصيتُ من هذا النوع عشرين شاهداً هي في مذكراتي بمصر، فليعذرني القارئ إن اكتفيت بالإشارة إليها في هذا الحديث).

وصرح أحمد أمين بأن المعاني القديمة لم تخضع للتجديد، وإنما نقلها الشعراء بلا تجميل ولا تحسين. أفلا يصح القول بأنه سرق هذه الفكرة مما جاء في كتاب (البدائع) ج ١ ص ٢٩.

(إن شعراءنا يدورون حول الحسن فلا يرون منه غير ما كان يرى الأقدمون. فحيرةُ الشاعر اليوم هي حيرة أسلافه منذ قرون مع أن النفوس قد تعقدت أشد التعقد، وهذا الحُسنُ – إن لم يلطف الله – ماضٍ في الفتك بلفائف القلوب، وقد جدّت للأرواح أزمات جديدة ومطامح جديدة لم يَشْقَ بها الأولون، فليس من المغالاة في شيء أن نصارح القراء بأن الغزل في شعر شوقي وأضرابه من المعاصرين أصبح أعجز ما يكون عن وصف ما في نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا من ألوان القلق والظمأ والالتياع).

واهتم الأستاذ أحمد أمين بتوكيد القول بأن نزعة القرآن روحية لا حِسيّة. فنال بذلك ثناء الأستاذ محمود علي قراعة الذي عدّ كلامه من المبتكرات، فهل يعلم أن هذا الكلام مسروق من قول صاحب (التصوف الإسلامي) ج ٢ ص ٧.

(وأقرب الآثار الصوفية إلى أذهان الناس هو القرآن، ذلك الكتاب الذي أطال القول في وصف الدنيا وذمها وثلبها وتحقيرها، وقضى بأنها لهو ولعب، وأنها في نضارتها ليست إلا متاع الغرور. القرآن هو أقرب الآثار الصوفية إلى أذهان الناس وإن جهلوا ذلك، هم يعدّونه كتاب تشريع ونراه كتاب تصوف. إن التشريع في القرآن ليس إلا تنظيماً للعلاقات الدنيوية، والعلاقات الدنيوية في نظر القرآن هي تمهيدٌ للصلات الروحية: صلات الناس بالله الكبير المتعال، وكلُّ مَغنم لا يُقرِّب المرء من ربه هو في نظر القرآن ذُخرٌ باطلٌ سخيف).

ومع ذلك يقال إن أحمد أمين يدعو إلى الروحانيات وإن زكي مبارك يقاوم الروحانيات!

فيا ربَّ هل إلا بك النصر يُرتَجَى عليهم؟ وهل إلا عليك المعوَّلُ؟

غفر الله لي ولكم، يا إخوان هذا الزمان!

ويوصي أحمد أمين بقَصْر دراسة تاريخ الأدب على المعاهد العالية والاكتفاء في المدارس الثانوية بنصوص مختارة من الأدب الحديث.

فمن أين أخذ هذا الكلام وهو الذي اشترك مع لجنة مكونة من أشخاص معروفين في تأليف كتابين للمدارس الثانوية بُدِئ فيهما بالأدب الجاهلي والأدب الأموي، وهما عصران أعلن عليهما الحرب في هذه الأيام؟.

أخذ هذا الكلام من قول صاحب رسالة (اللغة والدين والتقاليد) ص ٤٢ و ٤٣.

(إن درس تاريخ الأدب بدعةٌ نقلناها نقلاً عن أوربا، وهي مقبولة هناك؛ لأن الأدب الأوربي يكثر في القصَصَ والتمثيل، وهي موضوعات أَلفها التلاميذ، لأنهم منذ الطفولة عرفوا القصَصَ وعرفوا التمثيل، فلا يصعب عليهم أن يفهموا الفرق بين فن وفن، وعصر وعصر، وأسلوب وأسلوب. أما في مصر فالأدب في جملته يتحدث عن شؤون جِدية لم يعرفها الشبان من قبل، فمن العسير أن يدركوا كيف تطور واستحال من جيل إلى جيل. . . إن تاريخ الأدب لا ينبغي أن يدرس إلا في المعاهد العالية، أما المدارس الثانوية فيدرس فيها الأدب الصِّرف، مع العناية بشرح النصوص والبحث عن مواطن الجمال في النثر الجيد والشعر البليغ. . . درس تاريخ الأدب في المدارس الثانوية جهدٌ ضائع، وسنصبر عليه إلى أن تسوق المقادير رجلاً حاذقاً من بين الذين عرفوا عقلية التلاميذ، وما أظن أننا سنصبر طويلاً، لأن العناية بإصلاح التعليم تزداد من يوم إلى يوم، والى أن تحذف تلك المادة الفضولية نوصي أساتذة اللغة العربية بأن يتخيروا للمطالعة والمحفوظات نصوصاً لا تخرج عن الأدب الحديث، لأنه أقرب العصور إلى أذهان التلاميذ، وقربُهُ من أذهانهم يساعد المعلمين على بيان ما يتصل به من الملابسات الخلقية والاجتماعية، ويمكِّن التلاميذ من فهم ما فيه من أسرار البيان).

ورسالة (اللغة والدين والتقاليد) نشرت في سنة ١٩٣٦، والفكرة قديمة عند صاحب هذه الرسالة فهي مُثْبتةٌ في كتاب (ذكريات باريس) الذي طبع في سنة ١٩٣١.

وأحمد أمين يعرف أن الجندي المجهول الذي اسمه زكي مبارك هو الذي غير منهج دروس الأدب في مدارس وزارة المعارف من حال إلى حال، فقد كانت تبتدئ بالعصر الجاهلي فصارت تبتدئ بالعصر الحديث. ومن السهل أن نستخرج المذكرات التي قدمتها للوزارة في هذه القضية ليعرف أحمد أمين هوية الرجل الذي وَأَد كتاب (المجمل) وكتاب (المفصَّل) عليهما رحمة الله، وعلى مؤلفيهما السلام، وهي تحية تصل أصداؤها إليه وإلى علي الجارم وأحمد ضيف وعبد العزيز البشري وطه حسين.

وسيأتي يوم أفصِّل فيه ما أديت من الخدمات لتوجيه الحياة العلمية بوزارة المعارف؛ تلك الخدمات التي انتفع بها أحمد أمين وغير أحمد أمين، ثم مضت بلا شكر ولا جزاء غير السرقة والانتهاب!.

إن الفخر بغيض ممقوت، وقد عابه عليَّ الأصدقاء قبل الأعداء؛ ولكن ماذا أصنع وأنا أشهد آرائي تُنتهب بلا تحرُّز ولا ترفق، وبها يرد على خصومي حين يشتجر القتال، وكأنها مما ابتكرت أفكارهم الثواقب وألسنتهم النواطق!.

ويقول أحمد أمين وطه حسين: إن الأدب يجب أن يرفع نفسية الأمة ويدلها على مواطن الضعف والقوة لتواجه الحياة عن هدى وبصيرة.

فهل أستطيع أن أقول إن هذه الآراء منهوبة من قول صاحب رسالة (اللغة والدين والتقاليد) (ص ٤٦ و ٤٧).

(فإذا انتقلنا من الأدب وتاريخ الأدب في المدارس الثانوية والعالية تلفتنا نبحث عن الأديب المخلوق لدرس الحياة، ونحن نرجو أن يكون في أساتذة الأدب من يخرج على الذوق المتكلف والوقار المصنوع، نرجو أن يكون عندنا أساتذة يزورون تلاميذهم في بيوتهم، ويرافقونهم في الحفلات والسهرات، ويطوفون بهم على الأحياء الشعبية ليعلموهم كيف تكون الثورة على ما في حياة الشعب من بؤس وشقاء. . . نريد أساتذة يربون تلاميذهم على مرافقة العمال والصناع والفلاحين ليكونوا في المستقبل من حملة الأقلام الثورانية التي تبدد غياهب الجهل والخمول. . . نريد أدباً يبعث في الشعب روح التمرد على الفقر والمسكنة والذل، ويروضه على الطمع الشريف في الغنى والكسب والعزة والكبرياء. . . نريد أدباً يطمعنا في استرجاع ما ضاع من مجد مصر والنيل. . . نريد أدباً يرفعنا إلى صفوف الجوارح، نريد أدباً يعلمنا فضل المِخلب والناب، نريد أدباً نسيطر به على الدنيا غير باغين ولا عادين).

أما بعد فقد أنهيتُ القول في محاسبة الأستاذ أحمد أمين بعد أن أرَّقت جفونه خمسة أشهر كانت عنده كألف سنة مما تعدون، وأنا أشكر لمجلة (الرسالة) وقرائها ما لقيت من تشجيع وترحيب.

انتهيت من محاسبة أحمد أمين الباحث، أما أحمد أمين الصديق فله في قلبي أكرم منزلة وأرفع مكان، ولن يراني إلا حيث يحب في حدود المنطق والعقل، فما أرضى له أن يكون من الساخرين بالأدب العربي وماضي الأمة العربية.

وسأبدأ بالتحية حيث ثَقِفْتُه. فلا يَزْو عني وجهاً أراه أهلاً للكرامة والحب.

وسلام عليه من الصديق الذي لا يغدر ولا يخون.

(تم البحث)

زكي مبارك

المحتويات

- ١ -..... ٣

- ٢ -..... ٥

أحمد أمين ليس بكاتب ولا أديب وإن سودّ الملايين من الصفحات ٦

قامت نظرية أحمد أمين على غير أساس..... ١٠

تورط أحمد أمين في أحكام جائرة وهو يلخص تاريخ الأدب بطريقة صحفية... ١١

- ٣ -..... ١٢

ماذا أريد أن أقول؟..... ١٧

- ٤ -..... ٢٠

لن نقول شيئاً يمس أحمد أمين، ويكفي أن نقف عند الملاحظات الآتية:..... ٢١

- ٥ -..... ٢٨

فماذا نريد أن نقول اليوم؟..... ٢٨

ومن المحنة جاء الامتحان!..... ٢٨

أتريدون الحق؟..... ٢٩

- ٦ -..... ٣٤

ليت، ثم ليت!!..... ٣٨

- ٧ -..... ٤٢

- ٨ -..... ٥١

- ٩ -..... ٥٩

أتريدون الحق أيها القراء؟..... ٦٢

وهل في الأدب حُسنٌ وقبح؟..... ٦٦

- ١٠ -..... ٧٠

آه، ثم آه!! ٧٦
- ١١ -..... ٨٠
مالي ولهذا؟..... ٨١
- ١٢ -..... ٩٢
أيها القراء أسمعوا، وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا ٩٣
هيهات! هيهات!..... ٩٧
قولوا الحق أيها القراء!..... ٩٩
- ١٣ -..... ١٠٢
ثم ماذا؟..... ١٠٤
هو يحب أن يضاف إلى رجال الأخلاق! ١٠٨
ما هذا الذي أقول؟..... ١٠٩
- ١٤ -..... ١١٢
ما معنى ذلك أيها الناس؟..... ١١٨
- ١٥ -..... ١٢٢
أيها القراء ١٢٥
أما بعد فهل ينتهي صديقنا الأستاذ أحمد أمين؟ ١٣٠
- ١٦ -..... ١٣٢
هيهات، هيهات!!..... ١٣٣
- ١٧ -..... ١٤٢
وا أسفاه!!..... ١٤٤
- ١٨ -..... ١٤٩
أتريدون الحق؟..... ١٥٦

- ١٩ -..... ١٦١
- ٢٠ -..... ١٦٩
فما معنى هذا الكلام؟..... ١٧٢
ماذا يظن أحمد أمين بذاكرة الرجال؟..... ١٧٦
- ٢١ -..... ١٧٧
فهل أخذتم منها عبرة؟..... ١٨٢
(النهاية)..... ١٨٣